أجنحة للتحليق

اسم الكتاب: أجنحة للتحليق
اسم الكاتب: محمود عبده حسن
تدقيق لغوي: مصطفى حسين
تصميم الغلاف: محمد سعد الشحات
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى – 2020 م
رقم الإيداع: 19347 / 2020
الترقيم الدولي: 3 – 01 – 6852 – 977 – 978

arabiclibrary2017@gmail.com
almaktaba79@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017
01030365801 - 01014977934

جميع الحقوق محفوظة

للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

أجنحة للتحليق

قراءات

محمود عبده حسن

للنشر والتوزيع
Arabic Library

الإهداء

إلى أمي يرحمها الله..

إلى أبي مد الله تعالى في عمره..

إلى الإنسانية..

أهدي هذا الكتاب.

المقدمة

هذا الكتاب يمثل خلاصة رحلتي الطويلة في بطون الكتب؛ اكتشافا لعوالم ورصدا لرؤى صاغها كتابها، تمثل أبعادا لثقافات ونتاجا هو ميراث الإنسانية. عطاء هؤلاء الكتاب والمفكرين يمثل التواصل الحقيقي، والتسامح الفكري الذي يربط البشرية بميثاق غليظ، اقرأ الأمر الإلهي الأول، أول مشاعل النور نحو الطريق المستقيم إلى الله تعالى، فكانت جوهر رسالة الرسل، والسبيل إلى معرفة الخالق سبحانه وتعالى.

تعددت موضوعات هذا الكتاب بين التراث والمعاصرة، قراءة واستكشاف، وبين الاطلاع على الثقافات المعاصرة بما تمثله هذه الثقافات من إرث فكري وإبداعي، حتى نؤمن أن هناك مساحة من التواصل عبر هذا الإرث العظيم الذي تمثله الكلمة، وأن هناك مجالا رحبا للتلاقي، وأن القاسم المشترك التي تشترك فيه جميع الإنسانية هي نشر سبل الخير والحرية والسمو الروحي الذي يمثله هذا الفكر، على الرغم من اختلاف العقائد والاتجاهات الفكرية.

بعض هذه المقالات تم نشرها في عديد من الدوريات الثقافية العربية، والأخرى لم ينشر بعد.

والله أرجو أن أكون وفقت في طرح هذه الرؤى مع إعطاء القارئ صورة من صور التواصل وقراءة للتراث العظيم، مع الاطلاع على بعض الآداب الأخرى ليكون التراث والمعاصرة بين يدي القارئ العزيز. فرصة للتحليق في عوالم هؤلاء الكتاب والقرب منهم، ومحاولة قراءتهم من جديد لعلنا نجد معهم الغاية ونعيش معهم اللحظة مع كل هذا الإبداع.. الحياة ضيقة، والرؤى أوسع مما نتصور، نعيش مع الكتاب كما عاش غيرنا، ونقترب من هذا العالم الرائع الجميل بكل أبعاده، نحلق مع الكلمات ونعيش اللحظة، القراءة هي السبيل الوحيد للتحليق إلى أبعد مدى، ومع نعمة الخيال بوسعنا أن نرى العالم أكثر جمالا وعدلا...

تأبط شرا من ظرفاء الصعاليك وفرسانهم"

"تأبط شرا" من شعراء الجاهلية الصعاليك وفرسانهم، وتربطه معهم صولات وجولات وحياة مشتركة، وقد ارتبط بصفة خاصة "بالشنفرى" الشاعر وكان "الشنفرى" على قرابة بتأبط شرا، فظل ملازما له يكاد لا يفارقه ولا يغفل عنه. حتى تلبس شعر الشنفرى مع شعر تأبط شرا، ونسب كثير من الرواة بعض أشعاره إلى تأبط شرا، على الرغم من اختلاف التجربة الشعرية بينهما. جاء ذكر تأبط شرا في كثير من مصادر الأدب؛ فقد جاء ذكره في كتاب "الأغاني" الذي خصه مؤلفه "أبو الفرج الأصفهاني" بفصل تحدث فيه عن حياته، وما صاحبها من مواقف، واستشهد بكثير من شعره، بجانب "الأغاني" اختار له "المفضل الضبي" في كتابه "المفضليات" شعرا كثيرا، بل جعل فاتحة المفضليات قصيدة تأبط شرا المشهورة التي مطلعها:

يا عيد ما لك من شوق وإبراق

ومر طيف على الأهوال طراق

يسري على الاين والحيات محتفيا

نفسي فداؤك من سار على ساق

إني إذا خلة ضنت بنائلها

وأمسكت بضعيف الوصل أحداق

نجوت منها نجائي من بجيلة إذ

ألقيت ليلة خبت الرهط أرواقِ

والشاعر "تأبط شرا"، وهي الكنية التي اشتهر بها الشاعر الجاهلي "أبو زهير ثابت بن جابر"، كان مصدر حيرة لمن اطلع على سيرته، وقرأ أشعاره، أما مصدر هذه الحيرة فيتمثل في أسلوب الحياة الغريبة التي كان يحياها "تأبط" فرواة سيرته يقصون عنه أنه كان يخرج إلى البادية يسابق فيها الغزلان نهارا، ويقاتل فيها الوحوش ليلا، وقد اتخذ من سفوح الجبال مسكنا له، وهكذا كان يومه، ليس له عمل يقوم به، ولا صناعة يتقنها سوى ذلك، وقد عرف من طباعه أنه سريع العدو، ثاقب النظر، وصفه عمرو بن أبي عمرو الشيباني الذي كان معاصرا له، وكان عمرو يشغله سرد قصص العدائين وأخبارهم، هذا الوصف الذي يشير إلى مهارة تأبط وسرعته يقول: "إن تأبط شرا كان أعدى ذي رجلين وذي ساقين وذي عينين وكان إذا جاع لم تقم له قائمة، فكان ينظر إلى الظباء فينتقي على نظره أسمنها، ثم يجري خلفه فلا يفوته حتى يأخذه فيذبحه بسيفه ثم يشويه فيأكله. ويكاد لا يرى لشدة سرعته" في هذا يقول تأبط شرا مشيرا إلى قدرته ومهارته في العدو وتفرده في ذلك قائلا:

لا شيء أسرع مني ليس ذا عذر

وذا جناح، بجنب الريد خفاق

عاش الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، وسرد رواة الأدب ومؤرخيه حياة هؤلاء الصعاليك من خلال شعرهم، وعند تأبط شرا وقفوا طويلا، فإذا كان الشعراء الصعاليك أمثال الشنفرى، والأحيمر السعدي والسليك بن سلكة نفروا من الناس لأسباب اجتماعية واقتصادية وَتزعمهم (عروة بن الورد) الذي كان كريم الخصال. أخذ هؤلاء الصعاليك حياتهم مأخذا قاسيا كان نتاج هذه الحياة القاسية وصعوبة العيش فيها تنبهوا إلى وضعهم الاجتماعي والاقتصادي والنفسي، فكان التمرد على هذه الحياة سبيل اتخذوه، فلجئوا إلى أن يكونوا النغمة المختلفة في بيئة مفرداتها الرمال والجبال والجمود، فكان شعرهم تعبيرا عن هذه الحياة وسردا لواقع الصعاليك بما في هذا الواقع من الطرفة والغرابة، كان تأبط شرا شخصية غريبة ومختلفة في طباعها عن هؤلاء الصعاليك، سخر من الناس وسلب منهم عقولهم بادعائه رؤية الجن والغول، والغيلان، والمخلوقات الغريبة في الوديان، وسرده قصصه معهم في كثير من شعره حتى ظهرت مفردات شعره ومعجمه تمتلا بروح الأساطير بجانب الحديث عن تفاصيل حياته من الإغارة على الأغنياء البخلاء، وسلب أموالهم وهيامه في الجبال وسرده لمغامراته فيها حتى أصبح شعر تأبط صورة حية نرى فيها كل هذه التفاصيل عن حياته، يقول النقاد عن شعر تأبط إنه امتاز بنبرة الواقعية، والنزعة التصويرية الطبيعية مع رؤيا حيوية للوجود فائرة بنزعات الإنسان القوي المقبل على المجهول، ويتصف شعره

بالجفاء الجاهلي القديم، ويكثر من بداهة العاطفة، وسذاجة الحكمة، واندفاع الإخلاص، بجانب قوة في الملاحظة، ودقة في الوصف، استعمل سهولة الألفاظ، والألفاظ الشائعة وسهلها ومكن فيها قول الموعظة والحكمة. يأتي هذا الحديث عن هذه التجربة الشعرية في وصف الحالة الشعرية، وقدرة تأبط على التصوير، وترجمة هذه الأحداث إلى صور شعرية في غاية الدقة والجمال مع جانب من الخيال الواسع، وقدرة فائقة على الوصف وصنع الأخيلة، وترجمة المشاهد إلى مرادفات تدل على صدق تجربته الشعرية وثرائها.

مولده:

لم تذكر لنا المصادر التي تناولت حياة "تأبط شرا" شيئا عن تاريخ ميلاده، ولكن تتفق جميعها في عام وفاته، فتوفي في (80ق ه – 530م). ويقال إنه توفي في 607 م وكانت وفاته في وادي نمار من ريف الطائف في بادية الحجاز، وهو الوادي الذي شهد حياة تأبط وكان مسرحا لجولاته وملهما لقصائده وكرّه، وغير نفر من الصعاليك معه. وقد احتفظ هذا الوادي بسماته الجغرافية وتوارث أبناء الوادي سيرة تأبط حتى أُطلق على هذا الوادي الذي شاهد حياة تأبط شرا اسم "تأبط" وهو الاسم المعروف به الوادي الآن وشهد كر وفر تأبط شرا، كان هذا الكر قصد العيش أو الثأر، والإحسان إلى الفقراء من غنائم القوم الذين يحصلون عليها، قيل عن وفاته إنه مات مقتولا في اغلب

الروايات وقيل أيضا: قُتِلَ في معركةٍ مع بني رجيلة في جبل نمار من أرضهم، وفي رواية أخرى قيل: قتل بلدغة أفعى أخرجها من جحرِها فلدغته١].

نسبه:

هو ثابت بن جابر بن سفيان بن عدي، ينتهي نسبه إلى مضر بن غيلان. أمه يقال لها "أميمة" من بني القين من "فه"، له من الإخوة ريش بلغب، وريش نسر، وكعب جدر، ويقال له أخ آخر اسمه عمرو مات صغيرا، تزوجت أمه أبا كبير الهذلي، دون رغبة تأبط شرا فقد كان غير موافق أن تتزوج أمه أبا كبير، الأمر الذي كانت بينه وبينه مشاحنات، كبر تأبط في بيت أمه وكبر خوف أبي كبير الهذلي من تأبط فاشتكى إلى أمه فقالت له اقتله، وفي أحد الأيام اصطحب أبو كبيرٍ تأبط شرا في الغزو، وفي الطريق توقفا وقال أبو كبيرٍ لتأبط شرا: "إني جائعٌ فهل تستطيع جلب بعض الطعام لي من النار التي هناك؟"، فذهب تأبط شرا ليجلب له الطعام ولم يعلم أن هناك لصوصا اتفق معهم أبو كبيرٍ ليقتلوه، ولكن تأبط شرا عاد بعد قليلٍ بلحمٍ إلى أبي كبيرٍ فسأله أبو كبيرٍ "كيف أتيت به؟"، فقال تأبط شرا "قتلت الشخصين الذين كانا بجانب النار وأتيت لك بالطعام" فزاد خوف أبي كبيرٍ منه.. وزاد تمسكا به حتى مدحه بقصيدة مشهورة تعرف بالقصيدة اللامية، رواها أبو تمام في ديوان الحماسة، وفيها يرسم أبو كبير الهذلي صورة وصفية لتأبط شرا ذاكرا قوة تأبط شرا

وصلابته، وخفته، وجرأة قلبه، وسرعة عدوه، وكيف أعدته الطبيعة منذ طفولته المبكرة ليكون قويا يستطيع أن ينهض بالعبء الذي ستلقيه الطبيعة على عاتقه فيما بعد، ذلك العبء الثقيل الذي لا يستطيع أن يقوم به إلا من أعدته الطبيعة إعدادا خاصا، يقول الدكتور يوسف خليف في وصفه لهذه القصيدة –قصيدة أبي كبير الهذلي اللامية في وصف تأبط شرا– "هي صورة متكاملة الجوانب، واضحة الألوان، يرسمها الشاعر لتأبط شرا.".

سبب كنيته "تأبط شرا":

تعددت الروايات في عديد من المصادر التي ذكرت "لماذا لقب ثابت بتأبط شرا؟" وهى الكنية التي عرف بها ولا يعرفه مطلع شعره إلا بها، وكلها يغلب عليها طابع الفكاهة؛ ففي (الأغاني) قالت له أمه: كل إخوتك يأتيني بشيء إذا راح غيرك، فقال لها: سآتيك الليلة بشيء ثمين، ومضى فصاد أفاعٍ كثيرة، فلما ذهب أتى بهم في جراب متأبطا به، فألقاه بين يديها، ففتحته فتساعت في بيتها، فوثبت وخرجت فقال لها نساء الحي! ماذا أتاك به ثابت؟ فقالت: أتاني بأفاعٍ في جراب، فقالت النسوة: لقد تأبطها فتأبط شرا. ويقال أيضا: إن أمه قالت له في زمن جمع الكمأة: "والكمأة نبات مشهور ينبت في الصحراء بعد سقوط الأمطار بعمق من 5 إلى 15 سنتيمتر تحت الأرض ويستخدم طعاما." قالت أمه: ألا ترى غلمان الحي يجنون لأهليهم الكمأة

فيروحون بها؟ فقال: اعطني جرابك حتى أجتني لك فيه، فأعطته، فملأه لها أفاعٍ كثيرة. وقد أنشد ثابت أسر إطلاق القوم عليه لقبه "تأبط شرا" بيته المشهور:

تأبط شرا ثم راح أو اغتدى

يوائم غنمه أو يشيف على ذخل

شجاعته:

كان تأبط شرا من أشجع الصعاليك وأكثرهم سردا لقصص شجاعته وقد عبر عن ذلك في قوله:

وما ولدت أمي من القوم عاجزا

ولا كان ريشي من ذنابي ولا لغب

كان لتردد قصص الشجاعة ومفرداتها القوية في شعر تأبط الأمر الذي جعل صاحب "الأغاني" يختص تأبط شرا بفصلٍ خاص تحدث فيه عن شجاعة تأبط، وذكر طرفا من أخباره، ونوادره، وقص علينا بعض هذه الحكايات التي تروى عنه، وكثير من أشعاره التي استشهد بها تأبط ليبين لنا مدى شجاعته وإقدامه، من بين هذه الحكايات التي تروى عنه قصته المشهورة مع رجل من "ثقيف" يقال له "أبو وهب" وكان "أبو وهب" جبانا عليه حلة جيدة، فقال أبو وهب لتأبط شرا: بم تغلب الرجال يا ثابت، وأنت كما

أرى دميم ضئيل؟ قال باسمي، إنما أقول ساعة ما ألقى الرجل: أنا تأبط شرا، فيخلع قلبه حتى أنال منه ما أردت، فقال له "أبو وهب": أبهذا قط؟ قال: قط. قال: فهل لك أن تبيعني اسمك؟ قال: نعم. قال: فيمَ تبتاعه؟ قال: بهذه الحلة وبكنيتي، قال له: افعل، ففعل. فقال له تأبط شرا: لك اسمي ولي اسمك وكنيتك. وأخذ حلته وأعطاه طمرية (أي ثوب خلق) ثم انصرف، وقال في ذلك يخاطب زوجة وهب الثقفي:

ألا هل أتى الحسناء أن حليلها

تأبط شرا واكتنيت أبا وهبِ

فهبة تسمَّى اسمي وسميت باسمه

فأين له صبري على معظم الخطبِ

وأين له بأس كباسي وصورتي

وأين له في كل فادحة قلبي

هكذا جاءت الأبيات لتعبر عن تصوير دقيق لقصته مع وهب وما حدث بينهما وفي الأبيات إشارة واضحة لاعتزاز "تأبط شرا" بشجاعته وإقدامه مع جانب من روح الفكاهة والدعابة التي أخذت أيضا حيزا كبيرا من أحداث سيرة تأبط في بعض المشاهد التي تعرض لها في حياته، ومن هذه المشاهد أيضا الدالة على شجاعة تأبط وتحمله المخاطر، فقد خرج كعادته كل يوم في اتجاه وادي "بطان"، وكان هذا الوادي كثيرا ما يأنس إليه تأبط، يذهب إليه في

الخفاء يقرض فيه الشعر، ويسابق فيه الغزلان، ثم يعود في الغداة يروي للقوم ما ما حدث له، ويبدو أن هذه الليلة التي خرج فيها كانت ليلة يسودها ظلمة ورعد، فلقي "الغول" فأخذ يقاتلها حتى أصبح. فصور هذه القصة في أبيات له وفى الأبيات تمنى لو أن فتيان "فهم" – قبيلته- قد علموا بقصته هذه فيشدون له بالقوة والشجاعة. يقول تأبط:

ألا مبلغ فتيان فهم

بما لقيت عند رحى بطان

بأني قد لقيت الغول تهوي

بسهب كالصحيفة صحصحان

فقلت لها: كلانا نضو أينٍ

أخو سفر فخلي لي مكاني

فأهديها بلا دهش فخرت

صريعا لليدين وللجران

فقالت: عد فقلت لها رويدا

مكانك إننى ثبت الجنان

فلم أنفك متكئا عليها

لأنظر مصبحا ماذا أتاني

إذا عينان في رأس قبيح

كرأس الهر مشقوق اللسان

وساقا مخدج وسراة كلب

وثوب من عباء أو شنان

وهكذا جاء وصف "تأبط شرا" لهذه الواقعة وما حدث له مع "الغول" في هذه الليلة الظلماء وصفا صادقا أكد لنا صدق حديثه، وقد جاءت الأبيات بهذه الصياغة الشعرية وتلك المفردات القوية حتى يقتنع بها فتيان "فهم" قبيلته لتكون شهادة على شجاعة تأبط شرا، وقد قيل له تعليقا على هذه الواقعة –ويبدو أن القائل أحد فتيان القبيلة–: هؤلاء الرجال غلبتهم، فكيف لا تنهشك الحيات في سراك؟ فقال: إني لأسير البردين –يعني آخر الليل وأوله– لأنها تمر خارجة من حجرتها وآخر الليل تمر مقبلة إليها، ويبدو أن قصص الغول مع تأبط لا تنتهي. هناك قصة أخرى حدثت له مع الغول الذي كثر ذكره في شعر تأبط، فقد احتملها ذات ليلة مظلمة وهو يحسبها جرو صغير، وقد قال في ذلك بيتين من الشعر رائعين، صور فيهما ملازمته للغول وحمله لها تحت إبطه دون علمه حتى أصبحت له جارة فقال في ذلك:

فأصبحت الغول لي جارة

فيا جارتا لك ما أهول

فمن كان يسأل عن جارتي

فإن لها باللوى منزلا

كثر ذكر "الغول" في شعر تأبط وفي كثير من شعر الصعاليك نجد مرداف "الغول" ليتبين لنا الحالة النفسية عند هؤلاء الصعاليك، هذا الكائن الأسطوري له دلالة في دراسة حال هؤلاء الصعاليك وصفاتهم النفسية، فالشاعر الصعلوك الذي يجوب الفيافي والقفار وحده، يتراءى له من المناظر العجيبة والتمثيلات الغريبة مما يجعله يتصور كائنات خرافية، تزداد هذه المخاوف ليلا نتيجة الوحشة والفزع ويرجع "المؤرخ المسعودي" ذلك إلى المحيط المكاني الذي يسبب هذه المخاوف. وفي شرحه هذه الحالة والجانب النفسي في تردد ذكر الغول والغيلان في شعر تأبط شرا وغيره من الصعاليك، يقول "المسعودي" الإنسان إذا سار في هذه الأماكن روع وجلب وجبن، فإذا هو جبن داخلته الظنون الكاذبة، والأوهام المؤذية السوداوية الفاسدة، فصورت له الأصوات، ومثلت له الأشخاص، ولأن المنفرد في القفار مستشعر للمخاوف، متوقع الحتوف، لقوة الظنون الفاسدة على فكرته، انغراسها في نفسه، فيتوهم ما يحكيه، من هتف الهواتف، واعتراض الجان له.."

لعل في وصف المسعودي حال الشاعر الصعلوك في كثرة تردد ألفاظ "الغول" والغيلان" وغيرها من الكائنات الغريبة تفسيرا لتردد ذكر تأبط شرا للغول وسرده لقصصه معه تقريبا لنا لفهم نفسية تأبط وغيره من الشعراء الصعاليك. الذين جاءوا بذكر حيوان الصحراء ووحشها في كثير من شعرهم، كما في ذكر الضباع والوصف الدقيق لها عن حياتها وطباعها في شعر الأعظم

الهذلي، وذكر الذئاب الجائعة في لامية العرب للشنفرى، فحين تردد ذكر المخلوقات الغريبة والغيلان في شعر تأبط شرا دليلا على معرفة هؤلاء الشعراء الصعاليك بالصحراء وهيامهم فيها، أصبحوا على علم واسع بأسرارها وطرقاتها الوعرة وهضابها ومعرفة بشعابها ومقدرة فائقة على الاهتداء في مجاهلها، واختراق متاهاتها المضلة دون دليل، لذا عرفتهم القبائل وأدركوا قوتهم ووقف رواة الأدب في سرد هذه المقدرة الفائقة لهم في سبيل إعطاء صورة كاملة على حياتهم وتفاصيلها الدقيقة التي تمثل جانب من الحياة اليومية في المجتمع الجاهلي القديم. تفتح لنا الطريق لفهم مرادفات الشعر الجاهلي وبيئته.

قصيدته في الموت:

على أثر خطبته لامرأة من هذيل من بني سهم، بلغه أن أحد حساده قال لها: "لا تنكحيه، فإنه غدا يفقد؟"، كتب تأبط شرا قصيدة هي من أصدق ما قال تأبط شرا ردا على هذا الحديث، وفي هذه القصيدة يصور الموت تصويرا صادقا دالا على جانب آخر من جوانب شخصيته، إلى جانب ما عرف عنه من حب العدو والفكاهة وسرد قصص بطولته، وهو الجانب الذي غلب على شخصيته، في القصيدة بعد فلسفي صاغه بجانب من الحكمة والتسليم للقضاء بحتمية الفناء وحقيقة الموت، هذه النفسية التي نجدها في كثير من الشعر

الجاهلي الذي آمن شعراؤه بالموت وفناء الحياة، نجد تردد ذكر الموت وحكمته عند عبيد بن الأبرص، وطرفة بن العبد، وخاله المتلمس الضبي وغيرهم. وبعض هؤلاء مات في أعمار قصيرة. في هذه القصيدة أيضا نجد ذكر جانب من صفات تأبط شرا، فهو قليل النوم، يهوى العدو، يبيت في الصحراء، لا تهمه الهوام يصادق الوحوش، يغير على القبائل فلا تسلم منه، ومن اعتاد على مصارعة الأبطال حتما سوف يكون يوما ما مصرعه، وهي قول تأبط شرا وحكمته يقول تأبط شرا ذاكرا ذلك كله:

وقالوا لا تنكحيه فإنه

لأول نصل يلاقي مجمعا

قليل غرار النوم أكبر همه

دم الثأر أو يلقى كميا مقنعا

يبيت بمغنى الوحش حتى ألِفنه

ويصبح لا يحمي لها الدهر مرتعا

رأين فتى لا صيد وحش يهمه

فلو صافحت إنسا لصافحته معا

وإني وإن عمرت أعلم أنني

سألقى سنان الموت يبرق أصلعا

على غرة أو جهرة من مكاثر

أطال نزال الموت حتى تسعسعا

فكيف أظن الموت في الحي أو أرى

ألذ وأكرى أو أموت مقنعا

ولست أبيت الدهر إلا على فتى

أسلبه أو أذعر السرب أجمعا

ومن يضرب الأبطال لا بد أنه

سيلقى بهم من مصرع الموت مصرعا

وعلى إثر مقتل "الشنفرى" قصيدة كتبها تأبط شرا في رثائه، وهي تنبئ بصدق تجربتها عن فقد الشنفرى الذي لازم تأبط شرا طويلا، وتأثر تأبط الشديد لمقتل الشنفرى وقد قُتل الشنفرى في عام 525م قبل وفاة تأبط شرا بخمس سنوات، وفي القصيدة يأتي الرثاء معبرا عن الحالة النفسية لتأبط شرا إزاء هذا الفقد، وتأتي التجربة الشعرية المصاحبة لها تجربة صادقة، وجاء معجمها يحمل مفردات الحزن، والموت، ويحمل أيضا صفات الشنفرى بلغة تحمل الحنين والحب الخالص الذي حمله تأبط شرا للشنفرى، والقصيدة تعد من من أجمل قصائد تأبط شرا وأصدقها يقول:

على الشنفرى ساري الغمام فرائح

غزير الكلى وصيّب الماء باكر

عليك حداء مثل يومك بالجبا

وقد رعفت مني السيوف البواتر

ويومك يوم العيكتين وعطفه

عطفت وقد مس القلوب الحناجر

نجيل سلاح الموت فيهم كأنهم

لشوكتك الحدى ضئين نوافر

وأجمل موت المرء إذ كان ميت

ولا بد يوما موته وهو صابر

فلا يبعدن الشنفرى وسلاحه

الحديد وشد خطوه متواتر

إذا راع روع الموت وإن حمى

حمى معه حر كريم مصابر

هكذا جاء رثاء تأبط شرا للشنفرى الذي شاهد مع تأبط المشاهد كلها وارتبط به تأبط شرا ارتباطا وثيقا لقرابته منه، قلما نجد هذا الترابط بين اثنين في المجتمع الجاهلي، فكانت الأبيات تعبيرا عن الحزن الشديد كما ذكرنا على هذا الفقد، ومن بين هذه المشاهد التي شارك فيها الشنفرى تأبط شرا خروجه والشنفرى وغير نفر من بني فهم يريدون الثأر لمقتل صاحبيه عمر بن كلاب وسعد بن الأشرش، فمضوا جميعا حتى وصلوا إلى بجيلة –مقصد غارتهم– وعند عودتهم لديارهم عرضت لهم قبيلة قشعم في نحو أربعين رجلا، وكان

فيهم أُبي بن جابر القشعمي، وهو رئيس القوم، فحدث تأبط شرا قومه قائلا لهم: يا قوم لا تسلموا له ما في أيديكم حتى تبلوا عذرا، فقال أحدهم: ابذلوا مهجكم ساعة، فإن النصر عند الصبر، وأنشد الشنفرى بيتا من الشعر قال فيه:

نحن الصعاليك الحماة البذل

إذا لقيتنا لن ترى تهلل

فلما سمع تأبط شرا هذا البيت من الشنفرى قال: بأبي وأمي نعم الحماة إذا جد الجد، أما إذا أجمع رأيكم على قتال القوم فاحملوا ولا تتفرقوا، فإن القوم أكثر منكم، فحملوا عليهم، فقتلوا منهم ثم كروا ثانية فقتلوا ثم الثالثة فقتلوا، فانهزمت قشعم وتفرقت في رءوس الجبال، ومضى تأبط شرا وأصحابه بما غنموا، فقال تأبط شرا في ذلك:

جزى الله فتيان على الغوص أشرقت

سيوفهم تحت العجاجة بالدم

وقد لاح ضوء الصبح عرضا كأنه

بلمته اقراب أباق أدهم

وضاربتهم بالسيف إذا عارضتهم

وقبائل قسر وخشعم

ضرابا عدا منه ابن حاجز هاربا

ذرا الصخر فى جوف الجبال المريم

وشاركه الشنفرى هذا النصر بأبيات قال فيها:

خرجنا ولم نفهم وملت وصالها

ثمانية ما بعدها متعتب

سراحين فتيان كأن وجوههم

مصابيح أو لون من الماء مذهب

تمر برهو الماء صفرا وقد طوت

شمائلنا والزاد ظن مغيب

فشن عليهم هزة السيف ثابت

وهمهم فيهم بالحسام المسيب

ولما رآنا قومنا قيل أفلحوا

فقلنا سلوا عن قاتل لا يكذب

نعود إلى تأبط شرا ونذكر قصيدته المشهورة التي وصف فيها شخصيته وجوانب العظمة فيها، وقد اشتهرت من بين قصائده بالقصيدة اللامية وهي غير لامية العرب ذائعة الصيت التي تنسب للشنفرى، يقول تأبط شرا:

إن بالشعب الذي دون سلع

لقتيلا دمه ما يطل

شامس فى الكر حتى يداني

ذكت الشعرى فبردٌ وظلُّ

يابس الجنبين من غير بؤس

ونديُّ الكفين شهم مدلُّ

ظاعن بالحزم حتى إذا ما

حل حل الحزم حين يحِلُّ

غيث مزن غامر حيث يجدي

واذا يسطو فليث أبلُّ

مسبل في الحي أحوى رفل

وإذا يغزو فسمع أزلُّ

وله طعمان أري وشري

وكلا الطعمين قد ذاق كل

يركب الهول وحيدا ولا يصحبه

إلا الثماني الأفلُّ

لعل في هذه الصورة الوصفية التي صور فيها تأبط شرا نفسه وهذا الخيال الواسع والرؤية العميقة في هذه الأبيات، هي أيضا وصف لكل صعلوك كبير أمثال تأبط شرا كما يرى الدكتور أحمد أمين، وقد أعجب بهذه الأبيات الشاعر الألماني "جوته"، الأمر الذي جعل جوته يقوم بترجمة هذه الأبيات إلى الألمانية.

هذه بعض حياة تأبط شرا والتي تمثل فصلًا من فصول حياة الصعاليك هؤلاء الذين – كما يقول الدكتور يوسف خليف– أهملهم مؤرخو الأدب العربي، لأنهم شغلوا بأصحاب المعلقات وأمثالهم من سادة الشعر الجاهلي، ونسوا هؤلاء الشعراء الصعاليك كما أهملهم مجتمعهم على الرغم من كل ما في هذا الشعر من تجارب شعرية وصور فنية وترجمة لأحداث تعبر عن طبيعة الحياة في هذه البيئة وسردا له.

لعل فيما كتبناه عن تأبط شرا أضاء لنا جانبا من جوانب الحياة عند هؤلاء الصعاليك، هذا الجانب الذي يتمثل في خفة الظل عند بعضهم، هذه الخفة التي كانت بمثابة أسلوب حياة عند بعض هؤلاء الصعاليك ومنهم تأبط شرا، هؤلاء الذين عرف عنهم الحدة والجدية في حياتهم، وهذا طبيعي نظرا لطبيعة البيئة من حولهم، وأسلوب الحياة القاسية التي كانوا يحيونها.

المراجع:

1-علي بن الحسين أبو الفرج الأصفهاني كتاب "الأغاني"، طبعة دار الكتب المصرية.

2-د. أحمد أمين، الصعلكة والفتوة في الإسلام، دار المعارف.

3-أحمد سويلم، الإعلام الشعري في التراث العربي، دار المعارف.

4-د. يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، مكتبة الدراسات الأدبية العدد 8 – دار المعارف الطبعة الثالثة.

5-الدكتور يوسف خليف، الصعاليك.. وشعراؤهم في العصر الجاهلي، مجلة العربي العدد 33 أغسطس 1961

جارودي والإسلام.

" من أهم فلاسفة الماركسية إلى أكثر المناصرين للإسلام"

يمثل المفكر الفرنسي "رجاء جارودي" أكثر المفكرين المعاصرين الذين أحدثوا مزيدا من الجدل، وكانت حياته التي قاربت على المائة من العمر شاهدة على عصر من التحولات الفكرية مر بها هذا المفكر في بحثه على الحقيقة والاستقرار الروحي، حتى اعتنق الإسلام عام 1982 الذي رأى فيه كل المعاني الروحية والقيم التي آمن بها عبر كل هذه التحولات، التي مر بها، هذا الفيلسوف المسلم الذي واجه كثيرًا من التحديات دفاعا عن أفكاره، وعن إيمانه برسالة الإسلام، وكما يقول عن رحلة إسلامه إنها رحلة شاقة جاءت عبر مسيرة من البحث والعناء والتحدي، يقول جارودي: "لم أُسْلِم بمحض الصدفة، بل بعد معاناة وبحث ورحلة طويلة"، كان دور المنظمات الصهيونية في التشكيك في هذا التحول الكبير إلى الإسلام، ومحاولة تشويه ميراث جارودي الفكري، من جانب آخر كان لكشف جارودي الأكاذيب الصهيونية من خلال قيامه بتأليف عديدٍ من المؤلفات التي أثبت فيها كذب المنظمات الصهيونية وهدم هذا الكيان فكريا، وكان لكتابه "الأساطير المؤسسة للسياسة الصهيونية" الدور الكبير الذي كشف هذه المزاعم والأساطير التي قام عليها الكيان وتبنتها الجماعات الصهيونية وروجت لها. كانت الضجة التي حققها

هذا الكتاب جعل هذه المنظمات عبر الآلة الإعلامية الغربية تقف لصد جارودي في استكمال مشروعه من خلال حظر نشر هذا الكتاب ومحاصرة دور النشر التي قامت بنشره والمكتبات التي قامت ببيعه، ومحاولة محاكمته لتهمة معاداة السامية. وإنكار المحرقة اليهودية. وقد تم محاكمته بالفعل ففي عام 1998م أدانت محكمة فرنسية جارودي بتهمة التشكيك في محرقة اليهود في كتابه "الأساطير المؤسسة لدولة إسرائيل"، حيث شكك في الأرقام الشائعة حول إبادة يهود أوروبا في غرف الغاز على أيدي النازيين. وصدر بسبب ذلك ضده حكم بالسجن لمدة سنة مع إيقاف التنفيذ"..

وُلد روجيه جارودي في 17 تموز/ يوليو في عام 1913 بمدينة مارسيليا في فرنسا، في عائلة كاثوليكية، وتحول إلى البروتستانتية، ثم عاد إلى الكاثوليكية، قبل أن يتول نهائيًا عن الدين المسيحي إلى الإسلام. أكمل دراسته الجامعية في مرسيليا، حصل على درجة الدكتوراه في علم الفلسفة من جامعة باريس **Sorbonne**. كان من أهم دعاة الفكر الماركسي ويعد أهم فلاسفة الماركسية في القرن العشرين، وتعد أطروحته العلمية لنيل الدكتوراه من جامعة السوربون عام 1953 والتي كانت بعنوان (النظرة المادية في المعرفة) تعبيرا عن إيمان جارودي في هذه الفترة بأفكار الماركسية والدعوة إليها، وفي هذه الأثناء انضم جارودي إلى الحزب الشيوعي الفرنسي عام 1933، ثم اختير عضوا في اللجنة المركزية في الحزب عام 1945، ثم عضوا في مكتبه السياسي عام

1958، وعلى الرغم من وجود جارودي في الحزب الشيوعي إلا أنه لم يتخلّ عن إيمانه بالمسيحية طوال مرحله عمله في هذا الحزب، توجه جارودي عبر نيله الدكتوراه في الفكر الماركسي من جامعة السوربون في البحث عن إمكانية التوافق بينها وبين الماركسية، وقد قادته هذه المقاربة إلى التعمق في دراسة الأديان. وفي الوقت نفسه بدأت مراجعاته للماركسية التقليدية خاصة ما يتعلق بمفهوم الطبقة العاملة، الذي كان يتناسب مع الثورة الصناعية الأولى، لكنه لم يعد متناسبا مع ثورة الإلكترون التي ضمت لطبقة الشغيلة شرائح متعلمة من التقنيين والمهندسين والباحثين، وهو أمر يجب أن يؤخذ بالاعتبار.

وقد أثار ذلك امتعاض الشيوعيين السوفييت فاتهموه بأنه ضد (البروليتازيا)! كانت بداية تحول جارودي من الشيوعية وتصادمه مع الشيوعيين نقده اللاذع اكتشافه فظائع ستالين بعد وفاته، والتي غض الطرف عن الكشف والحديث عنها في أثناء وجود جارودي كعضو عامل في الحزب، ورفض جارودي الغزو السوفييتي لتشيكوسلوفاكيا عام 1968، ففصل عن الحزب، عقب انفصاله من الحزب الشيوعي بدا جارودي مراجعته الأفكار الماركسية ونقده لها، فقام بتأليف عديدٍ من المؤلفات التي تنقدها مثل (ماركسية القرن العشرين)، و(في سبيل نموذج فرنسي للاشتراكية)، و(الحقيقة كلها) وغيرها. كما انتقد أيضا المقولة السائدة التي تدعم هذه الحركة وتهدم قواعد الإنسانية عندما روجت مقولة (الدين أفيون الشعوب)، فيرى جارودي

أن الدين في كل زمان ومكان يصرف الإنسان عن العمل والكفاح متناقض تناقضا صارخا مع الواقع التاريخي.. هذه رحلة جارودي، حياة عاشها اعتنق فيها كثيرًا من الأفكار والمذاهب، متأملا، راصدا في رحلته هذه تغيرات فكرية قادته في نهاية الأمر للبحث عن الحقيقة التي قد تقوده إلى الإيمان، والسكينة الروحية بعد عذابات هذا الطريق وتلك الرحلة الطويلة والشاقة، أما عن بداية تحول جارودي الذي انضم كما ذكرنا في مرحلة من حياته إلى الحزب الشيوعي، وأيضا تبنيه الفكر الماركسي.

في أثناء الحرب العالمية الثانية (1939-1945م) انضم جارودي في صفوف المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازي لفرنسا، ولكنه وقع في أسر الحكومة الفرنسية الخائنة حكومة "فيشي" (1940-1945م) وكان الجنرال "بيتان" (1856-1951م) هو من كان يرأس هذه الحكومة، وكانت هذه الحكومة متعاونة مع الجيش النازي ضد الحلفاء والمقاومة الفرنسية. كان بداية معرفة جارودي بالإسلام والقرب منه ومعرفة أبعاده الروحية، والتغير الذي شمل حياته كلها. عقب هذا المشهد الذي تمثل له وشاهده، وتأثر به إلى حد جعل جارودي يقترب من الإسلام واعتناقه، كان ذلك في معسكر الاعتقال عندما قام جارودي مع عدد من الأسرى بحركة تمرد، فأصدر قائد المعسكر أمرا إلى الجنود بإعدام هؤلاء المتمردين رميا بالرصاص، وقتها أيقن جارودي أن لحظة الإعدام على وشك الحدوث، ولكن المفاجأة المذهلة كانت في امتناع

سجانه عن أن يطلق عليه الرصاص، وكان هذا السجان جنديا جزائريا مسلما يخدم في الجيش الفرنسي، وهنا سأله جارودي: لماذا لم تنفذ أمر قائدك، وتطلق عليّ الرصاص؟! كان جواب الجندي المسلم: لأني مسلم، والإسلام يحرم قتل الأسير!

كان هذا الجواب كفيلا لتأثر جارودي الذي سمع لأول مرة كلمة الإسلام مقترنه بهذا السلوك الإنساني وهذه القيمة الأخلاقية، التي جعلت هذا الجندي المسلم يعرض نفسه لأشد المخاطر في سبيلها! يقول: كان هذا التصرّف أول مرّة أتعرف فيها على الإسلام، وعلّمني أكثر من الذي تعلمته في جامعة السوربون.." رأي جارودي إزاء هذا التصرف أن قيم الإسلام التي تدعو إلى كرامة الإنسانية كفيلة أن تحرر العالم من كل هذه القيود التي قيدت حريته. كان الإسلام ومبادؤه هو المنقذ لجارودي من كل هذه التحولات والحيرة الفكرية التي لازمته عبر هذه المسيرة الطويلة من حياته التي اعتنق فيها كل هذه الأفكار في سبيل إيجاد الطريق القويم الذي يهديه إلى الحقيقة، التي ظل طويلا يبحث عنها.

في الجزائر المسلمة وجد جارودي بداية الطريق ورأى أن الاستعمار ما هو إلا أكذوبة لنهب خيرات الدولة المستعمرة وإخضاعها فكريا ومحو هويتها وفي الجزائر قرأ عن سيرة المجاهد وأمير المقاومة الجزائرية الأمير عبد القادر الجزائري (1222-1300ه) ورأى في سيرته مفهوم الجهاد في الإسلام وقرأ

صفحة من صفحات الحضارة الإنسانية متمثلة في سيرة هذا المجاهد الذي مثل عند جارودي النموذج الإسلامي لقيم الحرية التي يبحث عنها البسالة في الجهاد ضد الاحتلال والإنسانية الحانية التي تمثلها الأمير عبد القادر الجزائري التي انقذت الآلاف من غير المسلمين إبان الفتن الطائفية في الشام سنة 1860م، ومن هنا بدأ يكتب جارودي عن هذه الحضارة الإسلامية مبينا فضلها وقيمها، ومن جانب آخر تعكس مدى التغير الذي طرأ على فكر جارودي كانت دراسته الطويلة والمهمة، والتي أنصف فيها جارودي الإسلام وحضارته كان عنوان هذه الدراسة (الحضارة الإسلامية والدور الذي مثلته في التاريخ)، كتبها جارودي عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية، نشرت عام 1947 قبل إسلامه! وهي شهادة منه على فضل هذه الحضارة على الإنسانية.

في الدراسة اعتبر جارودي الحضارة الإسلامية والفتوحات العربية الإسلامية التي امتدت إلى آسيا وإفريقيا حتى أوروبا نموذج التقدم والرقي اللذين أنقذا هذه البلاد المفتوحة من الرجعية والتخلف والظلم والانحطاط.. جاءت هذه الدراسة في وقت انتشرت فيها أفكار الشيوعية، وكان جارودي وقتها مناضلا في صفوف الحزب الشيوعي الفرنسي، كان الشيوعيون يروجون لمقولة "الشيوعية شباب العالم"، جاء جارودي بهذه الدراسة عقب هذا التحول ليصدم دعاة الشيوعية، وينهي تألقه في ذلك الحين كفيلسوف ماركسي له عديدٌ من المؤلفات التي تناولت الماركسية وشرحتها.

اعتبر جارودي "الإسلام شباب العالم"، وذلك عندما قال في هذه الدراسة: "إن الإسلام، حتى قبل ازدهار الخاصة، قد أوجد، بفتوحاته الواسعة نفسها، الظروف الضرورية لتجديد الحضارة، ولتجديد شباب العالم"، ومن هنا دافع جارودي أيضا من خلال هذه الدراسة عن الفتوحات الإسلامية التي جددت الحضارة، حتى اعتبر جارودي تراجع هذه الفتوحات عن أن تشمل سائر أوروبا كارثة حضارية لأوروبا والأوربيين، ويرجع جارودي ذلك أن الفتح الإسلامي كان "بعثة تمدن حضارية أكثر منه فتحا"، ويرى جارودي أن الحضارة الإسلامية بمثابة الرحيق الحاوي والوارث لخير ما في تراث الحضارات الإنسانية عبر القرون التي سبقت ظهور الإسلام، اعتبر جارودي أن هذه الحضارة الإسلامية هي المنقذ للتراث الإنساني من الموات.. في الدراسة أيضا أظهر جارودي اهتمامه بالعلم الإسلامي والتراث الإسلام في الفلسفة والعمران، وظهر استيعابه لكتابات الأوربيين الذين أنصفوا هذا التراث..."

منذ إشهار جارودي إسلامه في 2 من يوليو 1982، وهو يدافع عن الإسلام، وفي هذا السبيل قام بتأليف كثيرٍ من المؤلفات التي وضع فيها خلاصه فكره وإيمانه بقيم الإسلام والدعوة إليها، وكانت بداية أعماله كتابيه "وعود الإسلام"، و"الإسلام يسكن مستقبلنا"، ثم جاءت كتبه "الأصوليات المعاصرة" و"الإسلام والقرن الواحد والعشرون شروط نهضة

المسلمين"، و"ماذا يعد به الإسلام" و"المسجد مرآة الإسلام" وغيرها كثير، من خلال هذه الكتب عرفه القارئ المسلم، وتواصل معه، بدأ جارودي يلقي المحاضرات في عديدٍ من البلدان الإسلامية، زار جارودي القاهرة سنة 1968م، وألقى محاضرة في مبنى صحيفة "الأهرام" تحدث فيها عن أصالة التراث الإسلامي وتمييز مناهج الفكر فيه، الامر الذي يجعل النهضة العربية الإسلامية المنشودة امتدادا لهذا التراث، ولم يكن تقليدا للذي انتهى إليه الأوربيون! في هذه المحاضرة أيضا أشار جارودي إلى فلسلفة بن رشد (520- 595ه \132-1406م) والتي يرى جارودي أن فيها تكمن بلورة فلسلفة إسلامية معاصرة.

يشير جارودي إلى فضل الفيلسوف "ابن سينا" (370 هـ (980م) 427 هـ (1037م). و"ابن رشد" (1126-1198 م) في تطور الفلسفة وإحكام دور العقل الذي يرى جارودي أنهم أعلنا قبل (ديكارت) حق إخضاع كل شيء -ما عدا العقائد الدينية الصادرة عن الإيمان- إلى حكم العقل، في هذا المقام يدافع جارودي عن هؤلاء الفلاسفة، واعتبرهما رائدي الفكر الناقد والمذهب العقلي الحديث، يشير جارودي إلى تأثر الشاعر "دانتي" الذي وصفه أنه انطبع تفكيره بالطابع الإسلامي وأشار جارودي أن "دانتي" أثنى على "ابن رشد" في النشيد الرابع من كتاب الجحيم في "الكوميديا الإلهية" ثناء عظيما. وقد أدرك هذا الفضل "روجر باكون" الذي

يعد من أكبر مفكري الغرب في القرن الثالث عشر وأكثرهم تحررا، فقال: "إن الفلسفة مستمدة من العربية.." ويرى جارودي أيضا انطلاقا من ابن خلدون (732-808ه\ 1332-1406) والثورات الاجتماعية التقدمية في التاريخ الإسلامي، يكون الطريق إلى التقدم والعدل الاجتماعي. في رؤية جارودي نرى خطوط عريضة وضعها جارودي لنهضة الإسلام وعودته كما كان في عصوره الأولى، انطلقت هذه الرؤية من إيمان جارودي بجوهر هذا الدين الذي وسع بتعاليمه السمحة العالم.

يرى جارودي في الإسلام دعوة عالية لقيم العدل والمساواة كما جاء في قول الله تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) الآية 13 سورة الحجرات. وحديث رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم في خطبته الجامعة أمام جمع المسلمين في حجة الوداع، الذي يرى جارودي أن الرسول الكريم استبعد فيها كل الموروثات القبلية والعنصرية، فقال: "إن أكرمكم عند الله أتقاكم، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى.". وعن جوهر الشريعة الإسلامية، يرى فيها جارودي أنها مقتبسة من روح القرآن جميعه، وإن مصدرها الإلهي لا يستلزم مطلقا أي جمود، وخصوصيتها السامية وقيمها الخالدة لا تنتهي أبدا، وهنا يتساءل جارودي لمَ لا نستخلص من إنجازها التاريخي المبادئ الخالدة التي تسمح بارتياد الحلول لمشكلات اليوم، يرى جارودي لتحقيق ذلك ولضمان الأخذ الحقيقي للجوهر الذي جاءت به الشريعة الرجوع إلى المصدر

الحقيقي: القرآن في شموليته، والقدوة لتطبيقه، وهو النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فهما السبيل لعلاج جميع المشكلات التي قد نواجهها في حياتنا المعاصرة، يرى جارودي في الإسلام الصورة الكاملة لمعنى الإيمان الذي يرى جارودي أن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم على أساسه صنع أمَّة يصفها جارودي أنها "أمة من طراز فريد"، أمة ليست قائمة على روابط الدم كما عند البدو أو روابط الأرض كما هي سائدة في حياة الحضر، وهي كذلك ليست أمة بالمفهوم الغربي للفظ، ذلك المفهوم القائم على وحدة الأرض والسوق واللغة والموروث الثقافي، أي المعطيات مثل معطيات الجنس والجغرافيا والتاريخ، ولكنها أمة نبوية قائمة على تجربة مشتركة من السمو للوصول إلى الله عز وجل.

يرى جارودي في إعلان النبي الكريم صلى الله عليه وسلم شهادة التوحيد إعلانًا لوحدانية الله تعالى على أساسها تم محو كل أشكال الوثنية، ونهى العقل ألا يخضع في تفكيره إلا الله تعالى، وإن القوة والثروة مسألة نسبية، فكل القوة وكل الغنى لله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له، وأي فرد يمتلك جزءا من القوة أو الثروة ليس إلا مستخلفا مسئولا عن ذلك، وهكذا سادت تعاليم النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، والمتأمل في مجتمع المدينة، يرى هذا التطبيق العملي لهذه التعاليم التي تسمو بالإنسانية، يمكن كما يقول جارودي استخلاص القاسم المشترك بين كل المجتمعات الإسلامية التي كانت كلها

تريد بكل ما تسطيع أن تكون مخلصة لتعاليم النبي الكريم صلى الله وسلم وتطبيقا لسنته.

يرى جارودي أن الإسلام جاء مكملا لجوهر الرسالات السابقة، ومتما كل التعاليم التي جاءت بها، فالإسلام كما يصفه جارودي حوى كل الأديان الأخرى، وجعل من كمال الإيمان أن يؤمن المسلم بكل رسالات الله وكل أنبيائه، ويشير جارودي بداية من الصفحة الأولى للقرآن، نقرأ قول الله تعالى: (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون) سورة البقرة، الآيات 2-4.

ونقرأ قوله تعالى (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) سورة البقرة، الآية 136.

وقد كرر القرآن ذلك مرة أخرى (لا نفرق بين أحد من رسله) سورة البقرة، الآية 285.

يرى جارودي أن الله تعالى عندما يبعث إلى الناس رسولا أو نبيا، فإنه لا يختار فيلسوفا ولا عالم لاهوتٍ ولا أستاذا في القانون، ولكنه يختار راعيا مثل موسى عليه السلام، أو نجارا مثل عيسى عليه السلام، أو تاجرًا أميّا مثل محمد

صلى الله عليه وسلم، حتى تكون رسالته (بلسان قومه)، وحتى يحتذي ببساطته ملايين البشر. تعمق جارودي في قراءته في الإسلام، واتسعت رؤيته لتشمل جوهر الرسالة، ولضمان النهضة الإسلامية التي يرى جارودي أنها تقوم على الاجتهاد بعد استلهام الروح الإسلامية الخلاقة في مراحلها الأولى، واتباع الهدي الذي جاء به النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، ثم الخلفاء الراشدون والفقهاء العظماء، حتى نستعمل حكمتهم لحل مشكلات عصرنا، يرى جارودي التمسك بكلام الله تعالى فريضة واجبة، جوهرها التفكير والتأمل. متفق في رؤيته مع رؤية العقاد عندما قال العقاد "التفكير فريضة إسلامية"، ويرى جارودي أن كثيرًا من آيات القرآن الكريم تدعو إلى التأمل في الوجود وفي بديع صنع الله تعالى الذي يقودنا إلى الإيمان، وتوحيد الله وإعلان العبودية له سبحانه وتعالى، ويرى جارودي أن القرآن يكفي لكل شيء، فهو يحتوي على كل الحقائق العلمية، كما يحتوي أيضا على قوانين الحياة الاجتماعية، وعن هذا الثراء الروحي الذي يمثله الإسلام من خلال بقاء القرآن الكريم معجزة خالدة، ووجود السنة النبوية وهذا الميراث الغالي الذي بدوره ينير للبشرية طريقها ووجود هذه الأمة ضمان لسمو الأنسانية الذي يراها جارودي أنها أمة ذات مبدأ عالمي، معروف ليس بالجنس أو الأرض أو اللغة أو الثقافة، ولكن بهدفها الوحيد وهو تحقيق إرادة الله على الأرض، فهي أمة الإيمان، الذي يرى جارودي غيابه في المجتمع الأوربي، هذا المجتمع الذي

ساهم في تطور هذه الحضارة دون النظر إلى البعد الروحي فيها، يرى جارودي غياب هذا التناغم الإيماني، جعل هذا التقدم غير كفيل لأمان الإنسانية، لقد كان إسهام هذه الحضارة الأوربية الأساسي في الثروة الصناعية، وهذا التقدم المادي الهائل ووفرة النقد والتقنية لا توفر لنا إلا وسائل، ونحن الآن نواجه خطر الأوبئة القاتلة في ظل عدم وجود يقين إيماني يشدنا إلى التسليم بأوامر الله تعالى التي تمثل السبيل وطوق النجاة الوحيد مهما زاد إدراكنا وغرّتنا معرفتنا وتطورنا.. يقول جارودي: "فلنقاوم، ولنحيا حياة جديدة بشرية بمعنى الكلمة، أي حياة إيمانية، لأن الإنسان لن يكون إنسانيا إلا إذا استحضر في داخله وجود الله" هذا هو الإسلام عند جارودي، وتلك هي رؤية جارودي له، تحمل أبعادا فكرية وآفاقًا من التفكير، قادته إلى معرفة الحقيقة، عبر رحلة قلّما تتمثل لمفكر آخر غير جارودي..

المراجع:

1-الإسلام والقرن الواحد والعشرون شروط نهضة المسلمين، روجيه جارودي، ترجمة كمال جاد الله، الدار العالمية للكتب والنشر، القاهرة

2-طريق جارودي إلى الإسلام "الحضارة العربية والدور الذي مثلته في التاريخ" الدكتور محمد عمارة ، سلسلة في ظلال الإسلام العدد"12"

3- الفيلسوف الفرنسي روجيه جارودي، من الماركسية إلى الإسلام

بقلم: أ. د. إبراهيم العاتي دنيا، الوطن 18\11\2018

التأثر بالإسلام والبعد الروحي
في حياة تولستوي وأدبه

التأثر بالحضارة الإسلامية والإعجاب بالسيرة النبوية لدى كثير من الأدباء الروس، جاء من خلال القرب الجغرافي والاقتراب من حياة المسلمين. يأتي أيضا من خلال اطلاع حقيقي على الترجمات التي صورت تاريخ هذه الحضارة، والكتب التي سردت حياة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، بجانب من الصدق والموضوعية، نجد هذا التأثر عند الشاعر الروسي ألكسندر بوشكين وقصائده العذبة في تأثره بالقرآن وحياة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، والروائي العظيم دوستويفسكي، هذا الذي لم يجد له أنيسا طوال إقامته في معسكر سجن كاتورغا فى سيبريا، سوى قراءة السيرة النبوية والاطلاع على معاني القرآن الكريم، فكان خير رفيق، كما جاء فى الرسالة التي أرسلها لأخيه "ميخائيل" يصف الحالة الوجدانية التي يعيشها من خلال هذه الكتب التي أرسلها أخوه له، الأمر الذي جعل دوستويفسكي يطلب المزيد..

ثم يأتي الفيلسوف والكاتب العظيم "ليف تولستوي" أكثر هؤلاء تأثرا بالإسلام وبالنبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وأكثرهم اقترابا من حياة المسلمين والتأثر الواضح بمظاهر هذه الحياة، من خلال إقامته الدائمة في آخر حياته في مزرعته بعيدا عن الترف ومتع المدينة، في آخر تسعة أيام أراد

تولستوي أن يعيش هذه الحياة الروحية بالقرب من الفلاحين الكادحين، وكان هؤلاء الفلاحون أغلبهم من قرى مسلمة، فأبصر صلاتهم، وتركهم كل شيء في أثناء الأذان وافتراشهم الأرض للصلاة، من قريب رأى الكاتب العظيم عمق هذا التواصل وماهية الحياة الروحية التي يحياها هولاء الفقراء الذين يعملون في أرضه، أخذه التأمل إلى مراجعة حقيقية لكل حياته وعودة إلى قراءة سيرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الذي رأى فيها البعد الروحي والدعوة إلى التخلي عن المادة التي تقف حائلا بين انطلاق الإنسان نحو الكمال وبين اتباعه طريق الشيطان، في تصرف مفاجيء من الكاتب، ترك المدينة الصاخبة بكل ما فيها من المتع وأبهة العيش "مدينة ياسنايا بوليانا" الذي يقع فيها منزله، وحيث كان يعيش مع زوجته وأحفاده. في فجر أحد الأيام من عام 1910 غادر تولستوي سرا برفقة سكرتيره الخاص القريب من حياته، كان هذا السكرتير يعمل طبيبًا لتوستوي، تاركا زوجته التي لم تشاركه وجدانيا تطلعاته الروحيه وعالمه الرحب، وكانت باستمرار في خلاف وشجار دائم مع سكرتيره، تخلى تولستوي عن ثرواته كلها في سبيل القيم الروحية التي عاش من أجلها في السنوات الأخيرة من حياته، الأمر الذي ساعد على وجود الشقاق الدائم بينه وبين زوجته التي اضطر إلى منحها حق الحصول على عائدات النشر الخاصة بمؤلفاته.

كانت زوجته غير مؤمنة بأفكاره، وكانت تقف له وتعارضه. لم يجد تولستوي حلا سوى البعد عنها والعيش في سلام مع افكاره التي آمن بها وعاش من أجلها في تلك الظروف القاسية المحيطة به، بهدوء تام ودون أن يشعر به أحد، ركب تولستوي القطار متوجها إلى مزرعته البعيدة فى قرية كراسنايا، بعيدا عن كل عائلته، لم يصطحب معه سوى ابنته وسكرتيره الخاص الذي كان يعمل أيضا طبيبا لتولستوي، كما ذكرنا ليعيش حياة زهد، وقد بات لتولستوي أن ينفصل انفصالا تاما عن أسرته مبررا ذلك بقوله:

"لقد فعلت ما يفعله الناس في مثل سنّي. قرّرت أن أترك الحياة الدنيوية وأقضي أيّامي الأخيرة في هدوء وعزلة"

في طريقه إلى محطة القطار، وقبل الرحلة الطويلة إلى القرية التي توجد فيها مزرعته قرية "كراسنايا" الكائنة فى الجنوب، رأى تولستوي أن يتوقف لزيارة أخته القريبة منه هناك فى ديرشيماردينو، ثم يبيت ليلته في فندق قريب من منطقة الأديرة ليغادر في حوالي الساعة الرابعة فجرا في ميعاد تحرك القطار حيث رحلته إلى الجنوب.

رأى بعضٌ من معاصريه هروب تولستوي من "ياسنايا بوليانا" تصرفًا بطوليا وتحررا من القيود التي تعوق الإنسان عن تطلعه الروحي وإزالة الحواجز الأخيرة بينه وبين الله تعالى تلك الحواجر التي فرضتها هذه الحياة، كما وصفت الصحافة الروسية هذا التصرف "بالانتصار الروحي".

وجد تولستوي في الإسلام الحياة الحقيقة، والسعادة التي أدركها أخيرا في آخر حياته مع هؤلاء الفلاحين. وقد صور هذه الحياة وتطلعاته وإشراقاته الروحية من خلال آخر كتبه، تلك الرسالة التي أراد أن يضع فيها خلاصة فكره وتلخيصا لحياته التي عاشها مؤخرا من خلال تأليفه كتاب "طريق الحياة.. رسائل في الروح والموت والحياة"، والذي صدر عام 1910، وهو العام الأخيرة من حياته، وقد قام بترجمة الكتاب ونقله إلى العربية المترجم يوسف نبيل.

يتحدث تولستوي في كتاب "طريق الحياة" عن الروح والإيمان والموت والحب والعنف والعقاب والاتضاع والخطايا والإغواءات، وقد حلم تولستوي أن يصبح هذا الكتاب الضخم مقروءا من ملايين القراء فى العالم كله، بعد أن كان شاهدا على حياة متقلبة وفترة عصيبة من التاريخ الروسي والعالمي.

كتاب "طريق الحياة" إنه النتاج الأخير لتعاليم تولستوي الممزوجة بنوع من التصوف العقلي، مكتوبة بحس يمزج بين الموت والحياة، وقد تبقت له بضعة أيام قبل الموت، فيخرج لنا هذا المنتج الإنساني الشديد العميق والبساطة في الآن ذاته، إنها شهادة تولستوي الأخيرة ..

وضع تولستوي خلاصة فلسفته ورؤيته لماهية الحياة، وتأثره الواضح بقيم الإسلام الروحية وبالحياة التي عاشها مع الفلاحين، وقربه منهم

ومشاركته حياتهم الخاصة، من هذه الرؤية انظلقت رؤية تولستوي الخاصة ودفاعه عن الإسلام، عندما رأى تحامل جمعيات المبشرين في قازان، وكان تولستوي قد تخرج من جامعتها بعد دراسته فيها الأدب العربي والفارسي، رأى تحامل تلك الجمعيات على الدين الإسلامي، ونسبتها إلى صاحب الشريعة الإسلامية أمورا تنافي الحقيقة، تصور للروسين تلك الديانة، وتصور حياة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بجانب من الغلو والتشوية وعدم الإنصاف، وهي الصورة التي وجدها تولستوي عكس الحيقيقة، فهزته الغيرة على الحق، فقام بكتابة عديد من الرسائل وضح فيها القيم الحقيقة التي قام عليها الإسلام ودعوته إلى نشر الخير، والحياة البسيطة التي عاشها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، تلك الحياة التي وجد فيها تولستوي حياة زهد، وتخلى عن مباهج الحياة وهو النبي الخاتم، قام تولستوي ووضع رسالة قصيرة اختار فيها عدة أحاديث من أحاديث النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، أعجب بها تولستوي، وجعلها منهجا وسلوكا عاش به في آخر حياته. اختارها وتأثر بها وأراد نشرها بما فيها من دعوة إلى الفضيلة ونشر الخير والتراحم بين الناس. وقد وضع لها تولستوي عنوان "حكم محمد" قام تولستوي بترجمتها من الإنجليزية إلى الروسية عن كتاب عبد الله السهرودي الكاتب الهندى الذي جمع مختارات من الأحاديث النبوية تحث على الأخلاق والفضيلة والتسامح..

وقد ذاع كتاب تولستوي شرقا وغربا، حتى وصل إلى الإمام محمد عبده الذي كان يشغل مفتي الديار المصرية آنذاك، تلقى الإمام محمد عبده الكتاب بصدر رحب وتواصل مع تولستوي عرفانا له وتقديرا على دفاع تولستوي عن الإسلام وعن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

كتب الإمام محمد عبده إلى تولستوي خطابا يوضح فيه هذا التقارب بين الإسلام ورؤية تولستوي الخاصه له، وفي الخطاب يشير الإمام محمد عبده إلى أنه لم يحظَ بمعرفته شخصيا، ولكن هناك التقارب الروحي الذي جمع بينهما، كتب الإمام هذه الرسالة في 2 من أبريل عام 1904، يقول الإمام محمد عبده في هذه الرسالة التي أرسلها إلى تولستوي تواصلا معه، وإعجابا بفكره وفلسفته.

أيها الحكيم الجليل موسيو تولستوي:

لم نحظ بمعرفة شخصك، ولكننا لم نحرم التعارف مع روحك، سطع علينا نور من أفكارك، وأشرقت في آفاقنا شموس من آرائك، ألفت بيثن نفوس العقلاء ونفسك. هداك الله إلى معرفة سر الفطرة التي فطر الناس عليها ووفقك إلى الغاية التي هدى البشر إليها، فأدركت أن الإنسان جاء إلى هذا الوجود لينبت بالعلم ويثمر بالعمل. ولأن تكون ثمرته تعبا ترتاح به نفسك وسعيا يبقى به ويربى حسنة، وشعرت بالشقاء الذي نزل بالناس لما انحرفوا

عن سنة الفطرة وبما استعملوا قواهم التي لم يمنحوها إلا ليسعدوا بها فيما كدر راحتهم وزعزع طمأنينتهم.

ونظرت نظرة في الدين مزت حجب التقاليد، ووصلت بها إلى حقيقة التوحيد ورفعت صوتك تدعو الناس إلى ما هداك الله إليه، وتقدمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه، فكما كنت بقولك هاديا للعقول كنت بعملك حاثا للعزائم والهمم، وكما كانت آراؤك ضياء يهتدي به الضالون، كان مثالك في العمل إماما يقتدي به المسترشدون، وكما كان وجودك توبيخا من الله للأغنياء، كان مدادا من عنايته للضعفاء الفقراء، وإن أرفع مجد بلغته وأكبر جزاء نلته على متاعبك في النصح والإرشاد هو هذا الذي سماه الغافلون الحرمان والإبعاد.

في نهاية الرسالة يرجو الإمام محمد عبده ألا ينقطع التواصل، بينه وبين تولستوي وأن يمد الله تعالى في عمره ليظل مدافعا عن قيم الحق والعدل مدافعا عن حقوق الفقراء وعونا يساعد المحتاجين.

يقول الإمام في نهاية هذه الرسالة:

" هذا وإن نفوسنا لشيقة إلى ما يتجدد من آثار قلمك فيما تستقبل من أيام عمرك، وإنا نسأل الله أن يمد في حياتك ويحفظ عليك قواك ويفتح أبواب القلوب لفهم قولك، ويسوق النفوس إلى التأسي بك في عملك. والسلام."

في الرسالة لخص الإمام محمد عبده بما عرف عن تولستوي حياته وتطلعاته الروحية، ويبدو أن حياة تولستوي الأخيرة كانت مصدر حديث وإعجاب كل من سمع بها وقرأ عنها.

رأى الإمام محمد عبده في تولستوي المصلح الكبير الذي أخذ يهدي الناس ويدافع عن حريتهم، ويبث فيهم روح المحبة وحب الخير. رأى الإمام محمد عبده أن تولستوي بمعرفته الإسلام ويقيمه الداعية إلى إصلاح الناس وهدايتهم إلى الفطرة السليمة التي هدى الله تعالى الناس إليها، رأى في الحياة المتواضعة التي عاشها تولستوي واختارها لنفسه، تأثرا واضحًا بالسيرة النبوية وحياة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

وقد أجاب تولستوي الإمام محمد عبده برسالة مماثلة شكر فيها للإمام حسن ثنائه، وأشار فيها إلى تقديره العظيم للإمام متنميا التواصل معه، وقد جاءت الرسالة في كتاب "ورثة تولستوي" للمترجم أحمد صلاح الدين، يقول تولستوي فى هذه الرسالة: "لقد تلقيت رسالتكم الطيبة الحافلة بالمديح، وها أنذا أسارع بالرد عليها، مؤكدا لكم أولا السعادة الكبرى التي أعطتني إياها؛ إذ جعلتني على اتصال برجل متنور.. حتى ولو كان ينتمي إلى إيمان يختلف عن إيماني الذي ولدت فيه وترعرعت عليه.. ومع هذا، فإني أشعر أن ديننا واحد؛ لأني أعتقد أن ضروب الإيمان مختلفة ومتعددة. وإني لآمل ألا أكون مخطئا إذ أفترض، عبر ما يأتي في رسالتكم بأنني أدعو إلى الدين نفسه

الذي هو دينكم.. الدين الذي يقوم على الاعتراف بالله وبشريعة الله التي هي حب القريب ومبادرة الآخر بما نريد من الآخر أن يبادرنا به.. إنني مؤمن بأن كل المبادئ الدينية الحقيقية تنبع من هذا المصدر والأمر ينطبق على كل الديانات.. وإنني لأرى أنه بمقدار ما تمتلئ الأديان بضروب الجمود الفكري والأفكار المتبعة والأعاجيب والخرافات.. بمقدار ما تفرق بين الناس، بل تؤدي إلى توليد العداوات فيما بينهم.. وفي المقابل بمقدار ما تخلد الأديان إلى البساطة، وبمقدار ما يصيبها النقاء تصبح أكثر قدرة على بلوغ الهدف الأسمى للإنسانية ووحدة جميع الناس. وهذا هو السبب الذي جعل رسالتكم تبدو لي ممتعة وفي النهاية أرجو أن تتقبلوا يا جناب المفتي تعاطف صديقكم.. تولستوي.

تلك الروح لا نجدها إلا بين نفسٍ صافية عاشت في عالم من الروحانية والصفاء بعيدا عن صخب الحياة وثورتها المادية، روح تولستوي الكاتب والفيلسوف الذي أدرك سر هذه الحياة فابتعد عنها.

وظل في مزرعته يتأمل مصدر السعادة الحقيقية في وجوه الفلاحين المسلمين الذي لازمهم حتى وفاته.

يلخص تولستوي رسالة الإسلام الذي جاء بها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم هداية للبشرية ورحمة لها في بضع كلمات جاءت في صدر كتابه "حكم محمد"، يقول تولستوي:

"خلاصة هذه الديانة التي نادى بها محمد، أن الله واحد لا إله إلا هو، وأن الله رحيم عادل، وأن مصير الإنسان النهائي متوقف على الإنسان نفسه، فإذا سار حسب شريعة الله وأتم أوامره واجتنب نواهيه فإنه في الحياة الأخرى يؤجر أجرا حسنا، وإذا خالف شريعة الله وسار على هواه، فإنه يعاقب في الحياة الأخرى عقابا شديدا. وإن كل شيء في هذه الدنيا زائل ولا يبقى إلا الله ذو الجلال. وأنه بدون الإيمان بالله وإتمام وصاياه، لا يمكن أن تكون حياة حقيقية وأن الله تعالى يأمر الناس بمحبته ومحبة بعضهم، ومحبة الله تكون في الصلاة، ومحبة القريب تقوم في مشاركته في السراء والضراء ومساعدته والصفح عن زلاته، وأن الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر يقتضي عليهم أن يبذلوا وسعهم لإبعاد كل ما من شأنه إثارة الشهوات النفسانية والابتعاد أيضا عن الملذات الأرضية، وأنه يتحتم عليهم ألا يخدموا الجسد ويعبدوه، بل يجب عليهم أن يخدموا الروح، وأن يزهدوا في الطعام والشراب، وأنه محرم عليهم استعمال الأشربة الروحية المهيجة، ومحتم عليهم العمل والجد وما شابه ذلك.."

لعل في هذه الخلاصة الذي لخص فيها تولستوي مضمون رسالة الإسلام والقيم التي دعا إليها، سبيل اتخذه تولستوي منهجا لحياته، أحب تولستوي في الإسلام دعوته إلى الاهتمام بالروح وتزكيتها وترك ملذات الجسد عن طريق الزهد فيها، رأى تولستوي في الإسلام خلاص البشرية من قيود المادة وانطلاقها نحو الحرية الحقيقية التي تتمثل في اتباع أوامر الله تعالى، وترك

نواهيه والسعي نحو طريق الآخرة، التغفف عن شرب الخمر وكل ما شأنه أن يقتل طموح النفس نحو الصفاء الروحي والعروج إلى عالم من السمو والطمأنينة، تدرك النفس ماهية وجودها ورسالتها الحقيقة التي من أجلها وجدت في هذه الحياة، آمن أيضا تولستوي بقيمة العقل في معرفة سر الوجود، وصولا إلى الحقيقة، يرى تولستوي أن العقل أعظم هبات الله تعالى للإنسان. من خلاله نرى كل شيء على صورته، ونصل من خلال التأمل والتفكير إلى عظمة الله تعالى، وقدرته وإبداعه، ويرى تولستوي أن أهم عمل يمكن للإنسان أن يقوم به في حياته كلها هو التفكير والتأمل من خلال العقل "الفكرة العقلية الوحيدة عن حياتنا هي أن ننفذ مشيئة الله الذي أرسلنا في هذه الحياة.."

وتزداد هذه الرؤية وضوحا في مجمل الرسالة التي أرسلها تولستوي إلى السيدة آنا جيرمانوفنا، تلك السيدة التي تقطن بإحدى مقاطعات أستونيا الشمالية، والتي فكرت في إصدار مجموعة من الأعمال الأدبية يذهب ربحها لصالح المجذومين، وقد توجهت إلى تولستوي في 8 مايو 1894 كي يمنحها مجموعة من أعماله ليشارك بها في المجموعة التي تود إصدارها، لكن انشغل بأعمال كثيرة، فأرسلت إليه في 17 سبتمبر تطلب منه إن لم يتمكن من إنهاء عمل أدبي يشارك به في مجموعتها، عليه أن يجيب عن ثلاثة أسئلة أرسلتها إليه ليشارك بها في المجموعة، هذه الأسئلة هي :

1- هل يجب على البشر الذين لا يحوزون قدرات عقلية رفيعة أن يسعوا إلى التعبير عن الحقائق التي توصلوا إليها عن حياتهم الروحية عبر كلمات واضحة؟

2- هل يجب أن نسعى إلى الوصول إلى فهم واضح وكامل للحياة الروحية؟

3- كيف يمكننا معرفة في لحظات الصراع والشك إن كان الضمير يتحدث إلينا، أم إنه العقل الذي طغى عليه الضعف؟

وقد أجاب تولستوي في رسالة طويلة عن كل هذه الأسئلة، التي عبرت عن رؤية تولستوي الخاصة في الإصلاح والتأمل وروح العقل وقدرته على الوصول إلى الإيمان الخالص، كتب تولستوي الرسالة وأرسلها في 26 نوفمبر 1894 ونتيجة لتصادم تولستوي في سنواته الأخيرة مع الكنيسة فقد رفضت الرقابة نشر خطابه الذي يتضمن الإجابة عن الأسئلة التي طرحتها هذه السيدة، كما جاء في مضمون آخر خطاب أرسلته "آنا جيرمانوفنا" لتولستوي في 18 ديسمبر، تعمقت قراءات تولستوي الروحية وامتدت رؤيته الخاصة في البحث عن حقيقة الأديان التي يرى تولستوي أن جميعها في مضمونها الروحي تصل بالبشرية إلى سبيل للخلاص من طوق الحياة المادية، يرى تولستوي أن الدين شرط الحياة الضروري لكل إنسان وأن الأخلاق ليست بمعزل عنه.

يقول تولستوي: "لا يمكن أن تتأسس الأخلاق بمعزل عن الدين؛ ليس فقط لأنها تنتج عنه وعن مفهوم العلاقة التي تربط الإنسان بالعالم، بل أيضا لأنها تتضمن بداخلها روح الدين ومقتضياته." من هنا كانت أفكار تولستوي تحث على الفضيلة ومكارم الأخلاق والتسامح، اتجه تولستوي إلى قراءة الإسلام قراءة متعمقة اشتشف منها الروح التي يبحث عنها والإجابة عن سؤال طرحه طويلا؟ عن الخلاص الروحي وعن إصلاح الروح وتهذيبها، فكانت بعض قصصه تشير إلى هذه القيم الروحية التي اكتسبها من وحي قراءة حقيقية لسيرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ومعايشته جيرانه وعمال مزرعته الفلاحين الذين كان أغليهم كما ذكرنا من الفلاحين المسلمين، جاءت بعض قصصه تحمل طابعا عربيا، وأسماء عربية تمثل أحداث تعبر عن فكر تولستوي وتأثره بالإسلام وآداب المشرق كما في قصته الطويلة "الحاج مراد"، صدرت ترجمتها مؤخرا للكاتب المترجم هفال يوسف، كتبها تولستوي عام 1904، في بداية هذه القصة نجد وصفا بديعا لقرية "محكت" الشبشانية القابعة وسط الحقول الجبلية، يصف تولستوي مشهد وصول "الحاج مراد" لهذه القرية وصوت الأذان مصاحبا لوصوله إشارة إلى تأثر تولستوي بهذه الطبعية وتلك الشعائر، نجد أيضا في القصة ألفاظًا مثل إلقاء السلام ورد السلام في الحوار الذي جمع بين الحاج مراد وشيخ القرية، وكلها دلالة تشير إلى إيمان تولستوي وتأثره بهذه البيئة التي عاشها في آخر حياته، وفي

قصصه المختارة الصادرة مؤخرا التي جمع بعضها الكاتب والمترجم غائب طعمة فرمان، في إحدى هذه القصص "أسير القفقاس" التي يشير تولستوي في بدايتها إلى أنها قصة من وحي الحقيقة تصور حياة ضابط في جبال القفاس، أحداث القصة تشكل التأثر الواضح لتولستوي بتلك المعايشة والتقارب عبر أبطال القصة، وطريقة الحوار والأمثلة العربية التي جاء بها تولستوي على لسان أبطال القصة.

وحوار بطل القصة "جيلين" ورؤيته هذا الشيخ الذي كان محافظا دائما على الصلاة، يصف مشهده تولستوي بقوله "كان جيلين لا يراه إلا حين يأتي ليصلي في المسجد.." وعلى هذا النحو، صاغ تولستوي القصة بطابع نرى فيه بوضوع إيمان الكاتب بقيم الإسلام.

أدرك تولستوي هذه القيم وآمن بها، ورأى في النبي الكريم صلى الله عليه وسلم اكتمال عقد الأنبياء الذين اختارهم الله تعالى لنشر السلام على هذه الأرض، وقال تولستوي عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم، إنه لم يقل إنه نبي الله الوحيد، بل اعتقد أيضا بنبوة موسى وعيسى المسيح، وقال أن اليهود والنصارى لا يكرهون على ترك دينهم، بل يجب عليهم أن يتمموا وصايا أنبيائهم ويشير تولستوي كيف تحمل الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الأذى من قومه في سبيل التخلي عن دعوته، فازادا صبرا وعزيمة، حتى أتم تبليغ الرسالة.

يقول تولستوي:

في دعوة محمد الأولى احتمل كثيرا من اضطهاد أصحاب الديانات القديمة، شأن كل نبي قبله نادى أمته إلى الحق، ولكن هذه الاضطهادات لم تثنِ عزمه، بل ثابر على دعوة أمته..

يذكر تولستوي جانبًا من نشأة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، يذكر مولده في عام 570 بعد ميلاد المسيح من أبوين فقيرين، وكان في حداثته راعيا، يشير تولستوي إلى أن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم منذ صباه مالَ إلى الخلوة والأمكنة الخالية في غار "حراء" في الأعالي بعيدا عن جبال مكة، وبعيدا عما يدور من أحداث في مكة، وهناك كان يتأمل الوجود وينظر في خلق السموات والأرض. وفي وصفه لحال الصحابة الأوائل الذين آمنوا بالرسالة في بداية إشراقها واحتملوا مع الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم كل أذى في سبيل نشر الدعوة والدفاع عنها، هؤلاء الأصفياء الذين اختارهم الله تعالى ليكونوا عونا وسندا للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم. تحدث تولستوي عن تواضعهم وزهدهم وتخليهم عن كل مباهج العيش والترف وحبهم للعمل والإيثار ومساعدة الفقراء والمحتاجين، هذه القيم التي عاش تولستوي من أجلها وتمثلها في آخر حياته.

يقول تولستوي: "امتاز المؤمنون بتواضعهم وزهدهم في الدنيا وحب العمل والقناعة، وبذلوا جهدهم لمساعدة إخوانهم في الإيمان لدى حلول

المصائب عليهم، ولم يمضِ زمن طويل حتى أصبح الناس المحيطون بهم يحترمونهم احتراما عظيما ويعظمون قدرهم.."

وهكذا تأثر تولستوي بالإسلام وبالنبي الكريم صلى الله عليه وسلم، ومثلت قيمه ومبادئه روح حقيقة طافت بهذا الفيلسوف في عالم من الروحانية انعكست بالتالي على صياغة أفكاره وأدبه.

في العشر الأيام الأخيرة من حياة تولستوي أخذه التأمل إلى حقيقة الوجود، وبعد تأثره بالإسلام وبحياة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وتمثل ذلك في بعده كما ذكرنا عن حياة الترف والمتع وهروبه من كل هذه المغريات، ويعيش ما تبقى من عمره ملازما حياة الفلاحين في زهد وتأمل وصفاء روحي في تلك البلدة الجميلة التي تكسوها الخضرة، تأخذه المشاهدة وجواره المسلمين إلى اعتناق، حقيقي، قيم الخير والسماحة والدعوة إليها، تلك القيم التي دعا إليها الإسلام أخذ تولستوي يبحث عن طريق يصله بالله تعالى، فوجد غايته في الإسلام، وعاش مؤمنا يحسن إلى الفقراء ويعيش في تأمل وزهد حتى وفاته.

توفي في العشرين من نوفمبر عام 1910 إثر إصابته بالتهاب رئوي حاد، أصيب به في الطريق، وكان قد بلغ من العمر 82 عاما، ودفن في حديقة ضيعة ياسنايا باليانا، بعد أن رفض الكهنة دفنه وفق الطقوس الأرثوذكسية، ويبدو أن حياة تولستوي الأخيرة كانت بعيدة كل البعد عن قيم الكنيسة ومعتقدها،

هذا الأمر الذي رفضت الكنسية اعتباره مسيحيا، الأمر الذي يظن بعضٌ أن تولستوي اعتنق بالفعل الإسلام في آخر أيامه حسب رأي مترجمة معاني القرآن الكريم إلى الروسية، الأديبة فاليريا بروخافا حيث تقول: إن تولستوي قد أسلم في أواخر حياته بعد قيامه بدراسة الإسلام، وأوصى أن يدفن كمسلم، وقد استدلت على قولها أنه يلاحظ عدم وجود إشارة الصليب على شاهد قبره كما في العرف والمعتقد المسيحي.

هكذا كانت حياة تولستوي في آخر عمره، بحث عن الحقيقة وهروب بالروح إلى آفاق فسيحة، صاغ أدبه متأثرا بقراءته عن الإسلام وعن سيرة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، فكان مثالا لرسالة الأديب الباحث عن السمو والصفاء الروحي وعن حب الإنسانية وحريتها.

نشر هذا المقال في العدد 723 مجلة العربي...

المراجع:

1-حكم النبي محمد وشيء عن الإسلام، ليو تولستوي، ترجمة سليم قبعن، صدر عن دار الأهلية للنشر والتوزيع عمان الأردن الطبعة الأولى 2015

2- ليف تولستوي، قصص مختارة، ترجمة غائب طعمة فرمان، الناشر دار المدى، بيروت الطبعة الأولى 2010

3-ورثة تولستوي.. على جسر كوزنيتسكي، المترجم أحمد صلاح الدين، صدر عن دار مصر العربية للنشر 2015

4-ليف تولستوي، الحاج مراد، ترجمة هفال يوسف الطبعة الأولى 2016، دار التنوير للطباعة والنشر، تونس.

5-ليف تولستوي في الدين والعقل والأخلاق، ترجمة يوسف نبيل، منشورات الجميل.

"التحدث بنعمة الله"

تراث السيوطي وحياته وعصره.

يعد أدب السيرة الذاتية في التراث العربي من أهم روافد المعرفة التي من خلالها نستطيع أن نلم بكل الأحداث المصاحبة لحياة العالم، وصورة صادقة شاهدة على العصر الذي عاصره، والأحداث التي مر بها وعايشها من يقوم بسرد سيرته. يزخر التراث العربي بعديد من الكتب التي سردت حياة أصحابها من الأدباء والمفكرين والعلماء.

كتب الخطيب البغدادي "تاريخ بغداد"، وتحدث في جانب من الكتاب عن حياته، وتحدث لسان الدين بن الخطيب في "الإحاطة في تاريخ غرناطة" عن حياته أيضا، وفي مقدمة بن خلدون طرف من حياة المفكر الاجتماعي بن خلدون، وفي "المنقذ من الضلال" تحدث الإمام أبو حامد الغزالي عن حياته. ونجد الترجمة الذاتية لسير الفقهاء كما في سيرة الحكيم. الترمذي وسيرة الحافظ بن حجر في كتابه "تاريخ قضاة مصر" والعماد الأصفهاني في "البرق الشامي" والحافظ تقي الدين الفاسي في "تاريخ مكة"، والإمام أبو حيان في كتابه "النضار" وترجم ياقوت الحموي لنفسه في كتابه "معجم البلدان"، وفي كتاب "الاعتبار"، تحدث في جانب منه أسامة بن منقذ، وشملت كتب السيرة أيضا تنوعًا آخر في التراجم الذاتية، فحمل لنا التراث سيرة المؤلف

الواحد في أكثر من كتاب من كتبه، يسرد بعض أطوار حياته وعصره، مثل كتب أبي حيان التوحيدي: (الصداقة والصديق) و(الإمتاع والمؤانسة)، بينما تتنوزع سيرة ابن حزم بين (طوق الحمامة) و(الأخلاق والسير في مدواة النفوس)، وهكذا تعددت السير وأخذت جانبًا من جوانب الحضارة العربية، والتراث الإسلامي. ويأتي كتاب "التحدث بنعمة الله" لجلال الدين السيوطي، هذا العالم الموسوعي الذي لم يدع مجالا إلا وكتب فيه، ليعطي الصورة الكاملة لعصره وفكره، كما رواها هو في أسلوب عرف به السيوطي. تحدث الإمام السيوطي عن مراحل حياته ونشأته وتلقيه العلم ونبوغه في كافة المجالات، وحديثه عن شيوخه الذين تلقى عنهم العلم مع طرف من حياته ورحلاته. فكانت السيرة متعة حقيقة، ورحلة مع الإمام السيوطي عبر المكان والزمان. جاء هذا الكتاب الضخم في 400 صفحة من القطع الكبير بتحقيق الدكتورة إليزابيث ماري سارتين، نشرته في القاهرة سنة 1972.

كان تحقيق الكتاب في الأصل جزءًا من رسالة الدكتورة "إليزابيث ماري سارتين" لنيل درجة الدكتوراة من جامعة كيمبردج عام 1968.

التحدث بنعمة الله، صورة صادقة لحياة السيوطي ولعصره، كتبها السيوطي بكل صدق، وقد رأى السيوطي أن تكون سيرته مرآة عصره الذي عاش فيه بكل أحداثه التي عاصرها، ليكون الكتاب في النهاية شاهدًا على هذا العصر، في كتابه "حسن المحاضرة" يسرد السيوطي بلغة المؤرخ وعينه،

ويترجم لأعيان ومشاهير القاهرة، أما في كتاب "التحدث بنعمة الله"، نرى في الكتاب لغة أخرى ورؤيا أخرى، عندما يتحدث السيوطي عن نفسه، الأمر الذي أعطى القارئ المتعة الحقيقية وهو يطالع أحداث هذه السيرة. كانت الغاية من تسمية السيوطي سيرته هذه ب(التحدث بنعمة الله) اعتقاده وإيمانه بأن كتابة الإنسان تاريخ حياته نوع من الاعتراف بما أفاضه الله عليه من نعمة، إضافة إلى فضيلة الشكر على هذه النعم.

تتلخص محاور السيرة إلى اهتمام السيوطي بالعلم وتحصيله، ومجالسة العلماء والأخذ منهم وشملت السيرة أيضا الحديث عن أسفاره العديدة إلى كثير من البلدان من أجل التحصيل والدرس، يلفتنا الكتاب إلى هذا الانصراف الكامل إلى العلم دون غيره من شئون الحياة التي تشغل الكائن البشري، العلم وقضاياه، والدفاع عن الصواب والحق ومقاومة الخطأ والباطل، وإعظام شأن الاجتهاد وتسفيه الركون إلى التبعية والتقليد، والتمسك بأخلاق العلماء في الخلاف والرد والمناظرة.. وإذا كان ثمة ملاحظة نجدها في بعض حديث السيوطي من علو النبرة في بعض المواضع، فيرجع ذلك إلى غيرة السيوطي على الحق وإشهار سيفه في وجه الباطل كما أشار إلى ذلك الأستاذ عبد الحكيم راضي في مقدمة الكتاب:

إذن هي رحلة من تراث خاص تجمع في طياتها روح الفقيه وفكره، مع سرد مجريات الأحداث التي مر بها السيوطي مع ذكر بعض المواقف التي

تعرض لها طوال حياته، ثم نهاية الأمر الاختيار الذي أخذه على نفسه. بعدا عن الفتنة وعن ترصد الغيورين له والوشاة، فكان الاعتزال عن الناس والترفع عن نقائص وتحاسد العلماء من طالبي السلطة ومنافقي السلطان، فقرر أن ينسحب من كل وظيفة تولاها، وأن يعتزل الحياة العامة بعد أن أعيته الحيل في إصلاح ما أفسده الناس، وكانت آخر هذه الوظائف الهامة التي زهد فيها وتركها بسبب تلك الظروف مشيخة المدرسة البيبرسية، وهي أكبر مدرسة مصرية في عصره، وكان اختيار من يقوم بإدارة هذه المدرسة قائما على شروط أهمها أن تتوافر في الشخصية التي تضطلع بهذه المسئولية الجسمية صفات العلم والخلق والمنزلة الأدبية الرفيعة، وتولى السيوطي إدارتها كان تعبيرا عما تحلى به من هذه الصفات التي أهّلته لتولي هذا المنصب الرفيع، ولكنه اصطدم بالصوفية الذين خرقوا شروط الخانقاة "نزل الصوفية" الملحقة بالمدرسة وكان من أهم هذه الشروط ألا يغادرها المتصوف، وأن ينقطع إلى العبادة، فلم يلتزم بعضهم بذلك، ولما تصدى السيوطي لهم ثاروا عليه وأوشكوا أن يقتلوه، فاعتزل المناصب الرسمية، وانقطع إلى الدرس والتأليف، والعكوف على العبادة في منزله في روضة المنيل على النيل. معللا سبب عزلته هذه والانصراف عن التدريس والفتيا من خلالة تأليفه رسالة سماها "التنفيس في الاعتزال عن الفتيا والتدريس"، والرسالة بمثابة اعتزال من السيوطي لكل طلابه، ومع هذا لم يصد لهم بابًا ولا يرد لهم حاجة علم؛ فقد استقبلهم في بيته معلما لهم

وناصحا..

انتهى السيوطي من تأليفه سيرته هذه "التحدث بنعمة الله"، وفرغ من كتابتها في عام 896 ه على ما يذكر السيوطي في الفصل التاسع عشر من الكتاب.".

في البداية يأخذنا السيوطي إلى الحديث عن مولده ونشأته العلمية، وطرائف من تسميته عبد الرحمن وفضل هذا الاسم، يقول السيوطي: "كان مولدي بعد المغرب ليلة الأحد مستهل رجب، سنة تسع وأربعين وثمانمائة، فسماني والدي يوم الأسبوع عبد الرحمن"، وعن بداية تلقيه العلم وختمه القرآن وهو دون ثماني سنين، ورحلته في تعلم العلوم ومجالسة العلماء حتى أخذ منهم الإجازة، وتصدى للتدريس، يقول السيوطي "وختمت القرآن ولي من العمر دون ثماني سنين ثم حفظت "عمدة الأحكام" و"منهاج النووي" و"ألفية بن مالك" و"منهاج البيضاوي"، وعرضت الثلاثة الأولى من صفر سنة أربع وستين على شيخ الإسلام علم الدين البلقيني، وشيخ الإسلام شرف الدين المناوي، وقاضي القضاة عز الدين الحنبلي، وشيخ الشيوخ أمين الدين الأقصرائي وغيرهم، وأجازوني وشرعت من ثم الاشتغال بالعلم، فقرأت في الفرائض على علامة زمانه في الفرائض والحساب والجبر والمقابلة، شهاب الدين بن علي بن أبي بكر الشارمساحي الشافعي، وقرأت في هذه المدة أيضا، وهي ابتداء من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين، على الشيخ شمس الدين

محمد ابن موسى الحنفي رواية "صحيح مسلم" إلا يسيرا من آخره، وسمعت عليه "الشفاء"، وقرأت عليه دراية "ألفية ابن مالك" من أولها إلى آخرها، فما ختمتها إلا وقد صنفت، فأجازني بالإقراء والتدريس في مستهل سنة ست وستين، وكتب لي بخطه إجازة"، وهذا عن نشأة السيوطي ورحلته في طلب العلم وسماعه. فماذا عن بيئته وبلدته التي إليها ينسب. هناك في أقصى صعيد مصر في "أسيوط"، حيث كانت عائلته وحيث تنتهي جذوره.

وعلى إثر ذكر هذه المدينة "أسيوط" يتحدث السيوطي عن نشأة والده فيها، وعن عائلته التي حظيت بالمناصب العلمية والوجاهة الاجتماعية، ويذكر نشأة والده العلمية ومجالسته العلماء ومكوثه في القاهرة حتى أصبح له حلقة علمية بالجامع الطولوني يقصدها الطلاب، يتحدث السيوطي عن مواهب والده ونبوغه في كثير من العلوم الشرعية وانفراده في هذه العلوم دون غيره، وقد تحدث السيوطي هذا الحديث من بره بأبيه وعرفانا لفضله. يقول السيوطي: "أجدادي كانوا من أهل الوجاهة، والرياسة، منهم من ولي القضاء بأسيوط، ومنهم من ولي الحسبة بها. ومنهم من كان بصحبة الأمير، وبنى مدرسة بأسيوط ووقف عليها أوقافا، ومنهم من كان تاجرا، ولا أعلم فيهم من خدم العلم حق الخدمة إلا والدي.. كان مولد والدي بأسيوط. واشتغل بالعلم ببلده، وولي بها الحكم نيابة، وقدم القاهرة سنة نيف وعشرين، فسمع صحيح مسلم على الحافظ ابن حجر، ولازم العلامة شمس الدين القاياتي،

فأخذ عنه كثيرًا في الفقه والأصول والكلام والنحو والإعراب والمعاني والبيان والمنطق، وأجازه بتدريس هذه الفنون كلها في سنة تسع وعشرين، وبرع في الفنون وتصدر للتدريس والإفتاء زمانا، وبلغ في فن الإنشاء والبراعة والترسل والتوثيقات نهاية أذعن له فيها أهل عصره قاطبة، وانعقد الإجماع على انفراده، وكان الأكابر يخضعون له ويأتون إليه. وناب في الحكم بالقاهرة عن شيخه وغيره بسيرة حميدة، وعفة زائدة، ونزاهة وشهامة، وله في ذلك وقائع يطول سردها."

هكذا جاء حديث السيوطي ليفتننا بمدى بره بأبيه وتقديره له تقدير العالم الذي زرع في ابنه بذور العلم، بجانب ذكر محاسن أبيه، يذكر السيوطي فضل أسيوط مدينته التي إليها ينسب، فيذكر من نسب إليها من العلماء ورواة الحديث، فيأتي السيوطي بذكر طائفة من العلماء، عاشوا في أسيوط وانتسبوا لها، منهم أبو بشر أحمد بن الوليد الأسيوطي، وأحمد بن محمد بن إسماعيل الأسيوطي، وأبو علي الحسن بن الخضر الأسيوطي، صاحب النسائي وراوي سننه الكبرى وغيرهم، وبجانب هؤلاء العلماء يذكر السيوطي بعض العلماء الذين رحلوا إليها لسماع الحديث أمثال الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري، والحافظ قطب الدين الحلبي، ويذكر السيوطي أيضا ما نسب إليها من الأدباء والنحاة والشعراء، كالصاحب جمال الدين بن مطروح الأسيوطي، وشمس الدين محمد بن أبي بكر الأسيوطي.

وهكذا يفيض السيوطي في التعريف ببلده "أسيوط" وفاء لها، ولا يفوت أن يذكر طرفا من أخبارها، وكما عرفها قائلا "بلدة بديار مصر في الريف الأعلى بالصعيد، ويذكر بعض محاسنها فيأتي بحديث ياقوت الحموي في معحم البلدان عنها "سيوط بفتح أوله، وآخره طاء، كورة جليلة من صعيد مصر، خراجها ستة وثلاثون ألف دينار" ويأتي السيوطي برأي علي بن سعيد أيضا الذي يقول عن أسيوط "مدينة سيوط من غرب النيل كثيرة الأهل، عامرة، فيها من صنوف التجارة وبساتين وكروم يسيرة ونخيل كثيرة، ولها سفرجل رطب طيب الطعم، وفيه خاصية أنه لا يدود، ولا يسوس، أخضر اللون وليس بأعمال مصر سفرجل إلا بها قال بعض المؤرخين: كان محمد بن عبد الله قاضي أسيوط يرسل في كل سنة إلى كافور الأخشيدي خمسين ألف سفرجلة تعمل شراب سفرجل.."

لعل هذا الحديث عن أسيوط رسالة من السيوطي إلى كيفية حب الوطن والمكان الذي ولد فيه، وشاهد صباه، فما أحوجنا لهذه الرسالة الغالية حقا.

يتحدث السيوطي عن رحلته في طلب العلم وأبرز من أخذ عنهم وسمع منهم من علماء مصر والحجاز وحلب وقد جمع في ذلك معجما كبيرا، ذكر فيه أسماء من سمع عليهم وأخذ عنهم الإجازة في العلوم كلها، وقد حصرهم السيوطي بنحو ستمائة نفس، أبرزهم الإمام الحافظ بن حجر العسقلاني، إمام الحفاظ، وقاضي القضاة كما يصفه السيوطي في الحديث عنه وقد حضر مجلسه

وأخذ منه إجازة يقول، عنه السيوطي "لا شك في أن منه إجازة، فإن والدي كان يحضر مجالسه كثيرا، وقد أخبرني من أثق به أنه كان يجيز لمن حضر مجلسه وأولادهم..."

وذكر السيوطي أيضا الإمام شرف الدين أبا القاسم النويري خطيب المسجد الحرام وغيرهم كثير. ثم يذكر السيوطي رحلته إلى الحجاز عام 869، وذلك لأداء فريضة الحج، وقد جمع فوائد هذه الرحلة وما وقع له فيها ولقاءه بالعلماء هناك وما ألّفه من رسائل علمية في أثناء تواجده، وقد أطلق السيوطي على هذه الرحلة: "النحلة الزكية في الرحلة المكية" في بداية سرده لهذه الرحلة يقول السيوطي: "وكان سفرنا في بحر القلزم من جهة الطور، ووصلت إلى مكة المشرفة في نصف جمادى الأخرة"

ويذكر السيوطي أنه عقب رجوعه من أرض الحجاز، قام برحلة داخلية إلى مدينة دمياط والإسكندرية وأعمالهم ناشرا علمه وملتقيا بالطلاب، وقد أعطى لكثير منهم إجازته في العلوم الشرعية، ولعل قيام السيوطي بهذه الرحلة مباشرة عقب عودته من رحلة الحجاز عزيمته أن ينشر العلم في وصية من شيوخ الحجاز ورغبة السيوطي نفسه في نشر ما تعلمه هناك، وقد قام السيوطي بتأليف رسالة ذكر فيها فوائد هذا الرحلة ومشاهده فيها، وذكر العلماء الذين التقى بهم، وجملة من الأشعار التي قيلت في حضرته أطلق عليها "الاغتباط في الرحلة إلى إسكندرية ودمياط"، وتسمى أيضا "قطف الزهر في رحلة

شهر"، ثم يذكر السيوطي أنه عقب عودته من هذه الرحلة انتصب للتدريس، وكان ذلك في شوال، ويذكر السيوطي شيئا من تواضعه، فلم يرد طالبا لا مبتدئا ولا فاضلا وحضر إلى مجلسه الفضلاء، قرءوا عليه تصانيفه المشهورة، يقول السيوطي: "وفي سنة إحدى وسبعين، حضر دروسي الفضلاء، ومن كان مدرسا وقرءوا عليّ في تصانيفي وغيرها؛ منهم الشيخ بدر الدين حسن بن علي القيمري أحد العلماء البارعين في الفرائض والحساب والعروض والميقات، وأحد الفضلاء المشاركين في الفقه والعربية، فلزمني عشر سنين، وقرأ عليّ كثيرًا من كتبي كـ"منهاج النووي" وشرح الألفية لابن عقيل، ومنهم الشيخ سراج الدين عمر بن قاسم الأنصاري، شيخ القراء، فلزمني إلى الآن عشرين سنة، وكتب من مصنفاتي المطولة وغيرها جملة وافرة، وقرأ عليّ أكثر ما كتبه..."

يذكر السيوطي أنه اشتغل في إملاء الحديث، وعمل في الإملاء بالجامع الطولوني، وذلك خلفا بعد انقطاعه بموت الحافظ بن حجر، وظل في مجلسه قرابة عشرين عاما، ثم تصدى السيوطي للفتاوى، وقد جمع غرائب الفتاوى التي قام بالإفتاء فيها في أكثر من مجلد. وكان لغزارة علمه وكثرة مؤلفاته، واجتهاده في فتواه؛ مما عرضه إلى كثير من الخلافات بينه وبين علماء عصره الذين حاربوه بغير حق حسدا على مكانته العلمية، وشعروا بنقص علمهم إزاء علمه الوفير، أو حرصا على مصالحهم الشخصية التي انحازوا إليها على

حساب العدل الذي اشتهر السيوطي بحبه له، فاصطدموا به وآذوه، واضطروه إلى ترك الفتيا. ومن أمثلة هذة الفتاوى التي اصطدم علماء السوء بالسيوطي بسببها، فتواه بعدم جواز العدوان على شاطىء النيل، والبناء عليه بما يزيد عن الحد الذي كان قائما، وكان السيوطي يعيش في قلب المشكلة التي تفاقمت الآن، وتمثلت في كمية المخالفات الصارخة بالتعدي على شاطىء النيل، والضرب بكل القوانين التي تحد من البناء عليه عرض الحائط، فضلا عن تلوث مياهه. وقد أبان السيوطي في هذه الفتوى الغالية عن حس حضاري رائع، ولكن بن "الكركي"، واحد من أشد خصوم السيوطي ومن أكبر من آذوه، كذب عليه في مجلس أحد كبراء الدولة، وذكر أن السيوطي أفتى بهدم الروضة من المقياس إلى النيل، لأن فتوى السيوطي قد مست ابن الكركي، وقد برز بيته بروزا فاحشا على شاطىء النيل، فما كان من السيوطي إلا أن رد عليه في مقامة "طرز العمامة"، مدافعا عن فتواه بقوله:

"ما فتيت إلا بهدم البروز المحدث خاصة، وتصانيفي التي صنفتها في المسالة على ذلك ناصة، يا ليت شعري كيف تدعي أنك طالب علم، وأنك قرأت على المشايخ في الفقه بحلم؟؟ وترى من أفتى بحكم شرعي، مجمع على اعتباره مرعي، فتعارضه بالإنكار، وتسفه عليه آناء الليل والنهار، وأبلغ من ذلك كيف تقدم على فعل البروز، وأنت تعلم أنه في حكم الشرع لا يجوز؟"1"

ثم يخص السيوطي في بعض فصول الكتاب بذكر أسماء كل مؤلفاته وتصانيفه، وقام بتقسيمها إلى سبعة أقسام، ويشير السيوطي من بين هذه الأقسام قسما شمل التفرد، ومعناه أنه لم يؤلف له نظير في الدنيا على حد علمه، وبتواضع العالم يقول السيوطي "وليس ذلك لعجز المتقدمين عنه، معاذ الله، ولكن لم يتفق أنهم تصدوا لمثله، وأما أهل العصر، فإنهم لا يستطيعون أن يأتوا بمثله لما يحتاج إليه من سعة النظر وكثرة الاطلاع وملازمة التعب والجلد.." من هذه المصنفات التي تفرد بها السيوطي وذكرها في هذا القسم وهي من مصنفاته المشهورة:

1-الإتقان في علوم القرآن

2-الدر المنثور في التفسير بالمأثور

3-ترجمان القرآن

4-أسرار التنزيل

5-الإكليل في استنباط التنزيل

6-تناسق الدرر في تناسب الآيات والسور

7-جمع الجوامع

8-الأشباه والنظائر

9-السلسلة في النحو

10- الفتح القريب على مغني اللبيب

11- شرح شواهد " المغنى"

12-الاقتراح في أصول النحو وجدله

13-طبقات النحاة الكبرى

ويشير السيوطي إلى أن القسم الثاني من أسماء مصنفاته يمكن العلامة أن يأتي بمثله وذكر في هذا القسم بعض هذه المصنفات منها:

1-المعجزات والخصائص النبوية

2-لباب النقول في أسباب النزول

3-تكملة "تفسير" الشيخ جلال الدين المحلي، وهي من أول البقرة إلى آخر سورة الإسراء.

4-التوشيح على "الجامع الصحيح"

5-الديباج على "صحيح مسلم بن الحجاج"

6-درر البحار في الأحاديث القصار

7-منهاج السنة ومفتاح الجنة

8-طبقات الحفاظ

9-تاريخ الخلفاء

10-حسن المحاضرة في أخبار القاهرة

هكذا تشعبت المادة العلمية لدى السيوطي، لتصل إلى مرتبة العالم الموسوعي المتواضع، وقد حصر السيوطي في هذا الكتاب كل مؤلفاته، لتكون بين أيدينا حتى يتم بسهولة الاطلاع عليها، ولا يفوت السيوطي بذكر أقوال طائفة من العلماء أثنوا على تصانيفه، وكتبوا عنها وخصهم بفصل جعل عنوانه "ذكر ما كتب على مؤلفاتي تفريطا أو قيل فيها مدحا"، من هولاء يذكر السيوطي شيخ الإسلام وقاضي القضاة علم الدين البلقيني، الذي تحدث على كتابين من كتب السيوطي هما "شرح الاستعاذة والبسملة"، و"شرح الحيملة والحوقلة"، وهما كما يذكر السيوطي أول مصنفين كتبهما في مرحلة طلبه للعلم يقول الشيخ البلقيني: "الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى. وقعت على هذين التصنفين اللطيفين المباركين المشتملين على الفوائد الكثيرة والفرائد الغريزة، فوجدتهما مشتملين على أشياء حسنة وألفاظ مستحسنة، فحق أن ينوه بفضل مصنفهما، ويذكر ما حواه من الفضائل وما حرره من المسائل، شكر الله سعيه على ذلك وسلك بنا وإياه أحسن المسالك، وجعلنا وإياه مع الذين أنعم الله عليهم، وحسن أولئك رفيقا.."

يذكر السيوطي انتشار كتبه ومصنفاته خارج مصر، وذلك من سنة خمس وسبعين، وفي إشارة طريفة منه متحدثا بنعمة الله عليه، وإخلاصه في كتابة مصنفاته، حتى كتب لها الشيوع والانتشار، يقول السيوطي: ومن سنة خمس وسبعين، أخذت مصنفاتي تسير في الآفاق"، ويذكر السيوطي رؤية أحد

أصحابه أنه رأى مناما يتعلق به، فقصه على الشيخ الصالح محب الدين الفيومي الذي كان يعظ الناس بجامع عمرو، فقال في تأويله؛ ما يموت حتى ينتشر علمه بالمشرق والمغرب"، يذكر السيوطي أن الشيخ الصوفي يحيى بن أبي بكر المشهور بابن الجحود المصراتي، قدم من المغرب إلى القاهرة واشترى من تصنيفه "تكملة تفسير الشيخ جلال الدين المحلي" و"شرح ألفية المعاني" و"شرح النقاية" و"الكلم الطيب"، ثم سافر إلى بلاده ليعود العام التالى بنحو اثنين وثمانين ليسمعوا الحديث، وقد أخبروا السيوطي أن مؤلفاته تداولها الناس، يقول السيوطي "وفي سنة أربع وسعين سافر بعض أصحاب والدي إلى البلاد الشامية والحلبية وبلاد الروم، وبصرى واسطنبول صحبة قاصدا السلطان وهو الأمير يشبك الجمالي، فأدخل معه إلى تلك البلاد جملة من مصنفاتي كالإتقان وجمع الجوامع في العربية، وشرحه، ونظم جمع الجوامع في الأصول.

وهكذا انتشرت مصنفات السيوطي شرقا وغربا، وكان عصره يزدهر بعلمه وينتظر كل يوم، الجديد منه، يختم السيوطي "التحدث بنعمة الله بذكر المبعوثين على رأس كل مائة مستندا على حديث رواه أبو داود في سننه والحاكم في المستدرك، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها"، قال الحافظ أبو الفضل العراقي في "تخريج أحاديث الإحياء" "إسناده صحيح" يرجى

السيوطي من الله تعالى كما ذكرنا أن يكون هو المجدد لهذه الأمة في عصره، وعلى رأس هذه المائة، يقول السيوطي "فنحن الأن في سنة ست وتسعين وثمانمائة، ولم يجئ المهدي ولا عيسى، ولا أشراط ذلك. وقد ترجى الفقير من الله أن ينعم عليه بكونه هو المجدد على رأس المائة. وما ذلك على الله بعزيز."

في آخر فصول هذا الكتاب، وفي نهاية هذه الرحلة الممتعة مع السيوطي، يزيل السيوطي الكتاب بمختاراته في الفقه والنحو، وهي تمثل خلاصة اجتهاده دون غيره من العلماء. وبعد السيوطي في هذه السيرة "التحدث بنعمة الله" كما يقول الدكتور عوض الغباري في الدراسة الطويلة التي كتبها في مقدمة الكتاب، ينفذ إلى عمق فكر ووجدان القارىء العربي المسلم بهذه الصورة الأخلاقية الرائعة التي بدت في سيرته الذاتية، وهو ما يستدي نيكلسون في سياق موقعه من السيرة الذاتية المقبولة، وتفسيره متعة القارىء لها. إن المتعة الشديدة الواقعية التي يجدها القارىء الذكي اليوم في التراجم كما –يقول نيكلسون– سببها –بصفة عامة– وجود طاقة تفكيرية شديدة الحيوية، أن ردود أفعاله تتم من خلال مجريات دقيقة. تتحرك عبر المطابقة والمقارنة، إنه يطابق نفسه مع بعض خصائص البطل، ويقارن مشاعره الخاصة وتجاربه مع مثيلاتها عنده وهذه الخطوات –كما يقول لورد أكسفورد– تعطيه متعة واقعية وهذا هو مفهوم القدوة والمثل الذي يتحقق في الشخصيات العظمية، ومن هنا تقدر النظرية الحديثة أثر "التراجم" في المعنويات أكثر من أي جنس آخر

"لمصداقية الحكاية" وتيقن القارىء من الوجود الواقعي للذوات التي يدور الحديث حولها، يجعل التأثير أكثر عمقا وذلك ميزة التراجم عن الرواية.."2".

كانت تجربة السيوطي في هذا الكتاب تجربة صادقة، وجاء حديثه يحمل عبير سيرته، بأسلوب عرف به، فكانت السيرة مفتاحًا لمعارف عديدة شاهدة على السيوطي وعصره، تأتي تجربته متفردة لتفرد شخصيته العلمية والأخلاقية -كما يقول الدكتور عوض الغباري- هذه الشخصية التي أكد تفردها كل الذين كتبوا عنه، أو ترجموا له كالمقري الذي وصفه بأنه إمام الدنيا، والشوكاني الذي قال عنه: الإمام الكبير صاحب التصانيف". وابن إياس وابن العماد اللذان أشادا بمؤلفاته..

المراجع

1-كتاب التحدث بنعمة الله، تأليف جلال الدين السيوطي، تحقيق إليزابيث ماري سارتين، صدر عن سلسلة الذخائر، الهيئة العامة لقصور الثقافة مصر العدد 106

2-الدكتور عوض الغباري مقدمة كتاب التحدث بنعمة الله بتصرف.

"الخيميائي" نموذجا
التأثر بالإسلام والبعد الصوفي
عند الكاتب البرازيلي باولو كويلو.

تعدد قراءات الكاتب البرازيلي باويلو كويلو وثقافته الواسعة، واطلاعه على آداب الشرق وقربه من ميراث التصوف الإسلامي، جعله يقترب من هذا الإطار "الميراث العربي وجمال الحضارة الإسلامية" في كثير من حواراته الصحفية. وفي بعض مقالاته يشير "بايلو كويلو" إلى ارتباطه بالحضارة العربية والميراث الصوفي الإسلامي، عشقه العظيم للشرق وآدابه، هذا الوجه الذي يحمل أروقة حقيقية من هذه الثقافة، قراءة وتأثرا، نراه في سمته وزهده، نجد هذا التقارب والتواصل في كثير من أعماله الأدبية، تعمد الكاتب ألا يتجاهل روح الشرق يجعلنا نقف أمام كاتب استطاع أن يذهب بنا بعيدا إلى عالم تخيله الكاتب، وجعل صورته أمام أعيننا حاضرة، عالم الشرق الساحر وتراثه الأصيل، نجد هذا التأثر في روايته "مخطوطة وجدت في عكرا" التي تحدث فيها عن مخطوط قديم عثر عليه في إحدى مكتبات نجع حمادي المجهولة، تلك المدينة في أقصى صعيد مصر، مرورا بالعثور عليه وإشارة إلى أورشليم، وجريان أحداث القصة والتي ترجع هذه الأحداث إلى العام 1099، حيث تستعد المدينة لغزو الصلبيين، إشارة باويلو كويلو إلى تاريخ

هذه المدينة الروحي، وغيرها من الأمكنة االعربية التي تعكس مدى ثقافة الكاتب واطلاعه على التراث العربي، ويظهر هذا التأثر أيضا في روايته "ألف" والتي عبر فيها عن هذه الروح التي أحبها، روح الشرق وتراثه، أطلق كويلو على روايته "ألف" الاسم الأول من حروف اللغة العربية، وكما صرح في حديث له عقب إصدار هذه الرواية أن اختيار الاسم جاء تعبيرًا منه عن حبه وعشقه العظيم للشرق، وأهداها إلى العرب أصحاب التراث الأدبي الكبير.." . صاغ كويلو أدبه صياغة يأخذ السرد فيه أسلوب الحكي الحكمي، متأثرا بميراث الحكمة وروح الإشارات الموجودة في بطون الكتب القديمة، جامعا خلاصة الثقافات وميراثها، مسافرا عبر الحياة ليكتشف ذاته ويحقق رسالة بحث عنها طويلا، كيف للكاتب أن يعيش الحياة الروحية، ويصنع عالمه من خلال تأثره بهذا الميراث الروحي، ميراث التصوف الإسلامي وبعده الروحي، كيف نصنع السعادة من خلال وعينا وإداركناالحقيقة؟ وكيف نواجه المصاعب التي هي ابتلاء من الله تعالى بالتسليم لأمر الله ومشيئته؟ وعلى هذا النحو، كانت رؤية باويلو كويلو وأفكاره قائمة على التأثر بقراءته في ميراث الإسلام، في حِكَمه الذي يصر على تضمينها في بعض رواياته متأثرا بالحكم العطائية والتراث الصوفي.

العوالم الروحانية المليئة بالسحر والغموض هي السمة الغالبة على أعمال كويلو الروائية التي تُصنّف تحت خانة الكتب الفلسفية والميتافيزيقية. كما تلعب الإشارات دورا مهمًّا في رواياته، على نحو هذه العبارة التي جاءت في إحدى فقرات روايته الخيميائي: "لا تتخلّ، إطلاقا عن أحلامك، وانتبه إلى الإشارات." وعلى هذا النحو يؤمن كويلو على الصعيد الشخصي بنُظم الإشارات وتأثيرها على مسار حياة الفرد، وهو الذي يقول أيضا إنّ «الإشارات هي أبجدية يُطوّرها المرء للتخاطب مع روح العالم".

ويقول معبرا عن الثورة الروحية في كتاباته، والفكرة الأساسية التي يريد يدركها القارىء من خلال طرحه لهذه الرؤى وتلك الأبعاد الروحية "لا أدري إن كان بوسعي القول إنني أجسد عولمةً روحيةً، وأشكل إحدى الظواهر التي تؤكد إمكانية تلاقي الثقافات المختلفة في جو من الاحترام المتبادل.."

ولد باولو كويلو في ريو دي جينيرو عام 1947، وسط عائلة ميسورة ماديًّا. والده كان مهندسا، أمّا والدته فكانت سيّدة كاثوليكية شديدة الإيمان والروحانية، درس في مدارس الراهبات، ومن ثمّ التحق بجامعة الحقوق، إلا إنّه هجر دراسته بعد سفره مع جماعة «الهيبيز» إلى عدد من البلدان الأوروبية والأميركية. اشتهر في البرازيل على أنه مخرج مسرحي وكاتب لأشهر الأغنيات الشبابية لفنانين برازيليين معروفين مثل إليس ريجينا، ريتا لي، راوول سيكساس..

بدأ حياته الأدبية من خلال كتابة المقالات الصحافية وسيناريوهات الأفلام، ونشر عام 1982 رواية «أرشيف الجحيم» إلاّ أنّها لم تُحقّق أي رواج أو نجاح يُذكر، صدرت أول كتبه عن دار نشر صغيرة في بلد لا يعتبر الأدب تقليدا من تقاليده، وبعد سنة من إصدار هذا العمل أبلغته الدار التي قامت بنشر هذا العمل أن كتابه لم يعد يلقى أي نجاح، وقد بيع الكتاب بفضل ما تناقله القراء عنه، فكان القراء هم من يوصون بقراءته. على الجانب الشخصي في حياته فقد بدأت مُعاناته باكرًا عندما أودعه والده في مصح عقليّ وهو في سن السّابعة؛ لأنه أراد العمل في المسرح وترك الدّراسة، حاول الهروب من المصحة عدّة مرات، وكان والداه يعيدانه إليها كرهًا وإرغامًا، حتى هرب منها في الأخير وبلا رجعة منضمًّا إلى "الهيبين"، ثم إلى "الماركسيين"، ويُقال إنّه مارس في فترة من حياته "السّحر الأسود".. وأخيرا اتّجه إلى أمريكا ليدمن بعدها المخدرات هروبًا من الفراغ الرّهيب الذي فرضه عليه واقعه... هذا الشّاب عاش حياة مليئة بالتناقضات والمطبات والمفاجآت، وقطع دروبًا وعرة، وقد أدى ولعه بالسفر وتجاربه الرّوحيّة إلى تغيير مصيره مرة واحدة، وانهمك في القراءات المُختلفة مُتأثرًا ببعضها خاصة الصّوفية الإسلاميّة والثّقافة الشّرقيّة، وتعمق في فلسفة الحياة والتساؤلات التي تؤرق الإنسان وهواجسه وعوالمه الرّوحيّة.. إذ اختار أسلوبًا خاصا به في الكتابة الإبداعيّة ميزه عن غيره، وجعله من أشهر الكُتّاب في العالم..

وتتميز رواياته التي تُرجمت إلى أكثر من 80 لغة، ووزعت في 150 دولة من دول العالم بالمعنى الروحي الذي يُسيطر على جلها، كما يستعين فيها بالأحداث والوقائع التّاريخيّة وشخصيات من الواقع تُجسد أدوارًا مُختلفة في رواياته، وتعتبر "الخيميائي" أشهر روايات باولو كويلو، وقد ترجمها إلى العربيّة المُترجم "خالد السيد" وصدرت عن المجمع الثّقافي المصري. هذا عن حياته التي تجمع في مسيرتها كل المتناقضات، الإيمان والبعد، التشرد والاستقامة، وظل في بعض أطوار حياته يعاني من عدم الاستقرار النفسي والروحي، إلى أن قام في العام 1986 برحلة جماعية سيرا على الأقدام، استمرّت شهرين، بدأت من جنوب غرب فرنسا، قطع خلالها شمال إسبانيا وانتهت في سنتياغو دوكومبوستيلا.

وقد كان لهذه الرحلة الأثر العميق في نفسه إلى حدّ أنّها غيّرت نظرته إلى نفسه وإلى الحياة على حدّ سواء. ويقول كويلو، الذي يصف هذه الرحلة بأنّها «تبعث عليّ الروع والرهبة»، إنّ هذه الرحلة تركت بصمتها في كلّ ما كتبه لاحقًا من أعمال أدبية مثل رواية «الحج» و«الخيميائي» و«الزهير» وغيره. هكذا مثلت هذه الحياة وما صاحبها من تغيرات، أثرت إلى حد كبير في صياغة عالمه وصنع تجربته الإبداعية بما فيها من عمق فلسفي إنساني وآفاق روحية.. رحبة فكانت هذه التجربة الثرية مجالا للتحليق إلى عوالم إبداعية هائلة.

في أكثر من حديث يشير كويلو إلى الرواق الأول لثقافته وتأثره بالتراث الصوفي الإسلامي كما أشار في المقدمة التي كتبها للطبعة العربية لراوياته الصادرة عن شركة المطبوعات العربية ببيروت، وهي دار النشر التي أسند لها كويلو نشر أعماله وترجمتها إلى العربية.. يقول كويلو: "كانت الثّقافة العربيّة إلى جانبي خلال معظم أيام حياتي، تبيّنت لي أمورٌ لم يستطع العالم الذي أعيش فيه أن يفقه معناها".

ويُضيف في موضع آخر "اكتشافي الأول للحضارة العربيّة الإسلاميّة كان من خلال العرب المقيمين في البرازيل، ثم طورت معرفتي من خلال قراءة الأدب العربيّ مثل كتاب ألف ليلة وليلة، إضافة للأدب الصّوفي مثل كتابات جلال الدين الرومي، إلى جانب اطلاعي على النّصوص الدّينيّة، ولّما مارست الكتابة، وجدت أن ثقافتكم في أعماق قلبي وتظهر طبعا في تلافيفها.. لقد أحببت الشّرق بعمق، وأعتبر كتاب النبي لجبران خليل جبران أحد الكتب الحاسمة في حياتي وعملي.

وعن تأثره بالقرآن الكريم ومصاحبته له وارتشافه الأبعاد الروحيه والقيم الإنسانية التي جاءت في آيات القرآن الكريم يقول كويلو "أنا أقرأ القرآن، وأحتفظ به بجانبي دائما في غرفة نومي بجوار فراشي، وقد اشتريت نسخة لترجمة معاني القرآن من المغرب باللغة الفرنسية، وقد قرأته مرة كاملا، والآن أقرؤه جزءا جزءا بتمعن أكثر. وأنا أحترم القرآن كثيرا جدا لأن فيه

معاني وقيما رائعة، وأنا أنقل هذا الاحترام للآخرين"، كما يتحدث عن تأثره بالإسلام الصّوفي قائلا: "كتاباتي متأثرة لحد بعيد بتعاليم الإسلام الصّوفيّة. لقد ألهمني التّصوف بالفعل إلى حد كبير خلال حياتي..."، ويظهر جليًّا تأثر باولو كويلو بالتراث العربيّ الإسلامي.

وتلخيصا لقصته الرائعة الخيميائي، والفكرة التي قامت عليها، والبعد الروحي من خلال أحداثها، هذه الرواية الرمزية التي وضعت كاتبها كأبرز الكتاب في العالم، وصنفوها النقاد كأحد روائع الأدب المعاصر، نشرت في طبعتها الأولى عام 1988.. يقول كويلو: "قصة الراعي الذي طالما كنته، على الرغم من أنني لم أرعَ الغنم في حياتي، بل الأحلام فحسب، هو ذا الذي سيغدو مرآة حياتي، ويعكس كل العقبات التي انتصبت في طريقي، وكل القرارات، والأخطاء التي ارتكبها يوم انطلق في بحثه عن الكنز.. كان اسم الصبي سانتياغو، وفي تلك اللحظة السحرية، عرفت أن وراء هذه الكلمات السحرية يقبع كتاب."

بتلك الإشارت يشير كويلو إلى فلسفته التي وضعها في هذه الرواية "الخيميائي"، بحثه عن المعرفة، ورحلته في الكشف عن أغوار هذه النفس، مع جانب تكشفه الراوية عن شخصيته وأطوار حياته، من جانب آخر هي دعوة للتسامح وفهم مبادىء الإسلام فهما صحيحا، من خلال عديد من الأحداث التي تصادف بطل الرواية الراعي الأندلسي في أثناء رحلته للحصول

على الكنز الذي جاءه عبر رؤيا منامية، أولت هذه الرؤيا لاحقا أن هناك عند الأهرمات بمصر، سوف يجد كنزه الذي يبحث عنه. نجد في هذه الرواية محاولة تقارب الحضارات لا تصادمها، جغرافيها الراوية وشخوصها، السفر عبر الأزمنة، كانت المقدمة التي كتبها سردا هادرا، استطاع كويلو بأسلوبه الرائع أن يذهب بنا إلى ينابيع من السحر العربي، بدابة من ذروة أحداث الراوية من مكان ما خلف أطلال كنسية قديمة، وهو المكان الذي تنتهي عنده الراوية، كان هذا الراعي الأندلسي يستريح برهة بعد مكابدة مع أغنامه، هذا الراعي المثقف الذي يحمل في يده عصاه والأخرى كتابا، يستغل لحظة استراحة أغنامه ليستظل تحت ظل شجرة ويفتح كتابه ويعيش معه. ذكاء الرواي في جعل هذا الراعي بهذه الصفة من حب المعرفة تمهيدا لرحلة سوف يعيشها.

ثم يأتي حلم الراعي عندما رأى في منامه أن هناك في منطقة الأهرمات كنزا. وتبدأ رحلة الراعي في حل لغز هذا المنام، وكيف السبيل إلى تحقيقه ليدق باب المعرفة والطلاسم والسحر، ثم السفر عبر أماكن يلتقي فيها عديدا من الأشخاص يلتمس منهم الطريق ويأخذ عنهم المعرفة، وتبدأ رحلته من أسبانيا، عندما التقى الملك ملكي صادق الذي أخبره عن الكنز عبر مضيق جبل طارق، مارا بالمغرب، حتى بلغ مصر. وطوال هذه الرحلة كانت تواجهه إشارات عجيبة وأحداث عظيمة، يقع كل حدث منها استحال عقبة تكاد تمنعه من متابعته لهذه الرحلة إلى ان يجد الوسيلة التي تساعده على تجاوز هذه العقبة،

يسلب مرتين، يعمل فى متجر للبذور، يرافق رجلا انجليزيا يبحث عن أسطورته الشخصية، يشهد حروبا تدور رحاها بين القبائل، وأخيرا يلتقي بهذا "الخيميائي" عارف الأسرار العظيمة الذي يحثه على المضي نحو كنزه، يمكن تلخيص فكرة الراوية باستعادة الكاتب موضوع رحلة موغلة في القدم، بدأها كل الذين فتشوا عما يجعل الحياة أجمل، حجر الفلاسفة، وإكسير الحياة، هل يصبح الذهب ذريعة للبحث عن كنوز أخرى، وهل تكون أسطورتنا الشخصية اكتشافنا لحقِّنا في السعادة؟؟ هكاذا جاءت فكرة الراوية وهكذا كانت المقدمة لها، يعنينا هنا إشارات البعد الإسلامي وميراث التصوف الإسلامي من خلال أحداث هذه الراوية، الفكرة الأخرى التي أراد الكاتب توصيلها إلى متلقي أحداث روايته. بعناية يجذب باولو كويلو قرّاءه إلى نسيج من الأحداث سوف تأتي، معلنا إنصافه وحبه لقيم الإسلام من خلال إشارات عديدة جاءت من خلال أحداث الراوية المتلاحقة، وهي إشارات تنبئ بثقافة الكاتب واطلالعه وقربه من المتجمع الإسلامي، تردد الأسماء العربية، فاطمة، التاجر المغربي، وملكي صادق، وغيرها، ثم ذكر بعض الأماكن العربية والإسلامية كمحور الراوية أهرمات مصر، والبعد الروحي في ذكر "مكة"، ثم طريف، مضيق جبل طارق وغيرها تنبئ عن كاتب أراد أن يجعل من هذا الراوية صورة حية لتأثره بقراءته وزيارته لعديد من البلدان العربية وقربه من

المجتمع الإسلامي، الأمر الذي جعله يكتب هذه الراوية واضعا فلسفته ورؤيته الخاصة.

البحث عن الكنز عبر رحلة طويلة، خاضها هذا الصبي الأندلسي الحالم، هي رحلة روحية أيضا تمثل عقيدة راسخة عند الكاتب في إيمانه العميق بوجود فكرة البحث والوصول. وعبر الراوية نستشف إشارات أراد أن يشير فيها باويلو كويلو إلى قيم الإسلام وأخلاق العرب، وما هذا الراعي الأندلسي سوى رمز أراده الكاتب ليصبح بطل الراوية عودة لتراث العرب القديم في إسبانيا وإحياءً لذكرى الأندلس، نشير هنا إلى بعض إشارات الكاتب إلى هذه القيم وهذا الإيحاء، تصويره لعادات إسلامية عبر كثيرٍ من المواقف والمحطات التي شاهدها بطل الراوية الراعي الأندلسي سانتياغو، هذا الصبي المثقف الدارس للغات اللاتينية والإسبانية واللاهوت، كان والداه يرغبان أن يجعلا منه كاهنا ليغدو فخرا لذويه الريفيين البسطاء، الذين يكدحون من أجل الطعام والماء.. وهكذا يصف الكاتب بطل روايته الذي يرى فيه صورة لموروث القيم التي توارثها أهل الأندلس من معايشتهم مع المسلمين هناك. تمثلت في هذا الراعي الأندلسي الصبي سانتياغو..

ومن أخلاق الإسلام الصدق والأمانة في التجارة إشارة الكاتب إلى أخلاق التاجر المغربي الذي شاهده "الصبي الأندلسي الراعي سانتياغو بطل الراوية، عندما ذهب إلى سوق المدينة، ونادرا ما يترك قطيعه من الغنم ويتجول

في المدينة، ذهب إلى السوق يبيع بعض الصوف لحاجته إلى المال، وهناك وقف أمام هذا المتجر الذي يملكه هذا المغربي، كان متجرا للمنسوجات العربية، يصفه الراعي بقوله: "وكان التاجر صاحب دكان للمنسوجات، وكان يحب أن يجز الصوف أمام عينيه، ليتجنب كل غش في البضاعة.." الراوية ص 18، ولأمانة هذا التاجر يشير الراعي إلى أن أحد أصدقائه حدثه عندما أراد أن يقصد السوق إلى مكان هذا الدكان؛ لِمَا يمتاز به صاحبه من صفات حسنة من أمانة وصدق في المعاملة، تعمد الكاتب ذكر هذه الصفات يأتي من خلال إيمان الكاتب بهذه الصفات التي كانت سائدة في الوسط الأندلسي من حسن معاملة الغير، وقيم الصدق وتحريه، وهي صفات قامت عليها الحضارة الإسلامية وذكرها هنا الكاتب، وكان لهذا التاجر ابنة رأت هذا الراعي وشاهدته يحمل كتابا وهو يعرض صوفه، يصفها الكاتب بقوله:

"إنها فتاة ذات ملامح أندلسية، حكى لها الراعي عن الحياة في الريف الأندلسي. كان الحديث طويلا، ذكر الراعي محاسن هذه الفتاة وصفاتها الحسنة، حتى جاء التاجر وطلب منه جزَّ صوف أربع نعاج وأعطاه الثمن، وطلب منه أن يعود ثانية.."

وجود هذا المشهد في بداية السرد يعطي لنا بعض صفات هذا الراعي الأندلسي من حب المعرفة والمعايشة واعتزازه بكونه أندلسيا محبا للقراءة، شغوفا بها، له نفسٌ تهوى الترحال، يسعى للكسب من عمل يده، وهي صفات

حميدة ذكرها الكاتب جاءت من خلال انطباع أخذه عن المسلمين الذين التقى بهم في الأسفار العديدة التي سافر إليها..

الساحة، وصفا للخلوة.

تأثر باولو كويلو بالتصوف الإسلامي وآفاقه الروحية، وهو في عديد من الحوارت التي أُجريت معه يشير إلى أن الفضل الأول في البعد الروحي في كتاباته إلى قراءاته العديدة في هذا الميراث الإسلامي من عطاء المتصوفه وأحوالهم. وفي الراوية يشير إلى لقاء الراعي الأندلسي عبر مسيرته بشيخ هناك في الساحة، وجود هذه المفردات الساحة، العابرين، الشيخ، اسم هذا الشيخ ملك سالم، للوهلة خُيل للراعي أنه ملك من الملوك، وليس مجرد اسم مركب. وعن محاكاة الشيخ والمريد يأتي الكاتب هنا بحوار الراعي مع هذا الشيخ يسأله، فيجيب وبلغة الإشارات الصوفية تأتي أجوبة الشيخ لكل ما يطرحه الراعي من تساؤلات عن كنهة وجوده ومهنته وعن مكانه تحديدا الذي أشار الشيخ أنه موجود في كل مكان وهو اعتقاد في الإرث الصوفي أن الإنسان بوسعه أن يسافر في اللحظة بروحه إلى آفاقٍ يعرج بها إلى عوالم نورانية بعيدا عن صخب الحياة المحيطة. يصف الكاتب الشيخ بأنه يرتدي زيّا عربيا، كما أن سيماه تدل على أنه عربي. يشير الكاتب في هذا المقام بوجود هذا الشيخ في تلك المنطقة القريبة من "طريف"، من الناحية الأخرى من الأندلس عند جبل

طارق، غالبا يأتي عرب للتسوق في هذه المدينة من جهة بلاد المغرب العربية، لذا فانتظر مشاهدتهم وهم يؤدون صلاتهم غير مرة في اليوم إشارة إلى الصلوات الخمس..

سأل الفتى هذا الشيخ:

-من أين أنت؟

أجابه: من عدة أماكن..

وهنا استغرب الراعي الجواب؛ فليس بمقدور المرء أن يحيا في عدة أماكن، فهو راعٍ وبوسعه أن ينتقل من مكان إلى آخر بقطيعه من الأغنام، لكن في النهاية له مكان واحد يعود إليه..

وهناك عاد الشيخ ويخبر الراعي أنه من مينة سالم وهو ملكها.

-اسمي ملكي صادق.

وهنا شعر الراعي بدهشة؛ لمَ يتكلم ملك إلى راع؟؟

وهنا عاد الشيخ إلى لغته المعتادة الإشارة، عندما أخبر الراعي أنه استطاع إنجاز أسطورته الشخصية، لا يدرى الراعي ما الأسطورة الشخصية؟ لمَ إشارة لبلوغ أمل ما في مكان ما؟

يقول الشيخ وهو يعطي حِكَمه ونصائحه لهذا الراعي الباحث عن هذا الكنز في رحلته الروحية هذه، وكأنه حكيم قابله هذا الصبي ليدله على الطريق لعله يتقي عثراته.

"عندما ترغب في شيء ما، فإن الكون بأسره يطاوعك على القيام بتحقيق رغباتك"

"إن الناس يدركون، في سن مبكرة، الغاية من وجودهم، وربما كَمُن هذا السبب ذاته وراء تخليهم المبكر عنها. ولكن هكذا يسير العالم"

"إن السيل الجارف هو الذي يكشف الكنوز، وهو الذي يدفنها في آن.."

وفي لحظة اختبار من الشيخ للصبي، هل بوسعه أن يتخلى عن ربع خِرافِه إذا ما يصدق في البحث عن كنزه، وضعه في مقام الصدق، وهي إشارة موجودة في الميراث الصوفي عند النفري في "المواقف"، وعند كثير من الصوفية الزاهدين عن الدنيا المعتزلين في خيامهم. يأتي الكاتب بهذا الحوار وتلك الغاية من الشيخ لتعكس قراءات الكاتب الواسعة وتعمقه في فلسفة التصوف وميراثه.

يقول الشيخ: "إذا كنت تريد أن تعرف المزيد عن كنزك، فينبغي لك إعطائي عُشر قطيعك"

-ألا ترضى بعشر الكنز؟؟

وهنا ينصحه الشيخ معقبا على رغبته هذه: "إذا وعدت بما لا تملكه بعد، فسوف تفقد الرغبة في الحصول عليه."

قال الفتى إنه وعد الغجرية في بداية البحث بعشر الكنز وهي التي أخبرته بوجوده، فنصحه الشيخ أن الغجر ماكرون، وقبل أن يختفي الشيخ من الساحة ويستمر الراعي في رحلته، أخبره أنه على موعد غدا: "غدا في مثل هذا الوقت تأتيني بعشر قطيعك، وسوف أشرح لك كيف تنجح بالعثور على كنزك المخبأ.."

وهنا ينتهي الحوار بين الشيخ والراعي، وقد أراد الكاتب أن نستشف معه هذا الميراث الصوفي من خلال إشارته في هذا الجزء من الرواية، وجود ألفاظ تنبئ بقرب الكاتب من هذا العطاء الصوفي الإسلامي وبعده الروح.

بداية من حديث الراعي.

تماما مثل الكتاب الإسبان الحقيقيقن الذين صاغوا ميراث الأندلس صبغة روائية محكمة، وإذا كان الشعر أسبق تأثرا والشعراء الإسبان الأكثر تغنيا بمجد الأندلس مثل شاعر غرناطة لوركا وبايلو نيردوا وغيرهم.

ويستمر الراعي في رحلته، ويواصل الكاتب سرد هذه الرحلة ليأخذ القارىء إلى أجواء أخرى، من روح التسامح عندما عمل الراعي عند تاجر البذور، وجد عنده كرم الضيافة والمعاملة الطيبة الحسنة والإشفاق، وتحري الصدق في تجارته، ويظهر تأثر الكاتب بقيم ومبادئ الإسلام من خلال معايشة الراعي لهذا التاجر، فهو دين يحث على إطعام الفقير وإعفاف المحتاج، كما جاء في قول التاجر: "هيا بنا نمضي لتناول الطعام، إن القرآن يلزمنا بإطعام

أي جائع"، وفي موضع آخر من الحوار المعتاد بين الراعي وهذا التاجر، يشرح الكاتب كل مبادىء الإسلام وقيمه التي جاء بها من خلال حديث التاجر للراعي قائلا: "القرآن أُنزل على النبي، خمس فرائض علينا العمل بها طوال حياتنا، أهمها الشهادة بأن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له. أما الفرائض الأخرى فهي تأدية الصلاة خمس مرات في اليوم، وصيام شهر رمضان، وإيتاء الزكاة لمساعدة المحتاجين". ثم يأتي السرد الأجمل والتأثر الواضح لعمق تعاليم الإسلام واطلاله الواسع على جوهر هذه الثقافة، وصف الحالة الوجدانية والتأثر الواضح على وجه هذا التاجر، هذا الحنين الذي وصفه التاجر للراعي عندما تحدث عن مكة وفريضة الحج، وقدرة الكاتب أن يصور هذا الإحساس الفطري الذي هو إرث وجداني، وحلم يحلم به ويتمناه كل مسلم، هنا تأتي رسالة الكاتب وصدق تجربته من خلال سرد حقيقي لقيم وميراثٍ ارتبط به وقرأ عنه، ندع هذا الحوار بين الفتى الراعي بطل الراوية وهذا التاجر الصالح، لنرى كيف تعايش هذا الكاتب ولمس جوهر هذه الرسالة وصدقها، تصويره لهذا الحالة الشعورية الحاضرة في حديث التاجر وحنينه إلى زيارة الأماكن المقدسة في "مكة" وأدائه فريضة الحج وحبه للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، عندما جاء ذكره وبكاؤه، عندما يتحدث عنه، تعكس انطباعًا حقيقيًّا أن باويلو كويلو أراد أن يضع قارءه إلى مصدر يستطيع المتلقي الغربي أن يقترب به من شعائر الإسلام وجوهر هذه

العقيدة، بعيدا عن الصورة التي تشوه إلى حد كبير جوهر هذه الرسالة، لنعيش مع هذا الحديث ونقف عند أمانة هذا الكاتب وتأثره الشديد بالرسالة والثقافة الإسلامية.

ثم توقف عن الكلام، ذلك أنه عندما تكلم عن النبي امتلأت عيناه بالدموع، فهو رجل شديد الورع، يحاول جاهدا أن يعيش وفق تعاليم الإسلام..

فسأله الفتى:

وما الفريضة الخامسة؟

الفريضة الخامسة على كل مسلم صادق الإيمان، أن يقوم في حياته، برحلة واحدة على الأقل إلى مكة المكرمة.. مكة هي التي تبقيني على قيد الحياة، وهي التي تمنحني القوة على تحمل كل هذه الأيام المتشابهة، وهذه الزهريات الموضوعة فوق الرفوف والغداء والعشاء، في هذا المطعم البائس، إنني أخاف إذا حققت حلمي، ألا يبقى لي بعد ذلك سبب للعيش، تصورت آلاف المرات عبور الصحراء، وبلوغ الحرم، حيث الحجر الأسود، والدورات السبع حوله قبل أن يحق لي لمسه، كما تصورت من يكون إلى جانبي، ومن أمامي، والخطب الدينية، والدعوات التي نتبادلها ونرددها معا، ولكن خوفي، أن يسفر الأمر عن خيبة مريرة يجعلني أفضل الاكتفاء بالحلم.."

الرواية بتصرف ص70 و71.

قدرة الراوي على سرد هذه المشاعر الجياشة الصادقة على هذه الصورة المشعة إيمانا وحنينا وصدقا من جانب هذا التاجر الذي بدره يعبر عن مشاعر جميع المسلمين الذي يأخذهم الحنين إلى زيارة هذه الأماكن المقدسة وأداء فريضة الحج، ويخشون أن يكتب لهم، فيظل دعاؤهم حلما لا ينتهي وأملا لا ينقطع.

رسالة الكاتب في هذا المقام، هي السبيل لإعطاء صورة صادقة بعيدا عن التشوه المتعمد من بعض الناس، لتصل إلى المتلقي جوهر هذه المشاعر وما تمثله من أهمية لدى جميع المسلمين في كل مكان، الجانب الروحي لدى المسلمين يجعلهم يعيشون في تنزه عن الحياة المادية، كما هي سائدة في المجتع الغربي وهذا ما أراده الكاتب أن ندركه تماما البعد الروحي في تعاليم الإسلام واطلاع الكاتب على هذه التعاليم وإيمانه بها أن ندرك رسالته من خلال بعض فقرات هذه الراوية الصبي الراعي الآتي من الغرب وإن كان مقبلا من الأندلس فهو مقيم الآن في إسبانيا التي تمثل الغرب الحاضر بكل قيمه المادية ومبادئه، يقطع هذه الصبي آلاف الأميال من أجل أن يصل إلى مبتغاه، الحصول على هذا الكنز الثمين، تاركا قراءته وثقافته ملتقيا بعديد من الشخصيات، بعضهم حاول أن يذكر له هناك ما هو أغنى من الحصول على هذا الكنز، القناعة والرضا، هنا تكون السعادة الحقيقة والكنز العظيم، وهذا ما قاله التاجر الصالح: "أنت تحلم بالغنم والأهرام، لكنك تختلف عني، لأنك تريد تحقيق

أحلامك. أما أنا، فكل ما أريده هو أن أحلم بمكة..."، تنتهي رحلة الراعي وصوت الخيميائي يتردد في أذنه أن الحياة في الحقيقة، سخية مع من يعيش أسطورته الشخصية0

وعلى طول السرد لا تخلو الراوية من العظات والحكم التي يتلاقها الصبى فى رحلته إلى الاهرمات وهى تعكس رؤية جادة لثقافة هذا الكاتب وتأثره الواضح بتعدد قراءته فى الثقافة العربية وميراثها

وفي النهاية، يظل الميراث الإبداعي الأكثر تحديا لروح التقاء الحضارات وتقاربها ونبذ ما هو قبيح في هذا العالم بكل ما فيه من تغيرات مسمومة تذهب بالجمال، وتجعلنا نضع فوق أعيننا عصابة سوداء؛ فلا نرى الواقع إلا غمامًا أسودَ ممتدًّا امتداد السماء.

المراجع:

1-"الخيميائي" رواية باولو كويلو، ترجمة جواد صيداوي، الناشر شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة السادسة عشر 2008 بيروت.

2- روابط عديدة على الإنترنت خاصة بالكاتب والراوية.

3-للتعرف إلى شخصية الكاتب وتأثره باطلاعه على التراث الصوفي الإسلامي، يمكن الاطلاع على كتابه "كالنهر الذي يجري"، سيرة ذاتية لفكره وآرائه عبر نصوص مختاره صدر عام 2006 عن المجمع الثقافي المصري. ترجمة خالد السيد.

4-حوار مع باولو كويلو من خلال برنامج "وراء الوجوه" تقديم ريكاردو كرم، إنتاج تلفيزيون المستقبل، بيروت، لبنان.

5-رواية ألف، باولو كويلو، ترجمة رنا الصيفي، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى. 2011

6-هشام يونس، حوار مع باولو كويلو، جريدة الرياض 26 مايو 2005م - العدد 13485

السيرة النبوية
عند المستشرق "إيميل درمنغم"

تعددت الكتابات التي أرّخت للسيرة النبوية، وتطرقت لحياة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وشُغل الباحثون بسرد وقائع هذه السيرة بما فيها من إشراقات روحية ومظاهر إنسانية، تثمل العطف والشفقة والرحمة والبساطة التي كانت متلازمة لحياة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وهو النبي الخاتم. هذه الحياة البسيطة كانت سببًا في لفت نظر المستشرقين؛ فقاموا بدراسة السيرة آخذين منها جوانب العظمة، والسمو الروحي والرقي الإنساني.

وإذا كانت مصادر السيرة النبوية قد تنوعت، الأمر الذي سهل على الباحثين الحصول على قدر كافٍ من كتب السيرة، كمراجع يرجعون إليها عند الحديث عن حياة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم والسرد لأحداث سيرته، وإذا كان بعضٌ منهم بِنِيَّة غير صافية ونفسٍ تكره الحقيقة مدفوعة بدوافع استعمارية تحاول أن تقرأ السيرة قراءة غير عادلة، حتى تصل إلى المتلقي الغربي صورة غير حقيقة وظلال كاذبة عن حياة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، تكمن في هذه النفس الأمراض الخبيثة من الحقد على صاحب الرسالة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ومع هذا التعصب الأعمى من

هؤلاء، نجد الصورة المضيئة والعطاء الحقيقي عند كثيرٍ اللذين استلهموا في كتاباتهم إشراقات السيرة فتتأثروا بها، وكتبوا الكتب التي أرّخت بكل صدق لهذه الحياة التي عاشها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم..

واستمرارا لهذا العطاء وهذا الإنصاف، نعيش مع السيرة ومع صاحبها النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم من خلال الكاتب والمستشرق الفرنسي "إميل درمنغم". قرأ إميل درمنغم السيرة من خلال مصادرها الحقيقة، وتناولها من خلال عاطفة جياشة من المحبة الحقيقة للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم؛ نلمس هذه المحبة في كتابه "الشخصية المحمدية، السيرة والمسيرة"، فكان مثالا للباحث الحق الذي يكتب عن وعي وعن إيمان حقيقي عن الموضوع الذي يكتب عنه والشخصية التي تأثر بها إلى جانب هذا الكتاب الذي تحدث فيه اميل درمغنم عن شخصية الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم محللا هذه الشخصية الخالدة، باحثا عن أوجه العظمة فيها، إلى جانب هذا الكتاب، كتب اميل درمنهم كتاب "حياة محمد"، أخذ اميل درمنغم مصادر كتابه "حياة محمد" من المصدر الأساسي وهو القرآن، الذي يرى فيه المنبع الجوهري والأساس الحقيقي، وأصح المصادر إلى جانب كتب الحديث، ولا سيما صحيح البخاري، الذي يرى فيه أنه يحمل أدق أقوال النبي وأدق أعماله إلى جانب هذين المصدرين اعتمد أيضا اميل درمنغم على مصادر السيرة، والتي يرى أن سيرة بن هشام القديمة المقتبسة من ابن إسحاق أهم

هذه المصادر التي أرّخت للسيرة النبوية إلى جانب مؤلفات الواقدي، وابن سعد والحلبي وأبي الفداء بن كثير والطبري والمسعودي، والذي يرى اميل در منغم على الرغم من أهميتها أنها المراجع الأصلية التي نستطيع أن نعتمد عليها في التاريخ لأحداث السيرة النبوية، إلا أنها مع ذلك بها عديد من الأحاديث الضعيفة لم يألوا جهدا في ترتيبها ترتيبا منطقيا تاريخيا؛ مما يصعب عمله، ومع ذلك يرى اميل درغنم أن هذه المؤلفات، ولا سيما الأولى منها، اشتملت على ما هو صحيح وبأمانة النقل العلمي لم تكتم في هذا النقل في سيرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ما يصدم الشعور الذي قد نراه من عثرات لا تخلو منها النفس الإنسانية. يرى اميل درغنم في حديثه عن النبي محمد عبر تأريخه هذه السيرة، أراد أن يؤلف سيرة ناطقة صادقة للنبي مستندا في ذلك كما ذكرنا إلى أقدم المصادر العربية غير غافل عما جاء في مؤلفات المتخصصين الحديثة، شاء اميل درغنم ان يرسم للنبي الكريم صلى الله عليه وسلم صورة مطابقة لما وصف به في كتب السيرة ولما يجول في نفوس المحبين له.

نعيش مع تأثر هذا الكاتب بالسيرة النبوية وانصافه لها من خلال سرده لأحداثها ، وقوفا إلى مشاهدها مبينا جوانب الرحمة والشفقة التي تمثلت في شخصية الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم من خلال حياته، ولا يغيب عن ذهننا أن الباحث الغربي الذي تصدر في الكتابة في السيرة هو في المقام الأول يخاطب المتلقي الغربي. وعلى الرغم من النية الحسنة فلم تخل سوانحه وآراؤه

من زلات، وقد تغيب عنه الحقيقة كثيرا بحسن نية لقلة مصادره وإدراكه المعاني الروحية في السيرة.

في بداية عرضه وقائع السيرة يتحدث اميل درغنم عن "مكة" باعتبارها مهد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وموطنه، وبلد الله الحرام بما لها من قدسية وكرامة، يتحدث عنها وعن وصفها وشدة حرها، يقول اميل درغنم: "وكانت مكة لا تطاق في الصيف؛ فيقيم أغنياؤها بطائف ثقيف الجبلية حيث العنب الطيب، وحيث يجمد الماء في الشتاء، دون بقية بلاد العرب، وكان ظل الشمس لما حول الكعبة من البلاط يبلغ من الشدة ما يجب معه نضحه بالماء على الدوام؛ ليمكن الطواف بأقدام حافية، وكان هذا البلاط يجف حالا"، ومع هذه البيئة القاسية أدركت قريش حرفة التجارة الرابحة، وكانت قوافلهم تغدو وتروح في الصيف والشتاء بين اليمن والشام، أراد اميل درغنم في حديثه عن مكة أن يعطي صورة قريبة لمكة مبعث النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وجاجة هذا المجتمع لظهوره، فمع هذه الأحوال الجغرافية والمناخية الوعرة كانت هناك الظواهر الاجتماعية والعادات الظالمة السائدة في الوسط المكي، من إراقة الدماء وشرب الخمر ومظاهر الفاحشة، وفساد العقيدة، فكان لابد من أن يرسل الله تعالى رسول من عنده يختم به الرسالات ويخرج الناس من الظلمات إلى النور، فكانت الرسالة إشراقة نور وطريق مستقيم، ثم يتحدث اميل درغنم في فصل آخر من الكتاب عن بداية بعثته صلى الله عليه وسلم،

ويشير اميل درغنم إلى أن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بعد زواجه من السيدة خديجة رضي الله عنها، بدأ ينشغل بالتأمل طويلا، معتزلا عن عادات قومه، معتكفا طوال شهر رمضان في غار حراء في أعالي الجبال، منقطعا عن الناس، غير ملمٍّ بالأحداث التي تدور من حوله، في غار حراء، كان يؤتى إليه في أثناء عزلته هذه بالزاد فيقضي طويل الأيام في ذلك الغار متأملا عابدا، يرى اميل درغنم أنه صلى الله عليه وسلم لم يستغنِ عن هذه العزلة التي تصفو لها النفس ولا يقوى عليها إلا الأقوياء من أصحاب النفوس العالية وذوي الجد من الرجال، صاحبته صلى الله عليه وسلم حتى بعد تبليغ الرسالة وانتشار الدعوة. يأتي اميل درغنم بمشهد نزول الأمين جبريل بالرسالة، والأمر الإلهي الذي يأمر فيه الله عز وجل نبيه بالتبليغ في ذلك الغار، وفي تلك الليلة المباركة نزلت أول آيات القرآن الكريم الذي يصف مشهد نزولها اميل درغنم بقوله: "قرأ محمد ذلك، فشعر أن النور صُبَّ في نفسه صَبًّا، وتمثل له ذلك، وهو الأمي، فعلم ما هو مكتوب فيه، وأدرك بنور بصيرته أمر كتاب حافل بالأسرار الإلهية، جاءه الملك ليؤكد له المعنى الذي خامره منذ عدة شهور، وهو أن الله خلق الإنسان، وأوحى إليه الحقائق التي تدرك بالعقل وحده، فهو (الذي علم بالقلم"4" علم الإنسان ما لم يعلم "5")

ويضيف اميل درغنم: "تلك هي معجزة الوحي، وذلك هو سر الكلام المكتوب المؤثر في الأمِّيّ والمحرك له إذ اشتمل على نص إلهي، وبذلك سيكون لدى العرب، كما عند اليهود والنصارى، كتاب مقدس يتلونه للعبادة، وبذلك سيكون لديهم شريعة سماوية يسلكون بها سبيل النجاة.."

في حديث اميل درغنم عن نزول الوحي لفتة إلى صدق هذا الكاتب في سرده هذا الحدث وتأمله هذا المشهد الذي سعدت به البشرية بتكليف هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بهذه الرسالة، صور اميل درغنم مشهد الوحي تصويرا صادقا نستشف منه رؤية حقيقة من هذا الكاتب وقراءة صادقة انطبعت على قارئ كتابه هذا.. ثم يتحدث اميل درغنم عن الصحابة الأوائل الذين آمنوا بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وساندوه في بداية إشراق الدعوة، يحمل فصلا من فصول الكتاب الحديث عنهم وعن تحملهم الشدائد والتعذيب في سبيل التخلي عن الإيمان بالرسالة مقابل حريتهم، فأبوا، فقد كانت حريتهم والخلاص الحقيقي في الإسلام الذي أعتقهم من العبودية، وسما بأرواحهم إلى مدارك الأمان والطمأنينة، أخرجهم من الظلمات إلى النور، يتحدث عن الشدائد التي تلقتها الدعوة والتعذيب للمستضعفين من قبل رؤساء قريش، التي لم ينجُ منها أحد آمن بالرسالة إلا وقد نال قسطا من هذا العذاب، كان ذلك بعد الجهر بالدعوة بعد مرور ثلاث سنوات من بدء الوحي، لم يسلم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وصحابته من السخرية

بهم والاستهزاء حتى ضاقت عليهم شعاب مكة، فأمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى الحبشة وأخبرهم أن هناك ملكا لا يظلم عنده أحدٌ أبدا، يصف اميل درغنم هذا المشهد المؤثر وتلك الصورة من عشرات الصور التي تعرض لها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، فما زاد إلا عزيمة وصبرا في تبليغ الرسالة، يقول اميل درغنم: "وكان النبي يصادف في طريقه إلى بيته في كل يوم رجلا أو امرأة أو رقيقا أو صبيا يسبه وينعته بالمجنون وبالكذاب ويسفه مواعظه، وكان يبلغ من الوعك والإعياء ما يستلقي معه على حصير، فيسبح في المخزن من الأفكار، ولكنه كان ينبجس من أعماق فؤاده ومن صميم نفسه الإلهام وصوت السلوان؛ فيرسل الله الملك ليلقي السكينة عليه..

مع تلك المشاهد يقول اميل ردغنم إن الرسول صلى الله عليه وسلم عاد إلى عمله ثابت القلب، حتى جاء موسم الحج وحل زمن الأسواق الكبرى، عرض نفسه على العرب الآتين من جميع أجزاء الجزيرة العربية، وذهب بنفسه إلى عكاظ، فكان الأعراب يتركونه بعد أن يستمعوا له ويعجبوا بقوله، وهنا لم تأل قريش جهدا في إحباط دعوته وفي حمل العرب على عدم الإيمان بدعوته، ومع هذا أسمعت دعوته صلى الله عليه وسلم هؤلاء العرب، وبدأ الحديث عنه وعن الرسالة في أوساطهم مما أثار في قريش الخوف من أن تبلغ دعوته القبائل والعشائر الأخرى.

ثم يتحدث اميل درغنم في فصل آخر من فصول السيرة إلى قضية محورية هامة هي قضية البعث وموقف قريش منها، في البداية يشير درغنم إلى مجادلة قريش الدائمة للرسول صلى الله عليه وسلم بلهجة الساخر، فكان بعضهم ينكرون خلود الروح، وكان بعض آخر ينظر إلى الروح نظرة أسطورية سادت في العرف القرشي القديم، أمام هذا الاعتقاد، كانت قريش تقف تبتسم مرتابة عند ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم للبعث، ويوم الحساب، لساعة الفصل، فكانت كل هذه الأمور –التي هي من جوهر الرسالة– تنظر إليها قريش بدرب من المستحيل، فكان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يجيب عن ذلك بأن عجائب الخلق معجزة إعجاز البعث، وأن البعث ليس أصعب من الخلق، يستشهد اميل در مغنم في هذا الحديث بكثير من آيات القرآن الكريم التي أشارت إلى قضايا البعث والمحاسبة وأحوال يوم القيامة، وجزاء الصالحين.

يقول اميل درمغنم من خلال قراءته لقضية البعث كما جاءت في السيرة، وذكرها القرآن الكريم، ومن وحي فَهم اميل درمنغم سياق الآيات وتفسيرها: "كل إنسان مجزى بأعماله (كل نفس بما كسبت رهينة)"38" المدثر. وستوزن أعمال الإنسان بالميزان، والله الرحيم الودود الذي يحب العفو عن التائبين شديد العقاب على العصاة والكافرين والبخلاء الذين لا يصلون ولا يطعمون المسكين، والذين يدعون اليتيم ولا يفكرون في يوم الدين، والذين لا يقولون

غير اللغو، فأولئك من أصحاب الشمال فلا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط.."، على هذا النحو يستشهد اميل درمغنم بوصف الجنة ونعيمها والترغيب بطيب هوائها ونعم المقام فيها، الأمر الذي يلقي على أهل مكة التفكير في حال بلادهم مع وعد الله لهم بجنات ونهر إذا آمنوا وأسلموا، يرى اميل درمغنم أن الرسول صلى الله عليه وسلم استشهد في أقواله بالرسل الذين ظهروا قبله، ويذكر أنه لم يصنع غير تكرار ما أتوا به، ويقص أنباءهم ليدل على أن الله يجازي من يكفرون بآياته وأكثر القرآن من قصص نوح ولوط وإبراهيم وموسى ويونس، وأكثر القرآن من ذكر رسل الله الذين دعوا الأمم إلى التوحيد والفضيلة..

يعرض اميل درمغيم في فصول السيرة من خلال قراءته لها، إلى مشاهد عديدة تناولت أوجه السيرة من كل جوانبها، وأفاض في رؤيته لها، تحدث عن إسلام عمر وحمزة رضي الله عنهما، وتأثير إسلامهما على مسيرة الدعوة ومدها بالقوة، وتحدث عن هجرة المسلمين إلى الحبشة وحديث جعفر بن أبي طالب للنجاشي، هذا الحديث الجامع الذي لخص فيه جعفر أحوالهم في الجاهلية، وكيف أنقذهم الإسلام وهداهم إلى الخير والحرية في حديث الهجرة، يؤرخ اميل درغنم لهجرة الصحابة إلى المدينة ومدى الحفاوة التي استقبل فيها أهل المدينة جمع المهاجرين من مكة، الأمر الذي يصفه اميل درغنم بميثاق الإخاء الإنساني، يصف اميل درمغنم مشهد وصول ركب الرسول الكريم صلى الله

عليه وسلم وصاحبه الصديق رضي الله عنه إلى مشارف المدينة، هذا المشهد الرائع الذي يتجلى فيه شوق أهل يثرب، وشوق المهاجرين لرؤية الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، يقول اميل درغنم واصفا هذا المشهد: "دنا النبي ومن معه من يثرب بعد رحلة دامت سبعة أيام، وأصبحوا بين مضارب قبائل الضواحي وشرفها حيث هديل اليمام، ثم دخل يثرب في موكب عظيم."

ثم يتحدث اميل درغنم عن موقف الإسلام من النصرانية واحترامه لها، يتطرق اميل درغيم إلى قضية العقيدة التي تنزه الله تعالى من الأضداد، وحديث القرآن عن المسيح عليه السلام أنه كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه، وأنه عبد الله ورسوله، ثم يفيض اميل درمنغنم في الحديث عن عام الحزن وفقده صلى الله عليه وسلم خير ناصرين له زوجه خديجة وعمه أبا طالب، وما تعرض له من الأذى بعد موتهما، يصور اميل درغنم هذا المشهد الذي يروي صورة من صور العذاب التي تعرض لها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بعد وفاة عمه أبي طالب: " ولما مات أبو طالب، نالت قريش من إيذاء محمد ما لم تطمع فيه في حياة أبي طالب، حتى اعترضه رجل من قريش فنثر على رأسه ترابا، فدخل بيته، فقامت إليه ابنته فاطمة فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي وهو يقول لها: "لا تبكِ يا بنية، فإن الله مانع أبيك".

وعن فقد السيدة خديجة التي كانت تمثل له صلى الله عليه وسلم جانب العطف والإشفاق والسكن والرحمة، وكانت له خير زوجة وخير سند، يصفها

اميل درغنم فقدها بقوله "وفقد محمد خديجة، تلك التي كانت أول من علمت أمره، تلك التي لم تكف عن إلقاء السكينة إلى قلبه، تلك التي كانت تشمله بحب الأزواج وحنو الأمهات، تلك التي طلب منه جبريل ذات مرة أن يبلغها قوله "بشر خديجة ببيت في الجنة من قصب"، تلك التي بلغت الستين من عمرها فلم يفكر في الزواج بغيرها ما دامت حية، بل بقى آية في الوفاء.."، ثم يتحدث اميل درمغنم عن ذهابه صلى الله عليه وسلم إلى الطائف وإقامته هناك شهرا، وصدود أهل الطائف عنه، والسخرية منه، أخذ سفهاء ثقيف وعبيدهم يسبونه ويرمونه بالحصى، حتى اجتمع عليه الناس وألجئوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة القرشيين وهما فيه، فرجع عنه من السفهاء من كان يتبعه، فعمد إلى ظل سياج من عنب، فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه من نافذة، فشكا أمره إلى الله فلما سمعا ابنا ربيعه دعاءه صلى الله عليه وسلم تحركت الشفقة عندهما والرحمة، فدعا غلاما نصرانيا يقال له عداس فأمراه بأن يحمل إليه قطفا من العنب.

وعلى هذ النحو يسرد اميل درغبنم مشاهد السيرة، فيذكر مشهد غزوة بدر ثم خروج قريش للثأر من قتلاهم وأحداث غزوة أحد ثم الحديث عن غزوة الأحزاب ومشهد موت سعد بن معاذ بعد بضعة أيام من جلاء بني قريظة، وكان سعد رضي الله عنه قد حكم بحكم الله فيهم الحكم الذي رضي

به الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وكبر له الصحابة، انفجر جرح سعد وبُشّر رضي الله عنه بالجنة وباهتزاز عرش الرحمن لموته.

يلخص اميل درغنم حديثه عن السيرة النبوية وعن رسالة الإسلام عندما يتحدث عن جوهر هذه الرسالة المتمثلة في المعجزة الإلهية الخالدة "القرآن"، الذي يقول عنه اميل درغنم "إنه معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم، فأسلوبه المعجز وقوة أبحاثه يثيران ساكن من يتلوه، وكان محمد صلى الله عليه وسلم يتحدى الإنس والجن بأن يأتوا بمثله" يرى اميل درغنم أن هذا التحدي أقوَم دليل على صدق رسالته صلى الله عليه وسلم.

يشير اميل درغنم إلى تعاليم الإسلام التي تدعو إلى الخير والتسامح ونصرة المظلوم وحرية الإنسان، يستشهد بأحاديث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في العفو والشفقة والإيثار، وجهاد النفس، وهو أخيرا، يصف رسول الله وصفا يرى فيه كل البساطة وكل معاني الإنسانية، وكل قيمها مكتملة في هذا النبي الخاتم، صلى الله عليه وسلم، يقول اميل درمنغم: "لم يكن طماعا ولا صلفا ولا شديدا عن حرص أو تعصب، وكان حليما رقيق القلب رحيما، رءوفا بجميع الناس، بسيط المظهر على الدوام، وما أكثر ما كنس غرفته بيده ورقع ثيابه وخصف نعله وحلب نعاجه بنفسه، واستلقى على أرض المسجد ونهض ليفتح الباب لهرة، ومسح عرق فرسه بكمه، وتصدق بما يتجمع لديه من النقود، وكان يتجنب كل ما يمكن أن يبدو به ملكا في هذه الدنيا،

وكان ينهى عن تلقيبه بالملك وما إليه، وكان لا يُرى له بلاط ولا وزير خلا بضعة مستشارين وبضعة كتاب، وخاتما فضيا منقوشا عليه "محمد رسول الله". هل رأيتم أقرب من هذه الصورة وصفا لإنسانية الرسول الكريم في بساطته وبعده عن الدنيا وتواضعه، لقد عبر اميل درغينم بهذا الوصف عن آلاف الذين تحدثوا عن الرسول الكريم وسردوا جوهر هذه السيرة. يرى اميل درغنم أن أثر الدعوة المحمدية في جزيرة العرب أثر عظيم ثابت في تقدم الأسرة والمجتمع وفي حفظ الصحة أيضا، ويرى اميل درغنم أن رسالة الإسلام امتدت أيضا إلى الرفق بالحيوان، وذلك عندما سئل الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ذات يوم:

"وإن لنا في البهائم لأجرا؟" فقال: "في كل ذات رطبة أجرا".

يقول اميل درغنم: "والإنسان حين يرى كيف تُعامل الحمير في أمريكا الشمالية مثلا يعجب من درجة نسيان الناس الأحاديث الكثيرة التي تحث على الرفق بالحيوان"، يرى اميل درغنم أن شعائر الإسلام لم تشرع لمقاصد صحية فحسب، بل كانت لتنظيم مظاهر العبادة ولتوثيق عرى المجتمع وبذر التقوى في القلوب وتلاوة القرآن التي هي لآلئ ساطعة.

" هكذا تجلت مشاهد السيرة النبوية عند اميل درمنغم، وقام بسرد أحداثها وتصويرها من خلال رؤيته من وحي مصادر صادقة، لينضم بهذا العرض الرائع لأحداث السيرة النبوية والحديث عن حياة الرسول الكريم

صلى الله عليه وسلم بكل صدق وموضوعية إلى المستشرقين المنصفين الذين تناولوا السيرة النبوية بكل صدق وإنصاف.

المراجع:

حياة محمد في عيون المستشرق اميل درمنغم، ترجمة عادل زعتير، الطبعة الأولى 2014، صدر عن دار الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.

الشاعرة الأمريكية اميلي ديكنسون
تلك العزلة صنعت هذا العالم.

لم تحظَ الشاعرة الأمريكية امليي ديكسون بالتقدير الذي يفي تجربتها أو مسيرتها الشعرية، ربما عزلتها عن الحياة والناس، وبعدها عن الصيت، وتفضيلها العيش برفقة أختها وأمها في بيت أبيها، الكائن في مدينة آمهيرست بولاية ماساتشوستس في إقليم نيو إنجلاند شمالي شرق الولايات المتحدة الأمريكية، تلك الولاية المطلة على المحيط الأطلسي، وبقاؤها طيلة عمرها الذي استمر حتى الخامسة والخمسين حتى وفاتها بداء الكلى عام 15 مايو من عام 1886، وهي المولودة في 10 ديسمبر عام 1830، كانت اميلي الأخت الوسطى بين ثلاثة أبناء، أخيها إدوارد ديكسون، كان محاميًا كبيرًا وعضوًا في مجلس النواب، وجدها واحدا من مؤسسي جامعة آمهيرست. وأخت ارتبطت بها اميلي وعاشت معها ومع أمها في منزلها الكائن في تلك المدينة التي لم تغادرها طيلة حياتها.

كتبت ديكسون أكثر من 1700 قصيدة نشرت منها في الصحف المحلية 11 قصيدة، ولم يظهر المجلد الأول الذي جمع كل شعرها إلا في عام 1890، أي بعد وفاتها بأربعة أعوام، نشرت اميلي ديكسون قصائدها بأسماء مستعارة

في يقين منها أنها سوف تأخذ القرار الحاسم بالعزلة والبعد، هذا القرار الذي صاحبها، وأبدعت من خلال هذه العزلة إبداعا وصل بها إلى نطاق أوسع من الحيز الضيق الذي فرضته الشاعرة على نفسها، عدها الشاعر والت وايتمان أهم الشعراء الأمريكيين في القرن التاسع عشر، وصنفها الناقد الأدبي هارولد بلوم (جامعة ييل) ضمن أهم 26 كاتبًا وكاتبةً غربيين عبر التاريخ.

في هذه العزلة مع أمها وأختها تراءى لها العالم بكل ما فيه، وأخذها التأمل والوحدة إلى تجربة حية وأصيلة بعيدا عن حياة الناس، وبعيدا عن محيطها. في بيت أبيها الذي تحيطه حديقة، وافق أن ترى فيه الشاعرة عالمها الأنيس، وتصوغ منه تجربتها العميقة إبداعا اشتمل على مفردات تجعل القارئ لشعرها في حيرة، كيف لهذه الشاعرة البعيدة عن الناس أن تشكل قصديتها بهذا النحو وتصنع عالمها بكل هذا العمق، الشاعر يصنع معجمه الخاص، ويصوغ تجربته من تعامله مع الأشخاص وملازمته للحياة، يصور في شعره معاناته اليومية وتجربته الذاتية، أما في حالة اميلي ديسكون فالوضع مختلف تماما، شاهدت الشاعرة هذه الحياة عن قرب وآثرت أن تعيش بعيدا..

فضّلت كتابة العالم عن بعد، فانسحبت منه لتتأمله، وجدت ذاتها في عزلتها، حتى وصل بها الحال في نهاية عقدها الأخير امتنعت تماما عن رؤية الغرباء، جعلت بيتها حدودا، واكتفت بعدم سعيها لنشر قصائدها أن ترسل بكل قصيدة تكتبها، إلى صديقتها التي اعتادت زيارتها، والوحيدة التي كانت

اميلي تسمح أن تزورها، وكانت بدورها تحتفظ بكل قصيدة تكتبها، الأمر الذي حافظ على بقاء بعض قصائدها من مصير اختارته هي أيضا، بعدم نشر ما تبقى من قصائدها، كانت صديقتها تأخذ أيضا الرسائل التي تكتبها إلى جيرانها الذين اعتادوا السؤال عنها دون زيارتها برغبة منها بعدم قطع عزلتها والإبقاء عليها..

وعن هذه العزلة وهذا الاختيار، وفي سرد لحال اميلي ديسكون في بعدها عن عالمها وصياغتها لعالم تراه أوسع وأشمل من واقعها التي عاشت فيه، يقول الشاعر الأمريكي "أرشيبالد ماكليش":

إن العزلة التي اختارتها اميلي لنفسها في بيت أبيها وفي غرفتها الخاصة لم تكن هروبًا من الحياة، بل إن الأمر على عكس ذلك، فقد كان اعتزالها مغامرة إلى قلب الحياة التي اختارت أن تكتشفها وتروض مجهولها، تلك الحياة الشاسعة الخطرة الكثيرة الأصيلة، بل التي تفوق أصالة كل حياة أخرى.."

وعن هذا اليقين وتلك الصبغة الحزينة لحياتها، لا يخيل أنها غير بعيدة عن واقعها على الرغم من عزلتها التي فرضتها ومنهجها في الحياة التي اتبعته، فهي تحمل حزنًا شديدًا، ومن خلاله صبغت قصائدها ساردة له غير مستلسمة، راضية بالعيش في سعادة مع أمها وأختها في بيت أبيها البسيط، وفي عزيمة وإصرار على كسر هذا الحزن والتغلب عليه وهزيمته تقول اميلي: باستطاعتي

أن أخوض في برك من الحزن بأكملها، فقد اعتدت على هذا، غير أن أبسط دفعات الغبطة تكسر قدمي وإذ بي اترنح سَكرى.."

هذا هو حالها، وتلك هي روحها التي تطوف في أجواء بعيدة، تعبر عن شخصية في غاية القوة والإصرار. تحمل روح الشعر وعالمه الذي يسافر بالشاعر بعيدا ويحلق في سماوات مفتوحة. قصائد اميلي البسيطة في بنائها، جاءت من خلال تأمل الشاعرة ورؤيتها، واستمدت مفردات لغتها من خلال واقع الأشياء اختزنت فيها بعدها الفلسفي الذي يتمثل في صورها المعبرة عن ماهية الوجود الإنساني وقضايا هذا الإنسان الأساسية، من الألم والسعادة، والحب والكراهية، عن الموت والحديث عنه، وعن الحياة والدعوة للعيش فيها والتمتع بالجمال الحقيقي لعطاء الطبيعة كما أوجدها الله تعالى، عن أعماق هذه النفس وما تحويه من أسرار، البعد عن ويلات الحروب والدعوة إلى التسامح، حديثها عن الأدب والفن، هكذا من يؤرخ لمسيرة الشاعرة ويدرس شخصيتها..

في مدينتها طاب أن يطلق على الشاعرة "صوفية نيو إنجلاند"، وهو الانطباع الحاد الذي لازمها والحال التي كانت تعيش بها بأنها امرأة انطوائية غير قابلة للحياة مع الناس، دون النظر إلى إبداعها والقرب منه، في وقت كان يعمد فيه إخفاء قدرة المرأة على الإبداع، وعن خلق عطاء فكري، الأمر الذي

جاء ظلما على اميلي ديكسون، وعدم الاقتراب منها ومن مسيرتها الأدبية آنذاك.

وفي الحقيقة كما يقول مؤرخي حياتها من القريبن منها بأنها شخصية مرحة إلى أبعد الحدود، محبة للحياة ضاحكة الوجه مبتسمة دائما، وهذا نراه من ملامح صورتها التي احتفظ بها تنبئ عن وجه مقبل على الحياة، كانت تتمتع بحب وألفة عظيمين إزاء زوج أخيها التي عاشت جوارها أكثر من خمسة وثلاثين عاما، شاركتها خلالها ولعها بالموسيقى والأدب والأزهار، وخصتها بأكثر من أربعمائة من قصائدها التي تتخذ هيئة رسائل شخصية عكس ما كان يراه منها.

ولم تكن هذه العزلة بحال من الأحوال تعطي الانطباع السيء عن صفات هذه الشاعرة، فهذه عزلة اختارتها الشاعرة لتحاكي عالمًا تراه أروع، وهي بذلك غير كارهة الناس ولا الحياة، بقدر إيمانها العميق أن الشاعر بوسعه التحليق من خلال غرفة ضيقة إلى مدى أبعد.

تأثرت اميلي ديكسون بشعراء وكتاب أمثال وليم شكسبير وجون ملتون وتشارلز ديكنز وإليزابيث براوننغ، ويظهر أسلوبها الشعري تأثرا واضحا بكل من إليزابيث براوننغ وزوجها روبرت براوننغ، والشاعرين الإنجليزيين جون كيتس وجورج هربرت.

كانت لقراءات اميلي وتأثرها بهؤلاء الكتاب بجانب معلميها الذين ارتبطت بهم وأخذت منهم المعاني الحقيقة للقيم التي عاشت من أجلها الأثر الواضح في صياغة تجربتها الشعرية بجانب معطيات الطبيعة من حولها ومكانها الذي لازمها طيلة حياته.

في قصيدتها "طير آتٍ خلال الممشى"

لمحت اميلي هذا الطائر يحلق عاليا ويحط على هذه الأشجار، فكتبت هذا المقطع، وفيه نرى عمق محاكاتها للطبيعة ونظرتها التأملية لها في مقطع في غاية البساطة وصورة من أروع الصور الشعرية، تنبئ كيف صنعت اميلي معجمها من خلال هذه النظرة العابرة:

طير آتٍ خلال الممشى

نهل قطرة من ندى

نفض رأسه المخملي..(ثم)

نشر ريش الجناحين

وحلق إلى بيته الناعم.. (بينما)

تتقافز الفراشات على ضفاف الظهيرة

ومن غناء آخر تتغنى اميلي بهذا العصفور، رمزًا لغنائها للطبيعة وارتباط كثير من شعرها بمظاهر الجمال في هذه الطبيعة.

وهى تصغي لصوت الطائر المحلق وبإحساس الشاعر تصور هذا المشهد في قصائدها القصيرة..

تقول اميلي:

سماع طير يغني

ربما أمر مألوف

وربما إلهيٌّ في جماله

وليس سواءً

غناء الطير فردا

وغناؤه على حشد من السامعين

طراز الآذان

يكسو ما تسمعه

بالقتامة أو بالحسن

وكونه ساحرا

أو كونه عقيما

شيء تقرره الدواخل

"اللحن في الشجرة"

يقول المشكك فأجيب:

لا يا سيدى، إنه داخلك

وهي تحن إلى الطبيعة وتـأنس بها، وتخشى عليها من غيوم السماء ومن تساقط الأمطار وتصورها مثلنا تحس وتسمع.

السماءُ واطئة.. الغيوم وضيعة!

ندفةُ الثلج المسافرة

عبر حفرةٍ أو حظيرة

تجادل حول رحيلها

ريحٌ هزيلةٌ تشتكي اليوم كله

كيف أن أحدهم أساء إليها.

هكذا الطبيعة، مثلنا نحن

تُضبَطُ أحيانًا.. وقد نسيتْ تاجها.

لا يعني حديث الشاعرة عن الموت أنها كارهة الحياة، بل تصور الموت أنه مكمل لهذه الحياة التي تنتهي به، تتغنى به وتشترف رؤى بعيدة، وهي ترحل معه عبر كلماتها، تجول بها الأمكنة والظلال، صورت رفقتها للموت من خلال عربة تنتظره فيها، ثم ها هو يأتي إليها ليصحبها إلى كل المشاهد التي مرت بها، تذكر طفولتها عندما تذكر مدرستها، ثم يجتاز الحدائق بذكرها الندى والطل، تذكر اميلي وتثني على الموت أنه كان عطوفا عندما أتى إليها.. تمثل القصيدة البعد الفلسفي عند هذه الشاعرة التي ترى في الموت سبيلًا ينقلها إلى عوالم بعيدة، بها الظلال والترانيم.

تقول اميلي في قصيدتها العربة:

لأني لم أستطع أن أتوقف من أجله

تعطف الموت... وتوقف من أجلي.

لم يكن في العربة غيرنا:

أنا والموت والخلود.

وانطلقنا على مهلٍ

دونما عجالة

ورميت بعيدا

بكل كدي وعنائي

وبكل راحتي

نظير لطفه ودماثته

واجتزنا المدرسة

حيث يلعب الصغار في الفسحة.

ومررنا بحقول القمح المحدِّقة

واجتزنا الشمس الغاربة.

أو، بالأحرى، اجتاز بنا

الندى البارد المرتعش

لأنني.. ثوبي الرقيق.. وعباءتي..

وشالي.. من التول الخفيف..

وتوقفنا هنيهةً أمام بيت

بدا مثل ورمٍ في الأرض

السقف يُرى بالكاد

والإفريز.. على الأرض..

من وقتها– من قرون بدت

أقصر من يوم–

خمَّنتُ أن رءوس الجياد

تمضي إلى الأبدية.

أجلها.. لأني لم أستطع أن أتوقف من أجله

تعطف الموت... وتوقف من أجلي.

لم يكن في العربة غيرنا:

أنا والموت والخلود

وانطلقنا على مهلٍ

دونما عجالة

ورميت بعيدا

بكل كدي وعنائي

وبكل راحتي

نظير لطفه ودماثته

واجتزنا المدرسة

حيث يلعب الصغار في الفسحة.

ومررنا بحقول القمح المحدِّقة

واجتزنا الشمس الغاربة.

أو، بالأحرى، اجتاز بنا

الندى البارد المرتعش

لأنني.. ثوبي الرقيق.. وعباءتي..

وشالي.. من التول الخفيف..

وتوقفنا هنيهةً أمام بيت

بدا مثل ورمٍ في الأرض

السقف يُرى بالكاد

والإفريز.. على الأرض..

من وقتها– من قرون بدت

أقصر من يوم–

خمَّنتُ أن رءوس الجياد

تمضي إلى الأبدية..

القيم الإنسانية ودعوة الشاعرة إلى نشر الخير والتسامح في كثير من شعرها ينبئ عن تجربة عميقة لهذه الشاعرة التي آثرت العزلة، فكان إبداعها أكثر عمقا وارتباطا بالوجود والإنسان...

تقول اميلي:

لو..

لو أنَّ قلبًا واحدًا

منعتُهُ من التحطم

لن تكون حياتي عبثًا.

لو خففتُ أوجاع حياةٍ واحدة

أو طففتُ ألمًا واحدًا

أو أعنتُ طيرًا مغميًا

ليعود إلى عشِّهِ

لن تكون حياتي عبثا.

نشرت أعمال اميلي ديكسون في ثلاثة إصدرات تمثل إرثها من الشعر "أشعار اميلي ديكنسون" (في ثلاثة مجلدات عام 1955) ورسائل اميلي ديكنسون (في ثلاثة مجلدات عام 1958)

ومخطوطات اميلي دكنسون في (مجلدين عام 1981)

وهكذا صنعت هذه العزلة هذا العالم، عالم الشاعرة اميلي ديكنسون عالم تغنت فيه الشاعرة بمظاهر الطبيبعة وقيم الخير والجمال. على الرغم من حياتها البعيدة عن هذا التلاحم، وانطوائها على ذاتها، وحبها للحياة وانسحابها منها، وقد حاول غير قليل من الباحثين أن يعطوا تفسيرا لعزلة الشاعرة وبعدها عن العالم، ولعل أقرب تفسير لحال الشاعرة هو أن الشاعرة لم تكن تستطيع كتابة العالم دون الانسحاب منه، والسعي لتأمله من بعيد..

المراجع:

1-عشر قصائد مختارة للشاعرة الأمريكية إميلي ديكنسون، موقع الحوار المتمدن، العدد: 2767 - 2009 / 9 / 12 -

2-ماجد الحيدر

3-الموسوعة العالمية للشعر، نبذة عن الشاعرة اميلي ديكسون ومختارات من شعرها

4-الشعر والتجربة، أرشيبالد ماكليش، ترجمة سلمى الخضراء الجيوشي، صدر عن هيئة قصور الثقافة، القاهرة4

نشر هذا المقال في مجلة الدوحة العدد 130 أغسطس 2018

الحدائق في الشعر الأندلسي

من رحاب الأندلس الخصيب تأتينا الطبيعة بسحرها، فتنعش الأذهان، وتطرب الأسماع، إنها فردوس الأرض، وحديقة الدنيا؛ كم تغنى الشعر والشاعر ببهاء جمالها وشدا باخضرار حدائقها.

يقول شاعرها ابن خفاجة:

حدث المدامة والنسيم عليل والظل خفاق الرواق ظليل

والروض مهتز المعاطف نعمة نشوان تعطفه الصبا فيميل

ربان فضضه الندى ثم انجلى عنه، فذهب صفحتيه أصيل

إنها صورة رائعة رسمها شاعر الجزيرة ابن خفاجة (توفي عام 533) تعبر عن جمال الطبيعة، تتراءى للشاعر من وحي معايشته ورؤيته معالم الجمال في البيئة الأندلسية، دقة ابن خفاجة فى الوصف ، وكلماته التي تزدحم بالاخيلة والصور جعلت ابن خفاجة من أكثر شعراء الأندلس سلاسة وإبداعا وبناءً لقصيدته.

اشتهرت الأندلس بطبيعة رائعة؛ تتمثل في كثرة جداولها وقصورها وانتشار حدائقها، واهتمام حكامها بالصبغة الجمالية في معمارهم، فكثر شعراؤها، ومن وحي هذه البيئة جاء شعرهم صورة حية ووصف صادق لمظاهر الطبيعة في تلك البلاد.

في ديوان الشعر الأندلسي أخذت "الحدائق" ووصفها الجانب الكبير في شعر هؤلاء الشعراء، وجاءت مفردات هذا الشعر قوية تعبر بطلاقة عن معطيات هذه البيئة، تغنى كثير منهم بها؛ الأمر الذي جعل الباحثين يطلقون على هذا النوع من الشعر "شعر الحدائق".

يقول المستعرب الإسباني اميليو غارسية غومث: "لقد ازداد شعر الحدائق رسوخا في إسبانيا الإسلامية، وهنا بدأ تطور يمكن أن ندعوه: إعطاء الحدائق طابعا إنسانيا، وسيبلغ مداه وقمته على يد ابن خفاجة الشاعر المتوفى عام 1138.."

يعد ابن خفاجة كما وصفه اميليو غارسية غومث من أكثر الشعراء وصفا للحدائق، وشدوًا بها، ويكاد لا يخلو ديوانه من هذا الغناء بالطبيعة ومفرداتها، لذا جاء ديوانه يحمل ملامح هذا الشعر وخصوصياته.

يقول "ابن خفاجة" واصفا الروض وأندائه، وما فيه من عبق الطبيعة وسحرها، من سحر أينع يراه الشاعر ونسيم يشمه، وجدول يتوسط حديقة مخضرة فيها أطيب الثمار وأنداها.

يرى "ابن خفاجة" ذلك كله فيتذكر من يحب، وكأن كل شيء هنا يذكره بها يقول "ابن خفاجة":

ودعت من أهوى أصيلا ليتني ذقت الحمام ولا أذوق نواه

فوجدت حتى الشمس تشكو وجده والورق تندب شجوها بهواه

وعلى الأصائل رقة من بعده فكأنها تلقى الذي ألقاه

وغدا النسيم مبلغا ما بيننا فلذاك رق هوى وطاب شذاه

ما الروض قد مزجت به أنداؤه سمرا بأطيب من شذا ذكراه

والزهر مبسمه ونكهته الصبا والورد أخضله الندى خداه

فلذك أولع بالرياض لأنه أبدا يذكرني بمن أهواه

ومن وحي هذا الوصف يأتي الشاعر الطليق "مروان بن عبد الرحمن الداخل" المولود في قرطبة عام 352ه، ببيتين من الشعر رائعين في وصف جدول في إحدى حدائق الأندلس الفسيحة، وقد توسط الجدول المكان فجعل منه منظرا بديعا، ومشهدا رائعا حرك وجدان الشاعر الطليق فألهمه هذين البيتين:

وكأن المياه فيها ثعابين لُجين تبعث في السواقي

وكأن الحصباء في رونق الماء سنا الدر في بياض التراقي

غلب على ظاهرة وصف الحدائق في شعر الشاعر الطليق كثرة مفردات الخمرة والطبيعة، وارتباط الطبيعة بالمرأة كما في قوله متأملا الرياض وحسنها:

وكأن الرياض حسنا حبيب عاطر سامه المحب لقاء

ضربت سحبه رواقا عليه وارتدينا من الغمام رداء

قد تحلى بزهره وتبدى ماثلا في غلالة خضراء

فأرتنا الرياض منها نجوما وأرانا سنا العقار ذكاء

يقول الشاعر الطليق في وصفه لتلك الليلة المطرة التي هطل المطر فيها؛ فاكتسى الروض وأينعت الأزهار ومشاهدة الأمطار ليلا جعلت الشاعر يبدع صورته إبداعا تأتي فيه المفردات معبرة عن هذه اللحظة.

وهذه القصيدة يقول عنها النقاد من أشهر قصائد الشاعر الطليق تألقا وإبداعا، حتى عرفت من بين قصائد ديوانه "بالقصيدة القافية"، يقول:

وغمام هطل شوبوية نادم الروض فغنى وسقى
خلع البرق على أرجائه ثوب وشى منه لما أبرقا
فكأن الأرض منه مطبق وكأن الهضب جان أطبقا
في ليال ضل ساري نجمها حائر لا يستبين الطرقا
أوقد البرق لها مصباحه فانثنى جنح دجاها مشرقا
وشدا الرعد حنينا فجرت أكؤس المزن عليه غدقا
وغدت تحنو عليه الشمس وقد ألحقته من سناها نمرقا
فكأن الورد يعلوه الندى وجنة المحبوب تندى عرقا
وكأن القطر لما جادها صار في الأوراق منها زنبقا

ألفاظ الطبيعة في شعر الشاعر الطليق تعج بمفردات الرياض؛ الغمام الخضرة، زهر خضراء، وهي سمة عامة في أدب الحدائق والطبيعة في الشعر الأندلسي.

ومن بلنسية يأتي شاعر الطبيعة "أبو الحسن على بن عطية الله بن مطرف بن سلمة" المعروف بابن الزقاق المتوفى عام 528ه، عاش نحو أربعين عاما، كان خاله شاعر الجزيرة الكبير ابن خفاجة، ومن الطبيعي أن خاله أثر في شعره فكان شعر ابن الزقاق كله هبة للطبيعة ومناجاتها.

كانت بلدة بلنسية تتمتع بجمال فائق، وكانت خصوبة أراضيها سببا في تعريها سريعا كما يقول خوثية غومث، وكان البلنسيون مستقرين في ضياعهم، يقومون على زراعتها، وينعمون بخيراتها.

يقول خوثية خومث: "لقد نال ابن خفاجة شهرة باقية في الأدب العربي بعامة، لرقته في وصف الأنهار والحدائق، وفي دقة استحق منها يلقب "بالجنان" وسار ابن أخته، ابن الزقاق، على خطاه في غير تقليد، وفي إبداع أقل اتساعا، وربما أقل لمعانا، ولكنه أشد صفاءً.."

ومن بين شعر ابن الزقاق، قصيدة جاءت ضمن المختارات التي اختارها "اميلو خوثية خومث" ضمن مختاراته من الشعر الأندلسي قوله في وصف جدول، وفي هذا الوصف نرى تأثر ابن الزقاق بخاله واضحا، ونرى أيضا مهارة ابن الزقاق وقدرته في وصف الأشياء، تجعل من شعره لوحة شعرية جميلة تعكس مدى تأثر الشاعر بمفردات الطبيعة من حوله وتغنيه بها.

يقول ابن الزقاق:

جال طرفي بجدول مائه كالسجنجلِ

سابح فيه أغيد لحظه لحظ مغزلِ

خلته إذا بدا به قمرا في مكلل

بات تغشاه نجمة تارة ثم ينجلي

ويرسم ابن الزقاق صورة بديعة لصفحة الروض حين ينتشي، ويزيده المطر بهاءً، واصفا الحدائق ومحلقا في رحابها، ومعطيا صورة جميلة طاب لنا تأملها كما رسمها لنا ابن الزقاق:

أو ما ترى ذيل السحاب على الحدائق يسحبُ

والروض يأرج والغدير مع الحمام يصخبُ

فإذا ترنم أو رق فيه تدفق مذنبُ

والدمع طل سافح أو در سلك ينهبُ

والبرق صفحة صارم أو مارج يتلهبُ

ومهفهف يصبو إليه الشادن المترببُ

طابت حمياه ورياه أتم وأطيبُ

ويقول ابن الزقاق في وصف حديقة وكيف أن الغمام لا يكتفي بأنه يحمل لها الماء الذي يرويها بل هو الحارس الآمين يقوم بحراستها.

وروضة عاطر بنفسجها عطرها وشيها وسندسها

لما غدتها السحاب درتها من فوق حودانها ونرجسها

خاف عليها الغمام حادثة فسل سيف البروق يحرسها

هام شعراء الأندلس بطبيعة بلادهم، وانتشر شعر الوصف، ويكاد يكون السمة الغالبة في أغلب قصائدهم على اختلاف أغراض الشعر. يقول الدكتور فورار امحمد بن لخضر "الطبيعة كانت من أهم ما جذب أنظار الشعراء الوصافين، حتى لا نجد شعر الطبيعة قد اتضحت معالمه واحتل مكانا واضحا في الشعر الأندلسي، فقد وصفوا الرياض وأنوارها والحدائق وأزهارها، بل أنطقوا الأزهار فتناطقت، وأجري الثناء على أسنها فمدحت.."

يقول ابن مطرف وقد مر على الزهراء فرأى ثلاث سوسنات، اثنان منهما أينعتا والأخرى لم تينع بعد:

لا يوم كاليوم في أيامنا الأول بالعامرية ذات الماء والظللِ

هواؤها في جميع الدهر معتدل طيب وإن حل فصل غير معتدلِ

ما أن يبالي الذي يحتل ساحتها بالسعد إلا الشمس في الحملِ

كأنما غرست في ساحة وبدا السوسان من حينه فيها على عجلِ

أبدت ثلاثا من السوسان ماثلة أعناقهن من الإعياء والكسلِ

فبعض نوارها للبعض منفتح والبعض منغلق عنها في شغلِ

كأنها راحة ضمت أناملها من بعض ما ملأت من جودل الخضلِ
وأختها بسطت منها أناملها ترجو نداك كما عودتها فصلِ

ويقول أبي مروان الجزيري في وصف بنفسج العامرية:

شهدت لنوار البنفسج ألسن من لونه الأحرى ومن أيناعه
بمشابه الشعر الأثيث أعاره قمر الجبين الصلت نور شعاعه
ولربما جف النجيع من الطلى بصوارم المنصور يوم قراعه
فحكاه غير مخالف في لونه لا في روائحه وطيب طباعه

ويقول الرمادي عندما شاهد تفتح الورد مع مقدم فصل الربيع، مادحا الورد وأزهاره:

للأسن والسوسن والياسمين الغض والخيري فضل شديد
سادت به الروض ومن بينها وبين فضل الورد من بعيد

ويقول صاعد البغدادي وهو يفاضل بين نوعين من الزهور هما البهار والنرجس:

جمل الفضيلة يسبقه ولطالما خلف البهار النرجس
أربى فيه طيبه ونسيمه لكنه عن نشره يتنفس
كالحاجب الميمون شبه في العلى بأبيه لكن فعل هذا أنفس

وفى وصف سوسنة يقول الحاجب المصحفي:

يا رُب سوسنة قد بدت ألثمها وما لها غير طعم المسك من ريق

مصغرة الوسط مبيض جانبها كأنها عاشق في حجر معشوق

ويقول الحاجب المصحفي أيضا في وصف سفرجلة:

ومصفرة تختال في ثوب نرجس وتعبق عن مسك ذكي التنفسِ

لها ريح محبوب وقسوة قلبه ولون محب حلة السقم مكتسي

ويقول ابن الأبار القضاعي البلنسي، وهو أيضا من أهل بلنسية وإليها ينسب، يقول في وصف حديقة:

يا حبذا بحديقة دولاب سكنت إلى حركاته الألباب

غنى ولم يطرب وسقى وهو لم يشرب ومنه اللحن والأكواب

للعود محتد وملء ضلوعه لإغاثة الشجر اللهيف رباب

وكأنه مما ترنم ماجن وكأنه مما بكى أوّاب

وكأنه بنثاره ومداره فلك كواكبه لها أدناب

ويقول ابن سهل الأندلسي في وصف لحظة الغروب على الرياض:

انظر إلى لون الأصيل كأنه لا شك لون مودع لفراق

والشمس من شفق المغيب كأنها قد خمشت خدا من الإشفاق

لاقت بحمرتها الخليج فألقا خجل الصبا ومدامع العشاق

سقطت أوان غروبها محمرة كالكأس خرت من أنامل ساق

وفي لفته قدسية وهالة من سحر نعود إلى ابن خفاجة واصفا سقوط الثلج على الغصون، وكيف هام الربا واكتملت صورته، يقول ابن خفاجة في وصف سقوط الثلج في ليلة ممطرة على الأغصان:

ألا فضلت ديلها ليلة ليلة تجر الرباب فيها هيدبا
وقد برقع الثلج وجه الثرى والحف غصن النقى فاختبى
فشابت وراء قناع الظلام نواصي الغصون وهام الربى

وهب الله تعالى بلاد الأندلس جمالا لا يحد، وبيئة خصبة تجود بحدائق ممتدة الظلال، أخذت هذه الطبيعة بلب شعرائها، فكانت مفردات شعرهم تعكس هذه البيئة وامتلأ ديوان الشعر الأندلس بقاموس شديد الخصوصية تكثر فيه ألفاظ الاخضرار، والقصور والربا والرياض والزهراء والغمام والمطر وغيرها من مفردات جاءت ترجمة لتجربة شعرية حقيقية، تغنى شعراء الأندلس بجمال الطبيعة، وكانت للحدائق النصيب الأكبر في شعرهم، وصفوا الجداول، والنواعير، والقصور، وخصوا الزهور بقصائد منفردة، مدحوا السحاب، وتغنوا بالأمطار والثلج، حتى كأنما ونحن نطالع هذا الشعر نجول فى حديقة تموج بأطيب الثمار وأنداها.

المراجع:

1- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام، تحقيق إحسان عباس، الناشر: دار الثقافة، بيروت 1997.

2- المجتمع الأندلسي في العصر الأموي 138 ه- 422ه، تأليف د. حسين يوسف دويدار، مكتبة الحسين الإسلامية، القاهرة 1994.

3- المقتبس من أنباء أهل الأندلس، ابن حيان القرطبي، تحقيق د. محمود علي مكي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة 1994.

4- الموشحات الأندلسية د. محمد زكريا عناني، سلسلة عالم المعرفة، العدد31 يوليو 1980 المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

5- مع شعراء الأندلس والمتنبي: سير ودراسات تأليف اميليو غارسية غومث، ترجمة د. الطاهر أحمد مكي، الناشر: دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة السابعة 2004.

6- مقال، الشاعر الأندلسي الطليق، الكاتب: محمد قجة موقع الباحثون.

نشر هذا المقال في العدد 650 مجلة الوعى الإسلامي

من صور الإبداع في شعر محمد الفايز
من خلال ديوانه "بقايا الألواح".

محمد الفايز، علامة بارزة في مسيرة الشعر الكويتي المعاصر عبر دواوينه: مذكرات بحار، النور من الداخل، الشمس والطين، رسوم النغم المغامر، خرائط البرق، وبقايا الألواح، والمجموعة الشعرية الكاملة الصادرة عام 1986، استطاع أن يصوغ تجربته الشعرية الأصيلة من واقع البيئة الكويتية، بكل ما تحمله هذه البيئة من تفاصيل تحوي في طياتها تفاصيل الحياة اليومية، وتحمل مفردات كلماته مظاهر الحب للوطن وتغنيه للطبيعة والإنسان والبحر، قال عنه بدر شاكر السياب: "إنه من الشعراء الطليعيين الذي عرفتهم.."، ووصف تجربته الشاعر الراحل خالد سعود الزيد: "إنه ظاهرة جديدة في الشعر العربي الحديث.."

ولد محمد الفايز العلي عاد 1938، وتوفي عام 1991، في بداية حياته العملية عمل موظفا في وزارة الكهرباء، ثم موظفا في القسم الأدبي في الإذاعة الكويتية، ونحن هنا في إطلالة على عالمه الشعري عبر ديوانه "بقايا الألواح"، الذي صدر عام 1978، نستشف رؤى هذا العالم عبر قاموسه المليء بمفردات تفيض عذوبة خالصة، اختزلت في طياتها صور هذا العالم

وامتلأت ذاكرة الشاعر بأحاديث الرياح، والأعاصير، وأغاني الملاحين، وحكايا النواخذة، ومصائر "البوم" السفار، على الرغم مما تميز به شعر الفايز من رومانسية عذبة، وأيضا انطوائه على عالمه الخاص، وعلى ذاته المعذبة، الباحثة عن التحرر، وعزوفها عن التواصل وأثر هذه العزلة على حياة الشاعر وعلى صياغة تجربته الشعرية. يظل لشعر الفايز عوالم خاصة صنعتها رؤاه، عوالم تكثر فيها مفردات الطين، والأنهار، والمحاريب، والتراتيل، وهكذا يصوغ الشاعر تجربته عبر هذه الرؤية: المرأة والوطن، والبحر والسفر، ولكن، هل ظل الفايز يحاكي عالمه من هذا الجانب دون الإحساس بالواقع من حوله؟ والذي عاصر تجاربه عبر هذه الرؤية، ولعل ديوان "بقايا الألواح" صورة حية لتأثر الفايز بالواقع العربي، إحساسه الجارف بقوميته، وعشقه لهذا الوطن، على الرغم من أن قصائد الديوان تتمحور أساسا على الغزل، والحديث عن المرأة، وإن تعددت صور هذا الغزل، وقد آثر الشاعر أن تكون قصائده قصيرة، ولكن في قصرها اكتمالا للرؤيا، وتفسيرا للمشهد، ومثلما هام الفايز بالبيئة الكويتية وأحب فيها عاداتها وتقاليدها، أحب كذلك الأرض العربية، وتغنى بها في عديدٍ من قصائد هذا الديوان.

تطالعنا عبر السطور الأولى من الديوان قصيدته "وتمزق الإكليل يا لبنان"، الذي آثر الشاعر أن تكون صدر ديوانه تعبيرًا شعوريًّا حقيقيًّا لصدق تجربته الشعرية وتأثر الفايز الشديد بالواقع من حوله، وكأنه يهدي هذا الديوان

إلى هذا الوطن الذي بات تمزقه الصراعات وتهدد حاضره ومستقبله أيضا، في القصيدة يتلهف الفايز بحرقة وألم لما حدث في "لبنان"، هذا البلد الذي زاره الشاعر وأحبه كثيرا، أحب فيه تلاله وشواطئه ومرتفعات الأرز، واكتساء الجليد وقت الشتاء على هذه الجبال، أحب فيه أيضا أشجار التفاح العتيقة والكرز، أحب فيه "سلمى" الذي تردد ذكرها كثيرا، عندما يتحدث الشاعر عن لبنان، ولعل في ذكره سلمى هذا الحب الرمز الذي يراه الفايز ذكرا للبراءة والطهر متمثلا في سلمى، ولكن، لقد عمَّ الخراب حينما نشبت الحرب الأهلية هناك، وحينما غزاها المحتل في الجنوب، فتمزق الإكليل، وتحولت المروج الخضراء إلى سجون سحيقة، والحقول الغناء إلى يباب، والطيور ما عاد لها الغناء وسط هذا الخراب.

يقول الفايز وهو يرثي ذلك كله:

ألا لهفي على حقل لسلمى يفاجئه حريق في المساء
كأن طيوره والنار تسري بها شغل تطاير في الفضاء
ألا لهفي على تلك الدوالي كأن جذوعها أيدي الإماء
ألا لهفي على حارات ورد وزيتون وأعناب وماء
تقوست بها السطوح فأمست ظهورًا مثقلاتٍ من عياء
على الألوان يحجبها دخان كما اصفرت وجوه من حياء
كأن عواري الشجر المدمى نساء عاريات فى كساء

تطلعت السواقي عن خرير وأجمعت الطيور عن الغناء
وأفرغت الجداول من مياه كأعراق تلوح بلا دماء
لقد سطحت بوديان جبال كما ذابت شموع في إناء
ألا لهفي على الجبال المعنى فقد أمسى حزين الكبرياء
يهيم به المقيم عن هشيم ويقعده العناء على العناء
كأن مخابئ العشاق فيه محاريب حزينات الدعاء
ألا لهفي على نقش قديم بجدران شهيات البناء
على بيروت والليل المعنى على بيروت والليل المضاء

لعل في هذه الأبيات أدركنا تأثر الفايز الشديد بالأحداث التي شاهدها لبنان؛ فكانت هذه التجربة الصادقة للشاعر، ظل المكان في خيال الشاعر يحلم به ويتمناه، منذ زاره أول مرة وكان روحًا سحرية تعلق به الشاعر فطافت به هذه الأرجاء، وعلى الرغم من ذلك، فما زالت أطياف الذكرى تحيا في خلده يتذكرها من حين لآخر، يتذكر سلمى هناك والكروم والشواطئ، وها هي نفسه الشاعرة تهمس له:

كأنك تذكر الزمن القديما
وسلمى والشواطئ والكروما
"قصيدة آه عليك يا لبنان"

ولكن لقد ولى الزمان، وانجلت الصورة على واقع حاضر بالفعل، لا مجال لخيال الشاعر فيه، فقد شاهد الحقيقة كلها عندما رأى لبنان مرة أخرى، فما وجد مرح الشاطئ ولا سلمى هناك، ولا عصافير الدوالي المغردة لطيب اللقاء.. ليس سوى غبار الحروب...

يقول الفايز:

لعمرك إنه زمن تولى

حميدا تاركا فيك الهموما

لقد هربت عصافير الدوالي

مخلفة على الشاطئ الهشيما

فلا شجر الكروم ولا سُليمى

هناك ولن ترى ذاك النعيما

قصيدة "آه عليك يا لبنان ص61"

تظل لبنان تجربة شعورية صادقة وتجربة شعرية صبغت بألوان الحنين، ومفردات بها من القوة ما يجعلها تراهن على صدق الشاعر وتغنيه بهذا الوطن، ظلت لبنان في خيال الشاعر حبا عظيما وشوقا أبدا لا ينتهي..

فيا لبنان يا شوقا حزينا

نمارسه ويا حبا عظيما

قصيدة آه عليك يا لبنان ص62

ثم تأتي قصيدته الثانية في هذا الديوان التي كبتها عن بغداد، وهي قصيدة تُعبر كلماتها عن حب الشاعر لهذه المدينة التي تمثل له أيقونة المحبة الصادقة لمدينة لها في وجدان الشاعر المكانة الكبيرة، كلمات صاغها الفايز حبا وعشقا لبغداد؛ لتكون التجربة الشعرية المصاحبة لحالة الشاعر تجربة تأتي أساسا من عمق المكان، وعلى الرغم من قصر كلماتها، إلا أنها عبرت عن صدق تجربة الشاعر وقدرته على توظيف كلماته من قاموس بسيط لا يملكه سوى الشاعر.

يقول الفايز:

أبغداد إني قادم منكم لكم
كأني شوق راحل وهو واصل
إذا اختلفت أفكارنا أو تخالفت
فإن الدم الفوار لا شك عاقل
قبيلتنا الأولى التي في جسومنا
تسير بنا إن الدماء قبائل
وما هذه الأشياء إلا عناصر
يخالف بعض بعضها ويشاكل

"عن بغداد ص 19"

كما أحب الفايز بغداد فقد عشق أيضا "الفرات"، وصور هذا العشق بالدم القديم، كما في قصيدته الدم القديم، وفيها يحلم بالجلوس على شاطئ الفرات، ويشرب منه وينشق من جوانبه النسيم:

أحقا سوف ندخلها كروما

كأن ظلالها رسمت رسوما

أحقا سوف نشرب من فرات

وننشق من جوانبه نسيما

"الدم القديم ص85"

ومثلما تغنى الفايز بلبنان وبغداد، أخذه الحنين إلى مصر، فتذكرها وتمنى العودة إليها في تجربة شعرية أيضا عبرت كلماتها على صدقها. ومن جانب آخر عبرت على حب الشاعر لمظاهر الطبعية هناك، ففي قصيدته "المهابط الخضر"، بذكر الفايز حنينه إلى أرض الكنانة إلى ليلها بقرب ضفاف النيل إلى ظلال الكروم وأعشاش الطير والروابي الممتدة الخضار، تراءت للشاعر صورا فصاغها كلمات..

يقول الفايز:

من معيدي إلى الضفاف بمصر

عند ليل له غلائل فجر

وعيون كأنهن شعاعات....

تراءت ما بين زرق وخضر

ونديم له حذاقة عصفور

وكأس له زخارف ثغر

في ظلال من الكروم عليها

عش طير وتحتها ماء ونهر

يجثم الحس في مهابطها الخضر

ثقيلا ويرتقي كل فكر..

"المهابط الخضر ص91"

وهو يتذكر النيل ويتمنى العودة إليه، يرتشف من مائه العذب ويتنغنى مع أطياره المحلقات فوق ضفافه، يناجي الفايز النيل بكلمات تفوح منها رائحة الحنين، وصور صاغها تعبر عن مهارة الفايز في التصوير، واستقطاب الكلمات والأخيلة وروح الاستدعاء لموروث ديني حين طهر الأمنكه بذاتها.. الطور، أصوات المزامير. توظيف الفايز ومهارته في اختيار هذه الألفاذ معبرة عن حالة حنينه للعودة لزيارة مصر ورؤية النيل.

يقول الفايز:

يا نيل عادت عصافيري مشنجة

أعصابها وحزينات المناقير

إن كان ماؤك عذبا فالهوى عطش

والوجد هاجرة في قلب عصفور
هبطت جرفك حتى كاد يرفعني
إلى أعالي الهوى من جانب الطور
وكدت أسمع صوت الليل مرتطما
وكدت أسمع أصوات المزامير
وكدت أَلمَحُ صندوقا يضيىء به
طفل تهادى مع الأنسام والنور

وهكذا جاءت مفردات الفايز معبرة عن قاموس شعري في غاية العمق، في هذه الكلمات قدرة الفايز على ترجمة هذا الحنين لمصر كجغرافيا مكان تراءت له فجاءت القصيدة تعبر عن صدق هذه التجربة.. وأصالتها.

وبعد.. لقد ظل الفايز عبر مسيرته الشعرية يكتب الشعر، يتطلع من خلاله إلى الحرية، التحرر من القيود، والسفر عبر الذات، وما الحرية التي يطلبها الشاعر سوى رسالته إلى الإنسانية كي تحيا بسلام، راسما لنفسه عبر هذه المسيرة صورة سيزيف، ومرتديا قناعه أيضا، هذا الرمز الأسطوري الذي يرمز إلى المواصلة بلا يأس أو كلل، حتى وإن تجددت الخيبة، وتأكد انعدام التحقيق.. معلنا عشقه وولاءه العظيم لتراث الكويت وموروثه الشعبي في البحر والغوص والسفر.

لعلنا اكتشفنا بعض أسرار فن هذا الشاعر الذي لم يكن حضوره الإنساني يشي بحجم موهبته الشعرية، أو يصفح عن مكنون ثقافته وخبرته بالحياة والناس، وإنما كانت إنسانيته تتجلى على حقيقتها في شعره، وحضوره لا يشع إلا من خلال كلماته وإبداعاته.. على حد تعبير فاروق شوشة. تظل تجربة الفايز تجربة شعرية صادقة جاءت من الأسفار وتأمله لبيئته الكويتية، مرتبطة وجدانيا بالأرض والإنسان، متأثرا بالأحداث التي عاصرها، مما انعكس ذلك على ثراء تجربته واكتمالها.

يظل العالم الشعري للفايز بحاجة إلى دراسته، والاقتراب منه، والبحث عن جوانب أخرى من جوانب الإبداع في فن هذا الشاعر الرائع.

"نشر هذا المقال في مجلة الكويت العدد412 جمادى الأولى 1439- فبراير2018."

في قلب نجد والحجاز

رحلة مجهولة تعد من أهم الرحلات التي أرخت لحياة الملك عبد العزيز رحمه الله، وتحدثت عن حياته الخاصة وعن طقوسه اليومية وعن المجتمع السعودي وعاداته الاجتماعية خلال هذه الفترة من حكم الملك عبد العزيز، وإن كان هناك عديد من الرحالة الذين زاروا اللملكة، وسردوا رحلاتهم، إلا أن هذه الرحلة تعد صورة صادقة من واقع مشاهدة حقيقية عاصرها محمد شفيق أفندي وهو صحفي مصري.

قام شفيق أفندي بهذه الرحلة عام 1346-1927، وهي الفترة التي شهدت توحيد الحجاز ونجد في مملكة واحدة. تضمنت هذه الرحلة وصفًا لقريات الملح شمال المملكة، وهي أول بلد يدخل في نفوذ الملك عبد العزيز فيتحدث عنها وعن أهلها وآثارها، وعن مشاهداته فيها، ثم يصل إلى الجوف، وهناك يقف موقف الرحالة والمؤرخ ويتحدث عن أخلاق أهلها ويصف حياتهم.

ثم يواصل الرحلة جنوبا حتى يصل إلى حائل بلاد أكرم العرب حاتم الطائي، ومن حائل يواصل السير حتى يصل بريدة، ثم عنيزة من مدن القصيم، ثم يواصل رحلته حتى يصل إلى الرياض عاصمة المملكة، ويلقى

جلالة الملك عبد العزيز، ويسجل في هذه المقابلة حديثا ملكيا هامّا، يعد وثيقة تكشف لنا جانبًا من شخصية الملك عبد العزيز رحمه الله، ثم بذكر المبايعة للملك عبد العزيز والمناداة به ملكا على البلاد، بعد أن كان سلطانا، ثم يتحدث عن مقابلته الملك سعود، ثم يسرد حياة الملك عبد العزيز اليومية ومجلسه الكبير في ديوان الحكم، ويتحدث عن حياة النجديين وأخلاقهم، ثم يرحل شفيق أفندي إلى مكة المكرمة، ويتحدث عنها واصفا شعائر الحج والعمرة، وغير ذلك، كانت كل هذه الرحلة من أولها إلى آخرها بداية من القاهرة انتهاءً بمكة المكرمة، كلها على الجمال؛ نتخيل مدى الصعوبة في المشقة والمتاعب التي وجدها شفيق أفندي طوال رحلته هذه، ولكن مع هذه المشقة وَجَدَ المتعة، وهي ما جعلت السفر متعة والترحال ضرورة.

في قريات الملح.

قريات الملح أول بلدة دخلت في نفوذ الملك عبد العزيز، وهي كما يصفها شفيق أفندي قرية صغيرة تقع على الحدود الفاصلة بين نجد وإمارة شرق الأردن، وعلى مسيرة يوم ونصف من حدود سوريا من ناحية جبل الدورز، يتحدث شفيق أفندي عنها واصفا أهلها وطبيعتها ونظام الحكم فيها، الذي يقول عنها إنه يحكمها أمير نجدي طبقا لأحكام الشرع الإسلامي، ويصف عدد سكانها الذي قدر بستمائة، يشتغلون بزراعة القمح، وتمر النخيل، وتربية

الإبل والماشية، واستخراج الملح الذي يجففونه في أحواض ويبيعونه للرحالة في قلب البادية، ويتحدث عن الضرائب، وهناك كما ذكر شفيق أفندي يسمونها الزكاة، وتحصل تارة نقدا بحساب سبعة مجيديات عن كل ستة إبل، وعن كل عشر ناقات مائة وأحد عشر قرشا مصريا ورأسان من الغنم من كل مائة رأس، ويشير شفيق أفندي إلى نواحي الاستقرار في هذه البلدة، واختفاء مظاهر السرقة والفاحشة، وعن كرم الحفاوة التي رآها من أمير قريات الملح، ذكر شفيق أفندي أن الأمير كان كريما معه؛ فقد استقبله على مصطبة كان يجلس عليها بجانبه سيفه وحوله عدد من أخصائه، وبعد شربه القهوة النجدية طلب الأمير من شفيق أفندي أن يظل في ضيافته أياما أخرى، ولكن شفيق أفندي اعتذر لرغبته في مواصلة السفر، وقبل سفره وبعد قضاء يوم دعاه الأمير لزيارة قبيلة "بني صخر"، وهي قبيلة تقع ضمن حكمه وفي معيته، وهي قبيلة كما يصفها شفيق أفندي تضرب الشعر في الخيام على مسافة خمسة عشر كيلومترا من قريات الملح، معروفة هذه القبيلة أيضا بشدة البأس وبكثرة الغزوات.

وقبل أن يغادر شفيق أفندي قريات الملح شاهد آثار قصر يسمونه "قصر الصعيدي"، ويرى شفيق أفندي أن تسمية القصر لا تعني نسبته إلى صعيد مصر، ولكن لأنه شيد على هضبة رملية ذات صخور سوداء كبيرة يحيط به سور، فإذا بلغ رأس هذه الهضبة انكشف أمامه باب من الخشب يؤدي إلى داخله، فيرى آثار مقصورات متعددة وقد اختلف الرواة في تاريخ تشييد هذا

القصر؛ فمنهم من يقول أن قبيلة بني صخر وبني عمومتهم من الدروز بنيا هذا القصر، ولكنهما اختلفا بعد ذلك فنزح أحدهما إلى جبل الدورز، فأصبح منهم درزيا وبقي الآخر في هذا القصر إلى أن مات؛ فاستولى عليه أمراء هذه البلاد وسكنوه مدة طويلة إلى أن عفت آثاره؛ فتهدمت أركانه وأصبحت أطلالا ولم يبقَ منها إلا الاسم. قبل أن نغادر قريات الملح نشير إلى وصف شفيق أفندي للقافلة التي أقلته إلى هذه البلدة عندما أبدى رغبته في السفر إليها، فهي قافلة مؤلفة من خمسة جمال، امتطى شفيق أفندي أحدها وكان ركاب الأربعة الأخرى بمثابة خدم خاص، وقد تصادف موعد انطلاق هذه القافلة التي تقل شقيق أفندي وجود قافلة كبرى قوامها خمسون جملا، ركابها يحملون شتى أنواع السلع والبضائع، آتون من أسواق الشام يريدون تصريفها في قلب نجد.

الجوف.

بعد قريات الملح، زار شفيق أفندي الجوف، وهي كما وصفها على مسيرة تسعة أيام على ظهور الإبل، يذكر شفيق أفندي طول الطريق الذي لم يصادف فيه سوى ثلاثة آبار، أخذ ومن معه حاجتهم من الماء، ويتعجب شفيق أفندي من صبر الإبل وقوة تحملها العطش، وقد زال هذا الإعجاب عندما أخبره رفاقه الذين كانوا بصحبته أن تلك الإبل لم تطفئ ظمأها خلال هذه التسعة

أيام إلا مرة واحدة، وأبلغوه أيضا أنها تستطيع أن تظل بلا ماء في فصل الشتاء أكثر من خمسة عشر يوما، ويشير شفيق أفندي في إشارة طيبة إلى لطف رفاقه لأنهم في أثناء أداء الصلاة كانوا يراعون واجب المجاملة باعتباره مصريا؛ فيبتهلون إلى الله بالدعاء لمصر وأهلها، فكانت هذه المجاملة كما ذكر شفيق أفندي تسري عنه وتخفف وعثاء السفر، وتقرب رفاقه إلى قلبه وتشعره بعظمة الرابطة الإسلامية.

ومن طرائف ما رأى ويذكرها شفيق أفندي وهو لا يزال في الجوف، أنه مر على بقعة تدعى "حظوظة"، تقع على سفح تل رملي في وسط الصحراء، ذات تربة طينية لزجة لا يستطيع الإنسان السير عليها، ولا يمكن أن تقربها أقدام الإبل، يقول عنها العرب إنها كانت مكان قوم لوط الذي غضب الله على أهلها كما جاء في القرآن الكريم، ويقولون إن بطن هذه البقعة تحوي كنوزا من الذهب وغيره من النفائس، ويذكر شفيق أفندي مع عظم هذه الكنوز في هذا المكان، إلا أنها لم تغرِ أفقر أعرابي في الوصول إليها أو التطلع إلى ما يحويه جوفها من كنوز باعتبار أن أرضها نجسه وقد غضب الله عليها، وعلى كل من كان يعيش على أديمها في غابر الزمان، ويرى شفيق أفندي أنها نفسية تدل على تدين شديد واستمساك متين بأوامر الله ونواهيه.

في اليوم الثامن من وجودة في الجوف، وصل شفيق أفندي إلى مكان يسمونه الفرجية، يحيط به عدة جبال وقد كساها البرد وأحاطت بها الحشائش الخضراء، فبانت للناظرين كابدع ما تراه العيون فى سويسرا يضاف إلى جلال المكان جمال الصحراء وسكونها الرهيب، وجلالها الخاطف للألباب، وقد استأنس شفيق أفندي ومن معه هذا المكان بعد مرور ثمانية أيام في السير في طرق موحشة وصحراء جرداء. وعندما وصلوا بلدة "الجوف" وعلم أميرها الأمير عبد الله محمد بن عقيل بقدومهم، حتى سارع إلى لقائهم، وكان الأمير على أبواب المدينة في انتظارهم ليحيهم ويدعوهم لضيافته باسم جلالة الملك عبد العزيز.

يصف شفيق أفندي بلدة الجوف التي يذكر عنها أنها بلدة صغيرة تقع في وادي منخفض تحوطها الجبال من جميع جهاتها، وقد اشتق اسمها من مكانها ووجودها في جوف الجبال، ويذكر شفيق أفندي ما تجود به هذه البلدة من خيرات من كثرة التخيل الذي يصف شفيق أفندي تمره بلذة طعمه وسرعة هضمه، ويزرع أهلها أيضا كذلك القمح والشعير وبعض الخضر، وأشجار الفاكهة كالليمون والبطيخ والخوخ والعنب والمشمش، ويشتغلون بالتجارة وبعض الصناعات كدبغ الجلد ونسج الصوف الذي تصنع منه العباءات المعروفة باسم "عبي الجوف"، وقد ذكر شفيق أفندي أن سمو الأمير سعود في أثناء زيارته إلى مصر عام 1345 قد جاء ببعضها. ويذكر أيضا شفيق أفندي

أن طير النعام منتشر في صحارى الجوف الذي يتخده الخاصة والعامة طعاما لهم، وكذلك تكثر الغزلان والحمار الوحشي ذو الخطوط، وقد قدم له أمير الجوف الأمير عبد الله لحم الغزال والنعام طعاما على مائدته، فلم يشتهه شفيق أفندي لعدم اعتياد تناوله.

وفي الجوف أيضا زار شفيق أفندي قصر الإمارة الذي يطلق عليه أيضا "قصر مارد"، وهو مشيد بالأحجار وله برج كبير، وهو أشبه بقلعة حربية كما يصفه شفيق أفندي ويصف أهل الجوف على الرغم من شدة فقرهم بحسن وفادة الغريب وإكرام الضيف. وصف شفيق أفندي قبل أن ينهي زيارته للجوف أميرها الذي أحسن ضيافته أنه على جانب من العلم والاطلاع وبلاده تحكم طبقا لأحكام الشرع، وقد تعجب شفيق أفندي أن جريمة الزنا والسرقة معدومتين في هذه البلاد، وقد ذكر وشاهد بنفسه في أثناء جلوسه في مجلس الإمارة أن جاء أحد سكان هذه البلدة يشكو إلى الأمير أن كيسا من البن ضاع منه على مسيرة أربعة أيام من "من الجوف"، وهو قادم من حائل، وحدث بعد يومين أن حضر رجل قد سلك هذا الطريق فسأله الأمير عما إذا كان وجد شيئا في الطريق في أثناء سفره؟ فقال إنه وجد كيسا من البن، فسأله الأمير ومن أين عرفت أن به بُنًّا؟ فأجابه بأنه جسه من الظاهر بعصاه ثم تركه مكانه، فما كان من الأمير إلا أن أمر بضربه خمسين عصا، وقد سأل شفيق أفندي الأمير لماذا

أنزلت هذا العقاب على الرجل وهو لم يسرق؟ فأجابه الأمير: كان عليه أن يرى الكيس ولا يلمسه حتى يأتيه صاحبه فيأخذه.

اشتسهد شفيق أفندي بهذه القصة على سبيل التدليل على أمانة أهل نجد، وبعدهم عن اقتراف السرقة مهما بلغ شأنها أن يرى أحدهم الذهب في الطريق فلا تمسه يده مهما كان فقيرا معدما.

حائل:

بعد الجوف شد شفيق أفندي رحاله إلى حائل، وعلى بعد أميال منها كان نائب الأمير عبد العزيز بن مساعد بن جلوي وهو ابن عم الملك عبد العزيز في استقبالهم، وقد رحب بهم باسم أميره وسار بهم حتى دخلوا حائل.

يصف شفيق أفندي حائل بأنها اسم على مسمى، فهي تقع بين بلاد نجد وبين ملحقاتها الشمالية، وتعد بالنسبة للبلاد التي مروا بها مدينة عامرة ذات شوارع فسيحة منظمة، وفيها سوق كبيرة تروج فيها تجارة الماشية والإبل وهي أقرب بلدان نجد إلى الحجاز، وهي أيضا محطة رحال للتجار القادمين من الشام والمسافرين إليها، وتروج فيها تجارة الأرز الذي يجلب إليها من الهند، وتزرع في جوارها مساحات كبيرة من الخضر والفاكهة ومع كثرة وجود النخيل، إلا أنه كما يصفه شفيق أفندي ثمره رديء غير مرغوب فيه إلا عند الطبقة الفقيرة جدا.

ويتعامل أهل حائل بعملة فرنسية يسمونها "الشوشى"، وهي قطعة فضية قيمتها أحد عشر قرشا تقريبا، أما أجزاؤها فتعرف بالبيشلى، وهي قطعة من عملة تركية، وهي المعروفة بالبيشلك، بخلاف أهل قريات الملح والجوف، فإنهم يتعاملون بالمجيدي التركي.

في اليوم التالي من وصول شفيق أفندي إلى حائل، دعاه الأمير عبد العزيز بن مساعد إلى قصر الإمارة، واستقبله استقبالا حسنا، وأنزله بمنزل خاص ورتب له خدمة خاصة، يصف شفيق أفندي الأمير عبد العزيز أنه معروف بالشدة إلى جانب كبير من رقة الشمائل ومكارم الأخلاق، وويصفه أيضا بالقوة والبطش إذا خالف أحد أحكام الشرع، أو أخلّ بالأمن العام، ويستخدم هذا الأمير كما يذكر شفيق أفندي في روحاته وغدواته وأسفاره سيارتين يؤتى لهما بما يلزمهما من وقود وأدوات من القدس وشرق الأردن، ويقوم بقيادتهما سائق سوري وآخر نجدي.

قبل أن يغادر شفيق أفندي حائل، دعاه أحد رجال القصر لمشاهدة سجن المدينة الذي استغرب شفيق أفندي حين وجده خاليا، وقد حسبه عامرا بالمحكوم عليهم، وجد شفيق أفندي السجن ولا يوجد فيه سوى حراسه، وقد عرف السر في خلو السجن من المسجونين، وهي الأحكام الشرعية السائدة في هذه البلدة، فهي خير وازع تقطع خط الرجعة دون الجرائم على أشكالها وضروبها.

يصف شفيق أفندي مناخ حائل بأنه مناخ معتدل، تجري فيها عين ماء عذبه شافية من العلل يسمونها "ماء السماح"، لا تقل أهميته كما يقول شفيق أفندي عن مياه "فيشي" العين المعدينة الشهيرة في فرنسا.

في بريدة:

بعد حائل شد شفيق أفندي رحاله إلى بريدة، وهي تقع على مسيرة ثمانية أيام في طريق سهلة، وفي بريدة مرورا على قرية "العدوة"، وهي قرية تحيط بها أراضٍ منزرعة بالغلال وجبال شاهقة الارتفاع ذات منظر ساحر، على يمينها أرض رملية يضرب لونها إلى وهج الذهب تؤلف منظرا يخطف الألباب، يذكر شفيق أفندي أنه مر على عدة قرى أخرى صادفها وهو قادم إلى بريدة، هذه القرى هي "الكهفة، والجوارة، ووثال والشقة"، ويذكر شفيق أفندي أن بالشقة يوجد جبل يستخرج منه الملح وهو يباع للأهالي بالمجان ولا يدفعون مقابل حصولهم على الملح ضريبة أو ثمنا. يصف شفيق أفندي بريدة بأنها تقع على سهل رملي ذات مبان متعددة كحائل تحيط بها المزارع وأشجار النخيل ويمتاز ثمرها بقصره، ويذكر شفيق أفندي أن الأهالي يجففونه ويطلقون عليه بعد تجفيفه "الييبس".

يرى شفيق أفندي أن بريدة عاصمة لسائر القرى التي تحيط بها، وهي كلها تابعة للقصيم، وأهم مدنها "عنيزة"، وهي التي سماها الشاعر أمين الريحاني عند زيارته لها "باريس نجد"، ويصف شفيق أفندي أهل القصيم أنهم أغنى أهل نجد جميعا، وأكثرهم تحضرا وأنشطهم حركة، وأعرفهم بأساليب التجارة، وقد رأى شفيق أفندي كثيرًا منهم في الشام ومصر يتبادلون المتاجر، فيجلبون إلى مصر الخيل والإبل والماشية والجلود والسمن، ويبتاعون الأقمشة وشتى أنواع المصنوعات والسلع، وقد تصل تجارة أحدهم إلى أسواق الهند، ومن طريف ما رأى شفيق أفندي في نجد أن الدخان هناك يسمونه "التتن"، ولاحظ بعضهم يدخن سرا، لأنه إذا عثر عليه عوقب صاحبه. ويذكر شفيق أفندي أن هذه الصفات الطيبة لأهل بريدة جعلت الملك عبد العزيز يختار من مفكريها ورجالها المتعلمين من يمثلون بلاده في الخارج، وذكر شفيق أفندي حضرة الشيخ فوزان ممثله في مصر والشيخ يس الرواف ممثله في سوريا

الرياض:

بعد "بريدة" التي مكثوا فيها ثلاثة أيام، شد شفيق أفندي رحاله إلى الرياض، ويذكر شفيق أفندي كيف وصلوا إلى الرياض عبر طريقين أحدهما طريق الوادي والآخر طريق المستوى، والطريق الثاني أقصر من الأول،

وحدث في أثناء الاستعداد للخروج من بريدة أن جاءهم خبر عودة الملك عبد العزيز من المدينة المنورة إلى عاصمة نجد للمرة الأولى بعد فتحه الحجاز، لذا اختاروا طريق المستوى حتى يصلوا سريعا ليشهدوا حفلات استقبال الملك عبد العزيز، يصف شفيق أفندي طريق هذا السفر بأنه طريق رملي ذو هضاب رملية، وعبر هذا الطريق وصلوا إلى قرية تدعى "أبو شيجر"، بعد مسير أربعة أيام، وهناك في هذه القرية علموا أن الملك عبد العزيز وصل فى موكب فخم مؤلف من ست وعشرين سيارة، ويذكر أيضا شفيق أفندي أن أهل القرى التي مروا عليها طوال الطريق إلى الرياض يأكلون الجراد وهم ينتظرون مواسمه كما ينتظر سكان مصر موسم السمان.

يذكر أيضا شفيق أفندي أنهم مروا على بلدة شجرة، وهي تقع وسط أقليم يسمى "الريس"، ومروا كذلك على بلدة تدعى "البرة"، ومنها وصلوا إلى الدرعية، بعد مرورهم على أطلال قرية "العبينة"، وهي القرية التي نشأ منها "مسيلمة الكذاب" الذي ادعى النبوة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم.

يصف شفيق أفندي مدينة الدرعية بأنها مدينة أثرية كانت عاصمة لنجد، وفيها نشأت أسرة آل سعود، ومنها ظهرت الدعوة الوهابية، وحولها دارت الحرب بين جنود إبراهيم باشا والي مصر وبين الوهابيين، ولا تزال آثار مدافعه بادية للأنظار في خرائب مدينة الدرعية القديمة.

في صباح اليوم الثامن، وصل شفيق أفندي إلى الرياض التي وصف مظاهر الفرحة وقد لبست زخرفها وانتشرت معالم الابتهاج تيمنا بوصول الملك عبد العزيز بعد فتحه الحجاز، وقد امتلأت بالوفود من أقصى أنحاء نجد للترحيب بمقدمه، وقد علم الملك عبد العزيز بمجيء شفيق أفندي ومن معه فأرسل مندوبا لاستقبالهم بباب المدينة، وسار بهم إلى قصر جلالته، ويصف شفيق أفندي عندما دخلوا على الملك أول مرة حفاوته بهم، وأظهر الملك عبد العزيز عطفه على رغبتهم في استطلاع أحوال شبه الجزيرة العربية، أمر الملك عبد العزيز بإعداد منزل خاص لإقامتهم، وطلب منهم أن يحظوا بمجلسه كلما أرادوا.

يصف شفيق أفندي "الرياض" بأنها تعد أكبر مدن نجد وأعظمها شأنا، باعتبار أنها عاصمة الديار النجدية ذات مبانٍ متعددة، بينها عدة عمارات كبيرة، ويحيط بالمدينة سور فخم له عدة أبواب كبيرة، وتحيط بالرياض كذلك المزارع وأشجار النخيل، وفي الرياض كما يصفها شفيق أفندي عدة مدارس دينية أشبه بالكتاتيب. ويذكر شفيق أفندي من عجائب ما رأى عند صلاة الفجر وبعد الانتهاء من الصلاة ينادي المؤذن بأسماء الذين اعتادوا الصلاة في المسجد، فإذا تخلف أحدهم دون عذر شرعي عوقب للمرة الأولى بمصادرة "كوفيته"، فإذا عاد عوقب بأخذ "عباءته"، إما إذا عاد للمرة الثالثة فيأمر به مجلس الشرع بالضرب والسجن عدة أيام.

ويذكر شفيق أفندي بعض عادات يوم الجمعة، أن يجلس الملك ونائبه في ردهة القصر الملكي ويستقبل المصلين، فيمر بهم الساقي بالشاي، ثم بالقهوة النجدية، ومن ثم يطوف بالحاضرين رجلان يحملان مبخرة يتضوع منها عبير المسك والعنبر، ويعدون هذا بعد صلاة الجماعة مسك الختام فيبتلون بطول العز والتأييد للملك.

يصف شفيق أفندي القصر الملكي بأنه مشيد على نمط عربي صرف، تقوم في وسطه أعمدة من الجبس الأبيض الناصع، ذات نقوش عربية تستوقف الأنظار لدقتها وجمالها، وهو يتألف من طابقين، الطابق الأول وفيه قاعة المائدة الخاصة بضيوف الملك وغرف أخرى خاصة بإطعام اللاجئين لساحته الملكية من فقراء البدو والسابلة، أما الطابق الأعلى ففيه عدة ردهات كبيرة وبهو، وقد خصص جناح للديوان الملكي يشمل مكتبة الملك الخاصة وديوان سمو الأمير سعود وغرف خاصة لسكن كبار موظفي القصر وطبيب الملك الخاص ويلاصق بناء القصر بناء كبير خاص لعائلة الملك عبد العزيز وحشمه وخدمه.

ولا يفوت شفيق أفندي أن يعطينا وصفا دقيقا للملك عبد العزيز، فيصفه بقوله طويل القامة، ممتلئ الجسم، نحاسي اللون براق العينين، سمح المحيا، يضع أمام عينيه نظارة، وتبدو عليه مخايل الذكاء المفرط وقوة الإرادة، وشدة العزم مع سماحة الخلق وإناة وتدبر في كل ما يخرج من فمه من الكلام، وهو يناهز الخمسين من عمره، وقد أصيب في إبهام يده اليسرى برصاصة في

أثناء الحرب فتركت أثرا ظاهرا فيه حتى الآن، ومن عادته إذا سار خفض رأسه نحو الأرض، ويلبس عباءة نجدية كثيرا ما يرفع جزءا منها تحت إبطه، لا يسرع في أثناء سيره، وهو محبوب من شعبه، ولا يتوجس خيفة شر من أحد فلا يهتم كثيرا بملازمة الحرس إياه.

الملك عبد العزيز وحديث شيق:

يذكر شفيق أفندي حديثه مع الملك عبد العزيز، ويصف هذا الحديث الذي يعد وثيقة حية تكشف لنا صورة من شخصية الملك عبد العزيز وبساطته، في بداية لقائه بالملك يقول شفيق أفندي إنه هنأه بسلامة وصوله، وأخذ الملك يسأله باهتمام عن سفره الطويل الشاق، فيبتسم الملك كلما قص عليه شفيق أفندي ما رآه طوال رحلته. وقد حدثه الملك ردا على سؤال شفيق أفندي عن الحكم وعن أحوال البلاد، فيقول الملك: "ليس عندنا سوى دين واحد ومذهب واحد، وجميع الناس يؤدون الصلاة وراء إمام واحد وهذا ما نشكر الله سبحانه وتعالى عليه. نعم، إن المذاهب أربعة، ولكننا نعتقد أن مذهب الإمام بن حنبل هو أقرب المذاهب للسنة النبوية السمحة، فلا نجد عندنا إلا ما يقوله المسلم لأخيه المسلم السلام عليكم، وهم مرتبطون جميعا بكلمة التوحيد، وعلى هذا الأساس يقوم ملكنا والحمد لله، ويضيف الملك عبد العزيز: "نحن لا نبغي الملك لذاته، فالملك لله الواحد القهار، فوالله وبالله،

لو أعطينا ممالك الأرض طرا وأحسسنا أن ببعضها شركا لبعدنا عنها بعد السماء عن الأرض، وليس يعنينا أن نقاتل الكفار، ولا نبغي إلا أن يهديهم الله سواء السبيل، فما داموا بعيدين عنا فليس ينالنا منهم شيء، ولا نحب أن نذهب إلى ديارهم، ولا أن نتشبه بهم حتى ولا نرتدي شيئا مما يلبسونه، إن المسلم الحقيقي هو الذي يتبع أصول دينه، ويرعى أمر الله، فمن شابه الكفار أو تشبه بهم فلا خير له في الدنيا ولا الحياة الآخرة". وسأله شفيق أفندي عن الأسباب التي دعته لقيام الحرب الحجازية، فأجابه الملك عبد العزيز أنه ما كان يريد الحرب، ولكن الشريف حسين هو الذي دعاه إلى قتاله بما ارتكبته عصابته من سوء معاملة حجاج بيت الله الحرام، ولقد صبر عليهم صبرا جميلا، وفوض أمره إلى الله تعالى، فلم يكفوا وزادوا في عدوانهم في قطع الطرق وترويع الآمنين، يقول الملك عبد العزيز: "تمادوا عتوا، وعمل رجالهم صلفا وإرهاقا مما لا قبل لنا على مزيد من الصبر عليه، فاضطررنا في نهاية الأمر إلى تسيير جيشنا إلى الحجاز، وكان يقيننا أننا نطهر أرض الحجاز من أهل البغي ونؤمن طريق الحجاج ونحمي أرواح المسلمين.. تلك، كما يقول شفيق أفندي، النفسية الدينية التي يدين بها الملك عبد العزيز، والتي ساعدت كما يرى شفيق أفندي في تمكين شرع الله في هذه البلاد، وحتى نقترب من شخصية الملك عبد العزيز، يصف لنا شفيق أفندي صورة لحياته اليومية؛ فقد اعتاد الملك أن ينهض قبل انبثاق الفجر دون أن يلزم أحدا من خاصيته بالنهوض في ذلك

الوقت، وبعد أن يتوضأ ويتلو ما تيسر من القرآن الكريم ويؤذن لصلاة الفجر، يقصد إلى مسجد القصر فيؤدي الصلاة، ومن ثم يعود إلى إيوانه فيتناول طعام الإفطار مع من يكون حاضرا من أبنائه وأفراد أسرته، حتى إذا فرغ من هذا انتقل إلى مكتبه الخاص فب ديوانه، فيأخذ مطالعة الرسائل واستعراض بعض الرسائل وبحثها وإبداء رأيه كتابة، ويظل كذلك حتى بعد شروق الشمس بساعة، ومن ثم ينتقل إلى إحدى قاعات الاستقبال حيث يستقبل بعض أخصائه ويرسل في طلب بعض من لهم شأن عنده، وبعد ذلك يستقبل بعد أصدقائه وبعض العامة ومما يذكره شفيق أفندي تواضع الملك عبد العزيز إن رأى أحدهم يخاطب مولاه الملك بقوله "يا عبد العزيز".

عند الضحى، ينتقل الملك عبد العزيز إلى قاعة تعرف باسم "المجلس الكبير"، حيث يجتمع فيها عادة أمراء الأسرة الرشيدية وآل عائض التي تحكم بلاد أبها، وكذلك بعض أعيان نجد وزعماء باديتها. يستعرض الملك معهم الشئون العامة، بينما هو يعلق على حديث نبوي إذ به يصل هذا التعليق بمسألة عامة أو بحادثة تاريخية، ويذكر شفيق أفندي أنه حضر هذا المجلس بدعوة من الملك، ولفت نظره خبر جاءت به إحدى الصحف السورية التي ذكرت أن السيد عبد الله بن عائض ترك مكة المكرمة، وأنه حشد جيشا يريد أن يحارب الملك، في حين السيد عائض كان بين الحاضرين في المجلس.

يقول شفيق أفندي فلما قرأت هذا ابتسمت وقلت لجلالته "وما آفة الأخبار إلا رواتها، فلا يصح يا صاحب الجلالة أن تكون كل الصحف سواسية فب هذا الباب" ويذكر شفيق أفندي أن الصحافة المصرية شديدة التدقيق في رواية الأخبار، وكذلك الشأن في كل صحيفة تحترم نفسها، ولا تبغي سوى تقرير الحقائق وإنارة أذهان الجمهور بها، ويواصل شفيق أفندي الحديث عن حياة الملك اليومية ويذكر بعد انتهاء هذا المجلس أن الملك يذهب إلى القصر الخاص الذي يقيم فيه والده الشيخ الإمام عبد الرحمن بن فيصل، ويصفه شفيق أفندي بأنه على الرغم من أنه تعدى التسعين من عمره، فهو على جانب من الذكاء وسرعة البديهة ورقة الجانب، فضلا عن حب أهل نجد له، ثم بعد زيارة والديه، ينتقل الملك بعد ذلك لزيارة كبرى شقيقاته الأميرة "نورة"، التي يجلها الملك ويضعها في مكان خاص من نفسه على عادة أهل نجد الذين يقدرون كبرى شقيقاتهم بأجلى مظاهر التوقير والإجلال.

ويذكر شفيق أفندي أن الملك بعد أداء فريضة العشاء يطوف بموظفي ديوانه ويستطلع ما لديهم من الأعمال وأحيانا عندما يرى الظروف مناسبة يستقل بعض أفراد حاشيته ويذهب للصيد والقنص في البادية.

يذكر أيضا شفيق أفندي وفي أثناء وجوده في الرياض، أنه شاهد حفل زواج الأميرة "سارة" ابنة الملك عبد العزيز على ابن عمها الأمير فيصل بن سعد، الذي يصف الحفل بأنه في غاية البساطة، فقد فُرشت ساحة القصر

بالبُسُط الفخمة، ومدت الموائد الشهية، وبعد أن تناول المدعوون ما لذّ وطاب، أمر الملك بنحر خمسمائة شاة وتوزيع لحومها على الفقراء والمحتاجين.

ويذكر شفيق أفندي أنه التقى بالأمير سعود في قصره الخاص الذي شكر له سمو الأمير كرم أهل مصر وحفاوتهم به عندما زار مصر والتقى بالملك فؤاد الأول.

وهكذا تنتهي زيارة شفيق أفندي الرياض الذي نقل لنا صورة حية لحياة الملك عبد العزيز، تحدث عنه وعن تواضعه وحبه لتطبيق شرع الله تعالى، وتحدث عن الرياض ووصفه تلك المدينة بالحديثة.

إلى أم القرى..

ترك شفيق أفندي الرياض، وتوجه إلى أم القرى مكة المكرمة، وكان من حسن حظه كما يقول أن رافقه في رحلته إلى أم القرى سعادة الطيب بك الهزازي، رئيس ديوان جلالة الملك عبد العزيز، قطع شفيق أفندي الرحلة من الرياض إلى مكة في ستة أيام على ظهور الإبل، وطول الطريق لم يشهد في طريقه أثرا لبلد سوى قرية تدعى "الشعرا"، وهي محط لرحال القوافل وتزويد رجالها بما يحتاجون إليه من مئونة وماء، ولهذا يذكر شفيق أفندي أن أسعار الحاجات فيها مرتفعة جدا.

وصل شفيق أفندي إلى مكة المكرمة، وقد صادف وصوله شهر رمضان، فوجد أكثر المتاجر والحوانيت مغلقة وحركة المارة في الشوارع خفيفة، وهي

حالة تختلف اختلافا كليا كما يرى شفيق أفندي عن سائر المدن الإسلامية الأخرى، والسبب في ذلك أن أهل مكة ينقطعون خلال شهر الصوم للعبادة والتقديس ونسيان متاع الدنيا ومشاغلها.

يصف شفيق أفندي مكة بأنها مدينة كبرى، أكثر مبانيها مشيدة بالأحجار، ذات وجهات بارزة بشكل "مشربيات"، بعضها على بعض على نمط عربي، وبعض آخر يشبه المباني المصرية القديمة، ويصف شفيق أفندي أسواق مكة بأنها كثيرة يجد فيها المسافر كل ما تشتهيه نفسه من الحاجات من ملبس ومأكل وكماليات، كما اشتهرت فيها أسواق الحرير الذي يجلب من الهند والعراق والشام، ويشير شفيق أفندي إلى أن سائر السلع والبضائع مرتفعة الأسعار بما فيها الفاكهة والخضروات مقارنة بأسعار اللحم والسمن الذي يتوافر بكثرة بأثمان رخيصة.

ويصف شفيق أفندي الحالة الصحية لأهل مكة بأنها ليست حسنة بسبب قدم المدينة وضيق شوارعها، وعدم تنسيقها وشدة حرها وعدم اعتناء الحكام السابقين بتوفير أسباب الصحة العامة، ويشير شفيق أفندي إلى أن الحكومة الحاضرة شرعت في عمل المرشحات للمياه وتوسيع الشوارع وإضاءتها.

ويشير شفيق أفندي إلى تعداد سكان مكة والقرى والمجاورة لها الذي وصل إلى مائة ألف نسمة، ويصف ملامحهم بأنهم طوال القامة يضرب لونهم

للسمرة مع نحافة غالبة في الأجسام، وعلى الرغم من ذلك فإنهم يتمتعون بصحة جيدة.

ويذكر شفيق أفندي أهمية الماء، وكيف أنه في موسم الحج يكثر استخدامه، فتقل مياه الآبار، ولاسيما في الطريق ما بين مكة وجبل عرفات، ويشير شفيق أفندي إلى أن مشكلة نقص مياه الآبار لفتت أنظار الملك عبد العزيز بعد فتحه الحجاز، فأمر ببناء أحواض تخزن فيها المياه بكثرة قبل تدفق سيول الحجاج، وبذلك يجدون حاجتهم منها بسهولة ويسر. ويشير شفيق أفندي إلى أن الماء العذب هناك يستخرج من عين تسير في قناة من الحجر تحت الأرض تسمى "عين زبيدة"، ويروى أن الملكة زبيدة زوجة هارون الرشيد هي التي قامت بإنشاء هذه القناة، فسهلت على أهل مكة سبيل الحصول على المياه العذبة، ولهذه العين عدة فتحات يزدحم عندها السقاة لأخذ حاجتهم منها، ومياه "بئر زمزم" الكائنة وسط الحرم الشريف يتناولها الناس على سبيل البركة.

ويشير شفيق أفندي إلى أن أهل مكة يعتمدون في معيشتهم على موسم الحج الذي يدوم حوالي ثلاثة شهور، فالمباني تؤجر سكنًا الحجاج، وهناك طائفة الصيارف ينتشرون في زمن الحج ويربحون أرباحا طائلة من تبادل أنواع العملة المختلفة التي يحملها الحجاج.

ويشير شفيق أفندي إلى طائفة وافدة من الأفارقة يسمونهم أهل مكة "التكارنة"، وهؤلاء ممن تضيق بهم سبل العيش فينزحون إلى جوار الحرم الشريف قصد العيش، مما يجود به أهل الخير، وقد شهد شفيق أفندي نفرا من هؤلاء التكارنة بحالة تأثر بها.

وفي أثناء وجود شفيق أفندي في مكة وافته الأنباء هناك بوضع مجلس الشورى الذي من شأنه العمل على نشر العلم ومحاربة الأمية وتقوية أسس المعاهد وأهمها "المعهد السعودي"، الذي تلقن فيه العلوم الدينية والعمرانية الراقية.

ويتحدث شفيق أفندي عن الأمير فيصل الذي جعله الملك عبد العزيز بمثابة النائب له في إدارة حكم الحجاز، وقد وصف شفيق أفندي الأمير فيصل بأنه أظهر، على الرغم من حداثة سنه، حكمة الشيوخ ولباقة الحكماء، فجمع القلوب حوله حتى إن ممثلي الدول الأجنبية الذين خالطوه بحكم مهامهم الرسمية، مما أيد حسن ظن هؤلاء وأولئك فيه، فنشر دعاية العرب بين أمم الغرب، وعاد يحمل إلى قومه وبلاده ثقة الأمم المتدينة بعد أن كان الاعتقاد السائد بينهم أن بلاد العرب يحكمها أناس بعيدون عن المدنية مجردون عن صفات التهذيب الإنساني.

ومن الظواهر التي كانت سائدة في أثناء موسم الحج، ويذكرها شفيق أفندي ظاهرة المطوفين واشتغال الحجاج، ولاسيما البسطاء منهم، فقد كان هؤلاء المطوفون يأخذون أموال هؤلاء البسطاء من الحجاج مستغلين عاطفتهم، فيلقنوهم أقوالا خرافية منافية للشرع والعقل معا، ويذكر شفيق أفندي أن هذه الظاهرة انتهت بفضل نظام الحكم الجديد، ووضع هؤلاء المطوفون تحت مراقبة شديدة، فإن أقل شكاة يرفعها أحد الحجاج ضد أحدهم تكون كافية لإبعاده عن حظيرة المطوفين.

ولا ينسى شفيق أفندي أن يتحدث عن مشكلة الأمن العام، تلك المشكلة التي كانت تؤرق حجاج بيت الله الحرام، فقد كان البدو من قبائل عتيبة وبني هذيل وحرب يستدينون الأموال من بعضهم على أن يقوموا بسدادها من أسلاب الحجاج، وما يغنمونه من أموالهم، الأمر الذي جعل الملك عبد العزيز يمد يد الإحسان إلى فقراء هؤلاء البدو، وبذلك أمنت القوافل التجارية على ما تحمله من بضائع وسلع مهما بلغت قيمتها، وأمن الحجاج كذلك على أرواحهم ومتاعهم، وكدليل على هذا الأمن يشير شفيق أفندي إلى أن رجال المحمل المصري سافروا وأثبت أمير الحج في تقريره لولاة الأمور أن عصابات البدو التي اعتادت غزو المحمل ورجاله لم يبقَ لها أثر في الحجاز.

جدة:

في جدة، انتهت رحلة شفيق أفندي الذي وصل إليها عقب مغادرة مكة، استغرق السفر من مكة إلى جدة ثلاث ساعات، وفي أثناء الطريق، مر على قرية تدعى "بحرة"، وهذه القرية هي نقطة تموين السيارات ومحط قوافل الحجاج الذين يستريحون فيها. يصف شفيق أفندي جدة بأنها أهم موانئ الحجاز على ساحل البحر الأحمر، وبسب مركزها الطبيعي يعتبر أهلها أغنى من أهل مكة، ومن سائر البلاد العربية في شبة الجزيرة، وذلك لاتصالها بالأسواق الخارجية ومرور البواخر القادمة من الهند ذاهبة إلى مصر وغيرها. ويذكر شفيق أفندي أن حاكم جدة يطلق عليه لقب "القائمقام" يعاونه رجال الشرطة.

ويصف شفيق أفندي طقس جدة بأنه لا يعد ألطف كثيرا منه عن داخلية البلاد مع كونه على ساحل البحر الأحمر فالحر هناك شديد، ولعل أبخرة البحر هي التي تفسد من جودة الهواء الخالص، فليس يغبط أهل جدة وجودهم على الشاطئ، اللهم سوى اغتباطهم بما يدخل عليهم من الأرباح وتيسير أسباب الرزق. وهنا تنتهي هذه الرحلة الرائعة التي أضاءت لنا صورة واقعية صادقة عن المجتمع السعودي، وسردت لنا بعض معالم هذا المجتمع.

تحدثت أيضا عن حياة الملك عبد العزيز تلك الحياة البسيطة التي نقلها لنا شفيق أفندي بأسلوبه البسيط، انتهت رحلة شفيق أفندي وهو يشير في نهايتها بقوله "انتهت رحلتنا وحسبنا أننا قدمنا للقراء لا نبغي سوى إيراد الحقائق من الوجهتين العمرانية والاجتماعية التي لم يسبق لسوانا معرفته والبحث فيه..."

يظل أدب الرحلة في التراث العربي الفضل الأول في معرفة أحوال البلاد ونقل صورة صادقة لهذه المجتمعات. وتبقى هذه الرحلة على بساطتها صورة صادقة لمن يريد أن يتعرف على أحوال اللملكة إبان هذا العهد.

المراجع:

في قلب نجد والحجاز، بقلم محمد شفيق أفندي مصطفى، حققه عبد الله بن سعد الرويشد 1404-1984

الناشر: رابطة الأدب الحديث بالقاهرة.

من المعارك الفاصلة في تاريخ الإسلام، معركة بلاط الشهداء.

من قبيل المصادفة أن يشهد التاريخ الإسلامي صورة أخرى لمعركة أخرى غير أحد، كانت أسباب هزيمة الجندي المسلم فيها الأسباب نفسها التي أدت إلى هزيمته في أحد؛ الحرص على الغنايم وجمعها. معركة يطلق عليها الغرب "معركة بواتييه"، ويسميها العرب "بلاط الشهداء"، تلك المعركة الفاصلة في تاريخ الإسلام التي لو قدر النصر فيها للمسلمين لكانت أوروبا كلها تنعم الآن بنور الإسلام، وتعيش في ظله، نتذكر هذه المعركة، نتذكر أحداثها، وإذا كان الغرب يعتبرها نقطة فاصلة في تاريخه، فقد اعتبرها المسلمون درسا جديدا استفادوا منه جيدا، ومنه انطلقوا حتى رفعوا راية الإسلام، فظلت عالية وضاءة تشهد على سماحة هذا الدين وعدله.. يقول كوستاف لوبون: "المسلمون لم يستكينوا للهزيمة في بواتيية، إنما استفاقوا واستردوا مواقعهم وتوغلوا من جديد في أوروبا.."

النجاح الكبير الذي حققه المسلمون في الأندلس أعطى الثقة والطموح للجندي المسلم، جعله أكثر إصرارا على مواصلة نشر الإسلام في ربوع أوروبا كلها، كان هذا الأمل الذي كثيرا ما حلم به القائد موسى بن نصير للانطلاق

نحو فرنسا، لتكون هي البوابة لنشر الإسلام في أوربا. توارث القادة المسلمون هذا الطموح، فبعد موسى هذا القائد العظيم الذي سيظل يتذكره الإسلام، ويتذكر بطولاته الخالدة، وستظل خططه العسكرية، وَسِعَةِ أُفقه دربا يسلكه من جاء من بعده من القادة المسلمين.

تولى الإمارة "السمح بن مالك الخولاني" في عهد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز الذي تولى الخلافة بعد وفاة ابن عمه سليمان بن عبد الملك سنة 100 ه 740م، استأنف السمح سياسة الفتح، وبدأ فعليا فتح فرنسا. كانت فرنسا في هذا العهد أقاليم مترامية، ومملكة شاسعة، عرفت في التاريخ الرومانى ب"غالة"، وبعد سقوط الدولة الرومانية أصبحت تابعة للقوط الغربيين، وأصبح الإقليم الذي يحده نهر اللوار شمالا إلى جبال "البرانس" جنوبا دوقية مستقلة تسمى "أكيتانيا" أو "أكوتين" إلى شرقي نهر الرون، أما شمال نهر اللوار حتى ألمانيا الحالية، فكانت مملكة تسمى مملكة "الفرنجة". وهكذا لم تكن فرنسا دولة واحدة؛ ومن هنا كان حلم فتحها يراود القادة المسلمين، ففتحها يعني تمكين راية الإسلام فيها، ونشر دعوته في أوروبا بأسرها، عبر السمح بن مالك جبال "البرانس" الشاهقة، ثم زحف على مقاطعتي سبتمانية وبرفانس، ثم أغار بعد ذلك على "أكيتانيا" وحاصر "تولوز"، ولم يستمر السمح في زحفه طويلا فقد استشهد في قتاله مع دوق أكيتانيا.

عنيسة بن سحيم.

بعد استشهاد "السمح بن مالك"، تولى حكم الأندلس قائد شجاع آخر هو "عنيسة بن سحيم"، وكان ذلك عام 102 ه، واصل عنيسة زحفه حتى وصل إلى حوض "الرون"، ثم توغل في إقليم "برغندية"، حتى بلغ مدينة "ليون" واستولى عليها، ثم تخطى بعد ذلك نهر اللوار، وعندما كان على مقربة من نهر "السن" استشهد عنيسة. كانت لهذه الانتصارات الرائعة للجيش المسلم بقيادة السمح بن مالك ثم عنيسة بن سحيم، النتيجة الإيجابية -كما يذكر- الدكتور علي حسني الخربوطلي- في إثارة الرعب في الدوقيات الجنوبية والوسطى. وقد وصف المؤرخ "رينو" قوة هذا الجيش المسلم الذي حقق هذه الانتصارات، وتولى هذا الزحف قائلا: "إنه بلغت حماسة العرب في تلك الغزوة أن بعض مؤرخيهم شبههم بريح صرصر، تقلع كل ما جاء أمامها، أو بسيف ماضٍ يقطع كل ما يصادفه."

كانت هذه الانتصارات كافية حتى تدرك مملكة الفرنجة أنهم بالفعل أمام عدو كبير، وقوة لا يستهان بها.

عبد الرحمن الغافقي، النقطة الفاصلة ودور أخير.

بتولي القائد عبد الرحمن الغافقي الذي تولى إمارة الجيش المسلم بعد استشهاد عنيسة بن سحيم، دخل فتح فرنسا دورا جديدا، وحاسما، فالغافقي

يعد من أبرز القواد الذين شهدتهم بلاد الأندلس، وقد قضى حياته مقاتلا صلبا في أراضي ما وراء جبال "البرانس"، الأمر الذي جعله أكثر معرفة وخبرة بتلك المناطق، عالما بتضاريسها، وأماكن الوعورة فيها، بدأ الغافقي ينظم صفوف جيشه؛ مصرا على إتمام الغاية وإكمال النصر. في صيف عام 733، بدأ زحفه، اخترق جبال البرانس من ممرات "رونشفالة"، وهناك طريق قديم يمر بين "بسبتمانية" وحوض الرون لم يسلكه، واتجه بجيشه إلى بردال "بوردو" ففتحها بعد معركة ضاربة، ثم تقدم بعد ذلك نحو اللوار، الأمر الذي جعله يقصد مدينة "تور" فيدخلها، ولهذه المدينة أهميتها ومكانتها عند الفرنجة؛ فهي تحتضن "ديرسان مارتن" المشهور بنفائسه الغالية، ظلت هذه المدينة محاصرة من قبل المسلمين، مما جعل دوق أكيتانيا يستنجد بأمير القصر في دولة الفرنجة "شارك مارتل"، وقد استجاب هذا الأمير لنداء الدوق، فقد رأى شارك مارتل فتح العرب لدوقية أكيتانيا خطرا يهدد كيان الفرنجة؛ إذ إن العرب دون شك سيتابعون فتوحهم حتى يقضوا على دولته.. وبذلك توحدت القوى الأوروبية لوقف الزحف المسلم، وكان لشارك مارتل قوته وصلابته حتى كان يُدعى لشدة دهائه "بالمطرقة مارتل"، لذا بذل جهدا كبيرا في جمع وحشد آلاف من الجند في معركة حاسمة يشتبك فيها مع المسلمين يكون هو المنتصر فيها، وقد وصف الدكتور الخربوطلي صفات هذه الجنود الكاسرة الذي جمعهم شارك مارتل قائلا: "كان معظم جيشه من البدو

الأجلاف الأشداء معظمهم شبه عراه، على الرغم من برودة الجو، وباقي الجند يرتدون جلود الذئاب، ويغطون رءوسهم بشعور ملبدة تتدلى فوق أكتافهم، وانضم إليهم كثير من المتبريرين مثل السويف والآلآن..".

لقد أراد شارك مارتل من جعل جنده بهذه الصورة المخيفة أن يقتل الروح المعنوية للجيش المسلم، وتقع في قلوبهم الخوف والمهابة من جند الفرنجة، أما الجيش المسلم فكان على عكس ما أراد "شارك مارتل" وعلى عكس الصورة التي رسمها، كانت عزائمه أشد، روحه تزخر بالحماسة والإيمان، وكان أيضا كثير العدد، وافر السلاح وعلى الرغم من كل هذا الثبات والتهيؤ النفسي لخوض هذه المعركة من قبل هذا الجيش المسلم، إلا أن هناك عوامل تقلل من فرص النصر؛ فوجود الجيش المسلم في فرنسا على مسافة بعيدة وطويلة جدا من مركز الدولة الإسلامية، ومقر الخلافة في دمشق، هذا الأمر الذي لا يستطيع الجيش المسلم أن تتهيء له فرصة الحصول على حاجته من الامتدادات والأسلحة، ويجعل خطر التموين طويلا جدا، وأمر آخر وجود روح العصبية بين الجند العربي والجند البربر من جهة، وبين العناصر العربية نفسها مما يضعف وحدة الجيش المسلم، كما أن هذا الجيش كان يصحب معه الغنائم الكثيرة الذي حازها في المعارك السابقة مما يقلل تحركاته..

وبدأت المعركة الفاصلة في هذا المكان الذي يقع شمال "بواتييه" في اتجاه تور في مكان يسميه العرب "بلاط الشهداء"، شعر الفريقان بأهمية المعركة،

واستمرت المناوشات عدة أيام، ثم اشتبك الجيشان في معركة حامية، وأبلى الجند المسلم بلاءً حسنًا، ولولا نقطة الضعف التي عرفها شارك مارتل وأراد استغلالها، وكان مارتل قد قاتل العرب مرارا، وعرف نقطة ضعف الجيش المسلم والتي تتمثل في الحفاظ على الغنائم والدفاع عنها، وقد كان من عادة العرب أن يحملوا غنائمهم معهم، فيحتفظون بها في مؤخرة الجيش مع حامية تحميها، أراد مارتل أن يشغل الجيش المسلم من ناحية الغنائم لعل ذلك يخل نظامهم في أثناء القتال، ولذلك قام بحركة التفاف سريعة مهاجما مؤخرة الجيش المسلم حيث الغنائم، وحدث ما قدره شارك مارتل؛ فقد اختل نظام الجيش، وتراجع الجند إلى المؤخرة لإنقاذ الغنائم، وأخلوا الميدان، لينقض شارك مارتل عليهم مستفيدا من إضراب صفوفهم، وباءت محاولات عبد الرحمن الغافقي في إعادة الترتيب إلى الجيش بالفشل، وسرعان ما أصابه سهم قاتل استشهد على أثره، تاركا جنوده في وضع لا يحسدون عليه، وانتهت المعركة بانسحاب الجيش المسلم بعد أن سجل في تاريخ أمتنا هزيمة قاسية، استفاد المسلمون من غيرها..

في تعقيبه على هذه المعركة، يقول الدكتور محمد علي الهرفي: "ومرة أخرى يكون التهافت على حطام الدنيا الزائف، ومتاعها الزائل، سببا مباشرا في وقوع الهزيمة في معركة جد مهمة. معركة كان انتصار المسلمين فيها سيقلب موازين العالم، ليرتب أوراقه من جديد، ولكن زينة الدنيا ومغرياتها تتدخل لتحد من

الطموح الغالي، وتعيد إلى الأذهان صدى "موقعة أحد"، التي خسرها المسلمون بسبب مماثل لما حدث في بواتييه..

انتهت المعركة، وظلت "بواتييه" في ميزان التاريخ ذكرى معركة يعتبرها المؤرخون الأوروبيون من المعارك الفاصلة في التاريخ الأوروبي. يقول المؤرخ (جيبون): "إن العرب لو تحقق لهم الانتصار في تلك المعركة؛ لانتشرت المساجد في باريس ولندن بدلا من الكاتدرائيات القائمة الآن، ولكان القرآن يتلى ويفسر في أكسفورد، وغيرها من المراكز العلمية.."

ويقول المؤرخ (جون دوانبورت) في كتابه عنصر السيادة في القرون الوسطى: "المرجح أن معركة بواتيية التي نشبت بين عبد الرحمن الغافقي وشارك مارتل، وسط فرنسا وانتهت بتقهقر العرب، كانت أعظم عامل على تقلص الحضارة العربية من الغرب، ولو انتصر العرب في هذه الموقعة لكانت أوروبا اليوم عبارة عن مقاطعة إسلامية بدون ريب.."

وبعد: ماذا خسرت أوروبا؟ وخسر الغرب بهزيمة الجيش المسلم في هذه المعركة؟

لقد خسروا كثيرًا.. خسروا مشاعل النور، وقيم السماحة، والعدل، والخير، وافتقدوا مواثيق الأمان التي حملها الإسلام وورثها هؤلاء الفاتحين. فحين كانت جيوش شارك مارتل التي تصدت لرد المسلمين في هذه المعركة، لم

يكونوا أصحاب البلاد، بل كانوا غزاة متوحشين، أغاروا عليها فتملوكها بحد السيف، ثم حكموا البلاد بعد ذلك بكل قوة وعنف حكما أجنبيا خالصا..

وما أصدق ما قاله الكاتب والمؤرخ البريطاني (لين بول) في وصف هذه الفتوحات للجيش المسلم في فرنسا والأندلس: "يجب ألا يجول ببال أحد أن العرب عاثوا في البلاد أو ضربوها بصنوف الإرهاق والظلم فِعل قطعان المتوحشين قبلهم، فتلك البلاد لم تحكم في عهد من عهودها بسماحة، وعدل، وحكمة، كما حكمت في عهد العرب الفاتحين.."

بعد "بواتييه"، انطلقت الجيوش الإسلامية وواصلت الفتوحات حتى ارتفعت كلمة الله عالية وضاءة، ولا يزال الإسلام أكثر الأديان انتشارا في هذه البقاع.

المراجع

1-العرب في أوروبا، الدكتور علي حسني الخربوطلي، سلسلة المكتبة الثقافية، العدد 143، 15 أكتوبر 1965، الدار المصرية للتأليف والترجمة – مصر.

2-الجهاد المقدس وشهر الأحداث الكبرى في حياة الأمة الإسلامية، الدكتور محمد علي الهرفي، دار الاعتصام، 1995 مصر.

نشر هذا المقال في مجلة "الوعي الإسلامي" العدد "639".

مشاهدات رلكة وانطباعاته عن الإسلام.

يعد الكتاب الألمان الأكثر إنصافا للعطاء الإسلامي والحضارة الإسلامية، ربما يرجع سبب ذلك أن الألمان لم يحتكوا احتكاكا عسكريا واستعماريا بالعالم الإسلامي، الأمر الذي جعلهم يبحثون في التاريخ الإسلامي دون نوايا استعمارية أو أهداف تنصرية، فتأثر بعضهم بشخصية الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وكتبوا عن سيرته العطرة بما في هذه السيرة من قيم التسامح، والعدل، والخير، وحب الآخرين، والبطولة والرحمة، وغيرها من الصفات التي وصف بها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم كما جاءت في سيرته واطلع عليها الأدباء الألمان؛ ومن وحي هذا الإعجاب كتبوا عن حياته، وتحدثوا عنها بإنصاف، إلى جانب ذلك خدموا التراث العربي خدمة عظيمة بكم من المخطوطات لأمهات كتب التراث، التي قاموا بجمعها من مختلف مكتبات أوروبا والعمل على تحقيقها ونشرها.

تأثر عديد من الأدباء الألمان الذين قرءوا الترجمة الألمانية لمعاني القرآن الكريم، وتأثروا أيضا بسيرة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم كـ "رايسكة" الذي عرف بأنه شهيد الأدب العربي، و"جوته" الذي كتب ديوانه "الديوان الشرقي للمؤلف الغربي"، تغنى فيه بالشرق الساحر وحضارته، وتظل كلمة

"جوته" الخالدة التي شرحت الجوهر الحقيقي لرسالة الإسلام التي يحملها الإسلام لكل الإنسانية، والتي تعني التسليم الخالص لله سبحانه وتعالى يقول جوته: "إذا كان الإسلام يعني التسليم لله، فنحن نحيا ونموت مسلمين.". ونموذج لهؤلاء الأدباء الألمان الذين أحبوا الإسلام، وتأثروا بالنبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

يأتي الشاعر "راينر ماريا رلكه"، واحد من أشهر الشعراء الألمان الذين تغنوا بمجد الإسلام وحضارة العرب. هذا الشاعر الحالم الذي غلب على شعريته روح الرومانسية والبساطة واشتشراف الرؤى، وكثرة تجواله وأسفاره وأماسيه، استطاع أن يرسم لنا صورة حية لواقع هو عايشه، هذه الصورة تتجلى في عمق تأثره بما شاهده من آثار إسلامية في كل البلدان التي زارها والتقى بأهلها وتأثر بالحياة البسيطة التي تراءت له؛ فصاغ ما شاهده من خلاله قصائده. ورسائله التي هي الأخرى قطعة أدبية معبرة عن تجربة صادقة عاشها الشاعر.

رأى "رلكه" الحياة الإسلامية وعاشها عن قرب، ورأى مظاهر هذه الحضارة وشواهدها العديدة الباقية من خلال رحلاته إلى المشرق العربي، والشمال الإفريقي، وإسبانيا.

وُلد رلكه في مدينة "براغ" عاصمة الدولة التشيكيوفلايكية سنة 1875، لأب عمل ضابطا في الجيش النمساوي، وقد شارك هذا الأب في حملة النمسا ضد إيطاليا سنة 1859، ثم اضطر لترك الجيش بسبب صحته والتحق بإدارة السكة الحديدية، أما أمه فهي ابنة تاجر كان مستشارا لإمبراطور النمسا، لكن الحياة الزوجية لم تستمر طويلا بينهما، فعاشا حالة انفصال دون طلاق، وكانت أمه هي صاحبة الفضل الأكبر في تربيته، فقد أنفقت عليه ورعته ودفعته إلى المطالعة. كما نمّت فيه أيضا مواهبه الفنية، بعد تعليمه الابتدائي التحق رلكه بالمدرسة الثانوية العسكرية بالقرب من مدينة فيينا عاصمة النمسا عام 1886، ثم انتقل منها إلى الكلية الحربية عام 1890، التي لم يمكث فيها سوى عام واحد، حيث لم يكن منسجما مع جو الانضباط والقسوة التي وجدها بين زملائه والمدرسين، وقد شبه ذلك الإطار "ببيت الموتى". في نهاية 1894، ظهرت له أول مجموعة شعرية كتبها وقد أعطى لها عنوان (الحياة والأغاني)، اهتم فيها رلكه بالقصائد القصيرة ذات الإيقاع الذي يقوم على المحسنات اللفظية. في أوائل سنة 1896، طبع مجلة أدبية اسمها "الشيكوريا البرية"، وهي مجلة صغيرة تقع في 66 صفحة، وقد وزعها مجانا على المستشفيات والنوادي المختلفة، ثم راح بعد ذلك يوزعها بالمجان أيضا على المارة، وقد قدم رلكه لهذه المجلة بكلمة قال فيها: "أنتم تنشرون مطبوعاتكم في طبعات رخيصة الأثمان، وبهذا تسهلون على الغني الشراء، لكنكم لا

تساعدون الفقير لأنه بالنسبة إليه كل شيء غالي الثمن، أنا أيضا فقير، لكن هذا الأمل يجعلني غنيًّا، إن "الشيكوريا البرية" ستظهر مرة أو مرتين في العام فاقطفوها ولتكن مصدر سروركم..".

مات "رلكه" عام 1927، ومن العجيب في سبب وفاته أن وخزه الأسل -شوك الورد- من خلال وردة اقتطفها في حديقة إحدى المصحات، حيث كان رلكه يزور أحد أقاربه المرضى، بسبب هذا الغصن جرح رلكه جرحا كان سببا لإصابته بلوكيما الدم.

اتجاه رلكه إلى الإسلام وتأثره به:

عاصر "رلكه" العشر السنوات الأخيرة من عمر المملكة الأوروبية، كان عليه أن يعيش تلك الفترة التي اقتلعت فيها جذور الإنسان من الإيمان، تحولات عديدة شاهدها "رلكه"، أثرت في حياته واتجاهه الفكري، من حياة مضطربة. متنقلة غير ثابتة، وروح لا تهدأ، تحاول أن تكشف سر هذه الحياة. فبدأ "رلكه" رحلة البحث عن طريق يهديه لإجابة شافية، يبصر بها الحقيقة، وفي ظل هذه الحقيقة تكون الإجابة لما يطرحه من تساؤلات. تأثر "بجوته" في كتاباته عن الشرق وعن نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم واطلاعه على ديوان جوته الديوان الشرقي للشاعر الغربي، الذي من خلاله فتن رلكه بسحر الشرق وحضارته وآدابه. ثم استمر في البحث عن جوهر الحياة. فقصد الكاتب الروسي "تولستوي"، والتقى به في مزرعته. حيث كان "تولستوي"

عاكفا هناك يعيش مع الفلاحين في زهد وعزلة، كان لقاء "رلكه" بهذا الكاتب العظيم الأثر الكبير على حياته واتجاهه لقراءة الآداب العربية، وتأثره بالحضارة الإسلامية ومجد الإسلام.

كان "رلكه" حينها يبلغ من العمر 24 عاما، وهناك في مزرعة "تولستوي"، رأى رلكه الفلاحين وتأثر بتدينهم الشديد، كما تأثر أيضا بزهد حياتهم وبساطة عيشهم، وقد وصف "تولستوي" هذه الحياة البسيطة لهؤلاء الفلاحين في كثيرٍ من أعماله القصصية، مثل قصته القصيرة "الحاج مراد" وغيرها من الأعمال الأدبية التي كتبها تولستوي من وحي حياة الفلاحين البسطاء، ظهرت هذه الحياة لرلكه وكأنها تجمع بين وحدانية الله وجمال الطبيعة.

رجع رلكه من هذه الرحلة التي التقى فيها بالكاتب العظيم "تولستوي" الذي تأثر هو أيضا بشخصية النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وعاش بمبادئ الإسلام، وتوظيف قيمه في عديدٍ من أعماله الأدبية. وقد كانت بينه وبين الإمام "محمد عبده" مراسلات عديدة، انقطعت بموت الإمام، فكان من الطبيعي تأثر رلكه بهذه الحياة التي عاشها تولستوي؛ الأمر الذي جعل رلكه ينظم رحلاته للشمال الإفريقي، وكان ذلك أيضا بتشجيع من زوجته التي سبقته إلى زيارة مصر. ووصفت له ما في هذه البلاد من سحر الحضارة وبساطة شعبها، فاستجاب "رلكه" لذلك؛ لِمَا في نفسه من ذكريات

وأخيله عن بلاد الإسلام، ولروحه الشاعرة الطواقة إلى استكشاف الجمال، فكانت زيارته الأولى إلى شمال إفريقيا في الفترة من عام 1910، وحتى عام 1913، في أثناء هذه الفترة زار رلكه تونس والجزائر والمغرب، ومصر، وفي هذه البلاد كان له أن يعيش الحياة الإسلامية كما وجدها هناك، ويرى الإسلام من خلال الواقع، توصّل "رلكه" إلى حقيقة هذا الدين العظيم، وجد الشاعر أن الإسلام كان قريبا من تفكيره، وخاصة عندما يتكلم عن قبول الحياة وقبول الموت كوحدة واحدة، عندما يتكلم عن هذا العالم الروحي يرى رلكه أن المسلمين يملكون هذه المعرفة معرفة وحدانية الله منذ زمن.

صور رلكه ذلك بقوله: "لقد جاء محمد كنهر من أم الجبل ينتهي إلى الإله الواحد.." إذن، هي وحدانية الخالق التي وجدها الشاعر في العقيدة الإسلامية التي تنزه الله سبحانه وتعالى عن الأضداد، وهذا ما بحث عنه الشاعر طويلا ووجده في الإسلام.

وفي رسالة أخرى كتبها "رلكه" بتاريخ 28\12\1921، وأعطى لها عنوان "حنين إلى الصلاة الإسلامية"، يشرح رلكه هذا التوجه الذي تبناه، وآمن به فكريا، وعن حقيقة الدين وروح الاعتقاد، يقول رلكه في هذه الرسالة: "إن مسألة الدين بسيطة جدا، والدين لا يحتاج إلى كثير من المعرفة أو إلى إحساس كبير، إنه لا يوحي، ولا استغناء عنه، إنه في الفضاء الكبير الواسع توجيه للقلب، فالعربي يتوجه في ساعات معينة نحو الشرق بكل خضوع

وخشوع، بل إنه هو الإحساس الباطني في الوجود الكائن بواسطته نلامس خاشعين خاضعين لروح الله..."

ويؤكد رلكه هذا المفهوم، وتلك الرؤيا التي يراها كشاعر يبصر ما في المدى وما في هذا العالم الواسع من آيات تؤكد وحدانية الله، وعظم خلقه. وفي رسالة أخرى كتبها رلكه في 13\11\1925 يقول: "لا يوجد مفهوم العالم الحاضر والعالم الآخر، بل الوحدانية الكبيرة التي تمثلها الملائكة، وملائكة الترانيم الحزينة لا علاقة لها بالسماء المسيحية، بل بصفات الإسلام.."

من وحي رحلته إلى الأندلس.

كان إعجاب رلكه بالإسلام، إعجاب الباحث عن الجمال وعن البعد الروحي في قيمه ومبادئه، ولى الشاعر قبلته إلى الأندلس، جنان الله على هذه الأرض، وشعاع الحضارة الإسلامية يخترق هذه القلاع، وتلك القصور تتراءى للشاعر صورا أصيلة تذكر فيها مجد الإسلام حاضرة بقوة. زار رلكه إسبانيا وتجول بمدنها "قرطبة، وطليطلة، وإشبيلية، ورندة"، وشاهد عظمة العمران وروعة الحضارة الإسلامية متمثلة في تراث العرب هناك..

مسجد قرطبة.

شاهد رلكه مسجد قرطبة، هذه الدرة الفريدة في عقد الأندلس، أخذ بخلده وتفكيره فأخذ يتأمل في أثناء التجوال بين أعمدة المسجد، عظمة البناء،

ودقة الصنع، وروح العمارة الإسلامية المتثلة في هذا الأثر الفريد، وقد أعجب به رلكه، فكان المسجد بمثابة بوابة الدخول إلى الإسلام، وقد أحزنه وجود تلك الكنائس بجواره، فكتب في إحدى رسائله واصفًا هذا الشعور الغريب الذي أحسّه عندما شاهد هذه الكنائس: "انظري إلى هذا المسجد –يقصد جامع قرطبة– أي بأس، أي عار في تركه هكذا ينحط وينهار وهذه الكنائس التي تتلوى داخله، يود المرء أن يجتثها بضربات من المنشط بوصفها عقد في شعر جميل.." . يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي تعقيبا على هذه الرسالة التي كتبها رلكه لزوجته واصفا لها شعوره الغريب وحزنه لمظاهر تشويه جمال المسجد من قبل الإسبان بوجود هذه الكنائس: "واحتجاج رلكه ها هنا على ما أصاب جامع قرطبة العظيم، الذي كان يعد من أروع التحف الفنية الضخمة في العالم كله على ما أصابه من تخريب وتشويه وانتهاك أثيم من جانب النصارى الإسبان منذ أن استولوا على قرطبة سنة 1226م، بقيادة فرديننند الثالث، حتى الوقت الذي زاره فيه رلكه في أوائل ديسمبر سنة 1912، نقول: إن هذا الاحتجاج الصارخ الصادق النبرة الصادر عن شعور بجلال الفن وعظمة الإسلام، لهو شهادة ينبغي أن يعتز بها كل مسلم."

لقد كان إعجاب رلكه بالفن الإسلامي متمثلا في مسجد قرطبة عظيمًا، كما يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي: "يود رلكه لو تخلص هذا المسجد من كل التشوهات التي صنعها رجال الدين النصارى الذي حولوه إلى كنيسة،

فقضا على جمال مخطوطة، وعظمة معماره، وصفاء تقاسيمه المعمارية، وجلال أساطينه.."

لقد كان لمسجد قرطبة في نفس رلكه المكانة البارزة، إنه بمثابة البوابة التي عرف من خلالها الإسلام، فهمَّ رلكه بدراسة الإسلام والاطلاع عليه، فقرأ القرآن الكريم في كل ما وصل إليه من ترجمات، وتعمق في قراءته، وأحس نحوه بسعادة حقيقية"

"إنني أقرأ القرآن وفي مواضع عديدة منه أجده يتكلم بصوت منه، أدخل أنا بكل قواي مثل الريح في الأروغن"، فحين أبدى رلكه إعجابه الشديد برسالة الإسلام، قدّر صاحب الرسالة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وصوره مثل "نهر يجري جبل من الأصول قد شق طريقا إلى الله الواحد الأحد.."

لقد رأى رلكه في النبي محمد صلى الله عليه وسلم الصفاء والنقاء الخالص والجمال الذي ينشده الشاعر من خلال تأمله، فصوره كنهر يشق طريقه من الينابيع الأصلية في الجبل، ويجري فيضه الثري حتى يصل إلى الله مباشرة كل صباح، وذلك في الصلوات اليومية.

زار "رلكه" تونس، والجزائر، والمغرب قبل الزيارة التي قام بها لإسبانيا عام 1912.

مدينة القيروان:

شاهد "رلكه" في تونس مدينة "القيروان" هذه المدينة العريقة التي بناها القائد الفاتح "عقبة بن نافع" عام 51ه، وأعجب بها رلكه، هذا الإعجاب الذي صوره في رسالة كتبها صور فيها انطباعه عن تلك المدينة الساحرة الحاملة لعبق التاريخ، وأطياف الماضي كما تراءت للشاعر. في رسالة مؤرخة من القيروان بتاريخ 21 من ديسمبر 1910، يكشف فيها رلكه عن جانب آخر من جوانب الإسلام، هذا الجانب هو جانب التصوف، والتقوى، والزهد، وقد وصف الدكتور عبد الرحمن بدوي مدينة القيروان عند زيارة رلكه لها قائلا: "أنشأها سيدي عقبة، وفيها مسجد جامع عظيم استخدمت في بنائه أعمدة كبيرة من آثار قرطاجة، والمدينة الساحلية الرومانية والفينقية تحمل سعفا من الخشب الأرز وقبابا بيضاء ولا يخيل بالمدينة سوى السهول والمقابر، لهذا بدت له كأنهم الموتى يحاصرونه..."

لقد شاهد رلكه في القيروان ما أثار في نفسه من خواطر عن الإسلام "إنه متأثر كل التأثر ببساطة الإسلام وحيويته.."

عقب زيارة رلكه لتونس والجزائر اتجه رلكه لزيارة "مصر"، زارها عام 1911، وهناك شاهد بعض آثارها، وتعايش مع أهلها، وما أجمل تصوير الدكتور عبد الرحمن بدوي لرحلة الشاعر رلكه إلى مصر عندما قال معبرا عن حال الشاعر في زيارته مصر وتجواله فيها: "ذهب إلى الينبوع الذي تنبثق منه

الأسرار، وانطلق إلى دنيا من النور الصافي في تعارض حاد مع الوسط الذي عاش فيه، وبحث عن إحساس جديد قادر على خلق قشعريرة في نفسٍ تخشى الجمود.."، هذه الكلمات جاءت وصفا لرحلة الشاعر إلى مصر، تلك الرحلة التي نالت الحظ الأوفر من رحلات رلكه الذي أمضى عمره راحلا، سعيا وراء ما هو أصيل، وبحثا عن الجمال الحقيقي في هذا العالم الفسيح. زار رلكه مصر بتحريض من زوجته للقيام بهذه الرحلة، ففد سبقته هي أولا وزارت مصر، فأعجبت بها وتحدثت عنها وأوحت له طيبة أهلها وبساطة ما رأتْ، وكشفت لزوجها الشاعر مفاتن هذه الأرض الحافلة بالأسرار، وسحر النيل في أثناء جريانه، تراءت للشاعر صورا وأخيلة استقرت في مخيلته حتى زار مصر في يناير من عام 1911، وفور وصوله إلى الإسكندرية مستقلا القطار إلى القاهرة، كتب إلى زوجة ناشر كتبه في رسالة مؤرخة في 4 يناير1911: "إنه يشعر أن عالم الشرق بدأ يتفتح له، وأنه لم ينخدع فيما توقعه عن الشرق..".

في العاشر من يناير من عام 1911، في الرحلة ذاتها زار رلكه الصعيد على ظهر باخرة أبحرت به من القاهرة، تراءت للشاعر المظاهر الطبيعية الخلابة، وجمال صنع الله من نخيل شامخ، وحدائق شاهدها الشاعر فأخذه التأمل في سحر هذه البلاد وروعتها، وبعد زيارته الصعيد ومشاهدته الآثار الفرعونية القديمة في الأقصر، ولقائه هناك بأهل الصعيد وما وجده من بشاشة وسمت وطيبة وبساطة، أخذه الإعجاب أكثر بتعاليم الإسلام التي أوصت

بعاملة الناس معاملة حسنة، مع إحساسهم بالأمان والتعايش. عاد رلكه إلى القاهرة ليشاهد آثارها ويلتقي بأهلها، ويكون صدق الانطباع مصاحبا له حتى عودته إلى أوروبا..

من خلال هذه الرحلات تعمق الشاعر في فهم الإسلام واقترب أكثر من ينابيعه الصافية، درس رلكه الإسلام وأحب فيه كل مظاهر الخير والجمال ودعوة الإسلام إلى التامل، وفرضية التفكير التي أمرنا به الله تعالى، وجاءت في كثير من آيات القرآن الكريم التي اطلع رلكه على بعض ترجمته، وقرأ السيرة النبوية ومن فيض إعجابه بصاحب الرسالة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، يكتب الشاعر قصيدته "رسالة محمد"، وقد نظمها رلكه في المدة من 22 أغسطس إلى 8 سبتمبر 1907، وهي إشارة أيضا لتأثر رلكه بالقرآن الكريم..

يقول رلكه، والقصيدة من ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي:

لما تبدى الملك الطاهر

ذو الملامح المعروفة والنور الباهر

تبدى رائعا له في خلوته – خلع

كل كبرياء وخيلاء، وتوسل

إلى "التاجر" وقد اضطرب

باطنه إثر أسفاره – توسل إليه أن يبقى

لم يكن قارئا – وهاهي ذي "كلمة"

كلمة عظيمة حتى على حكيم

لكن الملك وجهه بمهارة

إلى ما كان مسطورا في لوح

ولم ييأس، بل ظل

يردد دائما: اقرأ

فقرأ، حتى انحنى الملك

وأصبح ممن يعرفون كيف يقرءون

ويستمعون ويتمون الرسالة..

وهكذ كتب رلكه قصيدته، ولسنا ندري ماذا دفع رلكه إلى كتابة هذه القصيدة؟ أكان ذلك من أثر قراءة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم؟ أم كان محاكاة لجوته في "الديوان الشرقي للمؤلف الغربي"؟

ليس لدينا بيان عن الدوافع التي تحت تأثيرها نظم رلكه هذه القصيدة التي صاغ فيها مضمون سورة العلق؟ وهي تدل في كل حال على مدى تأثر رلكه بالإسلام، وحبه وتقديره للنبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وبالروح الإسلامية التي شاهدها في جميع الأمكنة التي زارها، تراءت للشاعر صورا أصيلة انطبعت في ذاكرته، فصاغها في قصائده ورسائله، وتغنى رلكه بالإسلام وحضارته على نحو قلما نجده عند الشعراء الأوروبين.

(نشر هذا المقال في العدد 720 مجلة العربي).

اليهود في عقل هؤلاء.

الدكتور عبدالوهاب المسيري يرحمه الله، صاحب أهم وأحدث مشروع موسوعي علمي حول المسألة اليهودية الشائكة (موسوعته الضخمة اليهود واليهودية والصهيونية التي صدرت عن دار الشروق في ثمانية مجلدات)، هذه الموسوعة التي تعد الأولى من نوعها، فقد كتبها مؤلف غير يهودي عن اليهود، وهي تحاول طرح رؤية عربية بديلة للظواهر اليهودية والصهيونية ووضع مصطلحات جديدة لوصف هذه الظواهر.

يأتي كتاب «اليهود في عقل هؤلاء» ليعمق الفهم حول المسألة اليهودية والكيان الصهيوني من خلال آراء مفكرين منصفين، وكتاب يهود وصهاينة تبنوا زرع هذا الكيان وعملوا على وجوده، والكتاب على الرغم من قلة صفحاته (130) صفحة من القطع الصغير، إلا أنه أحاط إلى حد كبير بمضمون الموضوع المطروح «المسألة اليهودية والكيان الصهيوني».

اليهود في عقل أدبائهم:

تناول كثير من الأدباء من أعضاء الجماعات اليهودية قضايا اليهود والمسألة اليهودية، وقد خص الدكتور المسيري الفصل الثاني من الكتاب بالحديث عن هؤلاء الأدباء الذين تعاملوا مع المسألة اليهودية، وقاموا برصدها

والتعبير عنها فيما كتبوه من أعمال. فعلى سبيل المثال تكلم عن الشاعر الألماني هايني، الذي تعامل مع المسألة اليهودية من جانب (فلسفي حلولي)، على أساس تأثر هايني بفلسفة «الحلولية» الذي تبناها «اسبينوزا»، فهو يرى أن اسبينوزا هو الراعي لها ومنشئها أيضا، ويتفق معه في إلغاء آية ثنائية، وفي الإصرار على المساواة الكاملة بين الطبيعة والتاريخ وبين المادة والروح، وعبر قصيدة «ألمانيا، قصة شتاء» والذي أورد الدكتور المسيري بعض أبياتها، تبرز نزعة هايني الحلولية الماشيحية، نسبة إلى الماشيح (المخلص اليهودي)، ونتيجة للأفكار السياسية وارتباطه بعض الوقت باللسان سيمونية التي أسماها هو (المسيحية الجديدة)، بدأت عداوة هايني للمسيحيين، حتى اليهودية نفسها، فقد كان يكرههم بعمق، واعتبر اليهودية قوة معادية للإنسانية؛ فهي «مصيبة وليست دينا» على حد قوله.

ويرى الدكتور المسيري أن محاولة فهم رؤية هايني وأشعاره في إطار يهودي لن تفيد كثيرًا ولذا سيكون الإطار الغربي هو الأجدى والأكثر تفسيرية.

تناقضات:

وعلى عكس هايني كان فرائز كافكا (1883م ـ 1924م) نموذجا فريدًا ونسيجًا وحده، فهو أوسع الكتاب اليهود وأشهرهم على الإطلاق، وهو صاحب معاناة، فقد كان طيلة حياته يعاني من الصداع النصفي والأرق، وتم تشخيص مرضه عام 1917 على أنه السل.

وتبرز القضية اليهودية في فكر كافكا وأدبه على اتجاهين، اتجاه يرى أن كافكا كان يهوديا بل صهيونيًّا حتى النخاع، والاتجاه الآخر يرى أنه كان غير مكترث بيهوديته، بل معاديًا للصهيونية. كما أن هناك تناقضا عميقاـ كما يرى الدكتور المسيري بين مذكرات كافكا من ناحية ورواياته من ناحية أخرى، ففي المذكرات اهتمام شديد بالموضوع اليهودي، على عكس رواياته التي يلتزم فيها الصمت حياله، ونجد أيضا في المذكرات إشارات واضحة إلى المدينة اليهودية القديمة، والجيتو والمشروع الاستيطاني الصهيوني.

ومع ذلك لا نعدم من يقدم قراءة لفكر كافكا وأدبه على أساس صهيونية كافكا، فقد أورد الدكتور المسيري في الفصل نفسه عرضًا لدراستين تناولتا بالفعل صهيونية كافكا، دراسة الكاتب العربي كاظم سعد الدين «حل رموز كافكا الصهيونية»، التي ذهب فيها أن كافكا أسقط رمز سور الصين على حدود الدولة المرتقبة، وأن سور الصين سيشكل للمرة الأولى في تاريخ العالم أساسًا راسخا لبرج بابل جديد، وأن بدو الشمال هم الشعب العربي، وأن

أبواب الهند هي أبواب فلسطين، وسيف الملك هو سيف داود، وأن أرض كنعان هي الأمل الوحيد! وعلى ضوء هذه الدراسة رأت الدكتورة بديعة أمين في كتابها «هل ينبغي إحراق كافكا»، وهو الكتاب الثاني الذي أرخ لصهيونية كافكا أن تفسيرات كاظم سعد الدين استنبطها من الكتب الدينية والتاريخية، ثم اعتبرها معادلات حسية للرمز الكافكاوي نسبة إلى كافكا- استنادًا إلى بعض العوامل الخارجة عن فكر كافكا.

هذا فيما يتصل بموقف كافكا من الصهيونية، ولكن ماذا عن المضمون اليهودي في أدبه، يذهب الدكتور المسيري إلى كون كافكا يهوديا مندمجا، لم يكن في البداية مدركًا للكتب الدينية اليهودية، أو كتابات المؤلفين اليهود، ولكن بالتدرج بدأ يهتم بالموضوع اليهودي وهو أمر كما يروي الدكتور المسيري طرحته عليه عناصر عدة، فقد كان الجيل الأول والثاني من اليهود المندمجين يشعر أنه فقد الجيتو والأمن الذي كان يشعر به داخله، بل ووجد نفسه في عالم معادٍ له، ولا شك أن حركات معاداة اليهود التي تصاعد نفوذها وازدادت شعبيتها عمقت هذا الأساس لدى كثير من المثقفين اليهود.

كما أن هجرة يهود اليدشية (أي يهود شرق أوروبا)، ساهمت في خلخلة وضع اليهود المندمجين، وهو الوضع الذي فرض على يهودي مندمج مثل هرتزل أن يبحث عن حل للمسألة اليهودية -أي مسألة يهود شرق أوروبا- وأن يصوغ الحل الصهيوني.

نرى في أدب كافكا وحياته أيضا إحساسه بالضياع الشامل، هذا الإحساس الذي صاحب كثيرا من يهود عصره وامتد ليشمل المثقفين الغربيين، هؤلاء الذين ابتعدوا عن عقيدتهم وعن مجتمعهم بسبب تصاعد معدلات العلمنة وبسبب تآكل المجتمع التقليدي، لقد اندفعوا نحو المجتمع الجديد، ولكنهم لم يجدوا فيه المعنى، ولم تحقق لهم الطمأنينة، بل إن أزمة اليهودية الحاخامية، لم تكن إلا جزءًا من أزمة العقيدة الدينية في الحضارة الغربية.

وإن كان الدكتور المسيري قد تناول بجانب هايني وكافكا كتابا يهودًا آخرين أمثال فيليب روث (1933م) وجيرزي كوز ينسكي (1933م ـ 1991م) واسحق بابل (1894م ـ 1941م)، فإن جوهر قضيتهم جميعا المسألة اليهودية وكيفية صياغتها والحديث عنها وعرضها بهذا العرض الذي يشكل في الأساس مضمونًا واحدًا هو الحل الصهيوني البديل.

حلول صهيونية:

واستعرض الدكتور المسيري آراء يهودٍ مثل جوردون وميخا بيرد يشفنسكي (1865ـ 1921)، وجوزيف برينر (1881م ـ 1921م)، كنموذج للحل الذي طرحته الصهيونية.

فعلى سبيل المثال كان جوردون من دعاة حركة التنوير الصهيونية، وهو شاعر أيضا، ونجد في شعره هذا الهاجس الذي راود أسلافه من قبل، والذي تمثل في تمرده ورفضه التراث الديني اليهودي، هذا الرفض الذي زرع بداخله

بذور الصهيونية.

وقد قسم النقاد أدب جوردون إلى مرحلتين أساسيتين، مرحلة رومانسية، وهي المرحلة التي قاد فيها حركة التنوير التي تهدف إلى إصلاح اليهود وتحويلهم إلى شعب منتج، ومرحلة واقعية وهي التي شكلت، كما يرى الدكتور المسيري، النقطة الحاسمة في حياة جوردون، فقد أخذت الموضوعات الصهيونية تظهر على السطح في أدبه، من جانب آخر كان لتعثر حركة التحديث في روسيا عام 1881م، أثرها على جوردون، فقد نبذ فكرة الاندماج ولكنه أيضا لم يتبين فكرة هجرة اليهود ويرى أن تكون الهجرة إلى الولايات المتحدة، لا إلى فلسطين.

وإن كان جوردون قد قاد حركة التنوير الصهيونية، ونادى بضرورة إصلاحهم وتحويلهم إلى شعب منتج، فإن ميخا بيرد يشفسكي (1865م ـ 1921م) قد حاول عمل المستحيل، هذا المستحيل الذي يتمثل في مدى التوفيق بين التقاليد الحاخامية وحركة الاستنارة اليهودية، ويرى الدكتور المسيري في حديثه عن أدب جوزيف برينر (1881م ـ 1921م)، وقد حاول برينر أن يقدم الواقع من خلال واقع وجهة النظر العبرية، أن برينر كان يعبر بالفعل عن وجهة النظر الاستيطانية العالية بكل شراستها وتبلورها وتطرفها أيضا، ذاهبًا إلى أن اليهود، يهود العالم، كيان لابد من تصفيته، ومهمة اليهود الأساسية تكمن في الاعتراف بوضعهم منذ بدء التاريخ حتى يومنا!

اليهود في عقل جمال حمدان:

على أساس تعاملنا مع المسألة اليهودية ككيان فُرض علينا، كما أسلفنا المجتمع الغربي، وجدنا بالفعل من قام بالتعامل مع هذه الإشكالية، وقام بتشريح هذا الكيان تشريحًا كافيًا، وقد كان الراحل جمال حمدان نموذجا فريدًا تعامل بالفعل مع الكيان الصهيوني والمسألة اليهودية.

وقد خص الدكتور المسيري الفصل الرابع من الكتاب بالحديث عن جمال حمدان وكيف تعامل مع اليهود، فقد تعامل معهم ليس باعتبارهم رسل الحضارة والنورانيين (الشعب المختار في الرؤية الصهيونية)، ولا باعتبارهم شياطين ملاعين (قوة الشر الأزلية في الرؤية المادية لليهود)، فكلتا الرؤيتين، كما يرى الدكتور المسيري، تضعان اليهود في مجال خاص بهم، مقصورًا عليهم سمي الدراسات اليهودية، يرفض جمال حمدان هذا، ويضع اليهود في النقطة التي يتقاطع فيها الخاص مع العام والكل مع الجزء، فاليهود في فكر جمال حمدان هم بالدرجة الأولى جزء من أصول إسرائيلية وفلسطينية قديمة، ويرى جمال حمدان أيضا في رؤيته وتحليله لفكرة الاندماج، وعلى عكس ما يقال عن النزعة الجيتوية عند اليهود أن اليهود أكثر تعرضا للعلمانية إذا قورنوا بغيرهم من الأقليات الأميركية.

نشر هذا المقال في مجلة الوعي الإسلامي العدد. 532.

مسيرة الإسلام

تأليف: كارن أرمسترونج

الراهبة والكاتبة البريطانية المتخصصة في تاريخ الأديان "كارن أرمسترونج"، من أهم الكتاب المعاصرين المنصفين للعطاء الإسلامي وسيرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، في ظل الطرح الإعلامي الغربي الخاطئ لحقائق الإسلام، وتصويره كدين عنف يحرض على الكراهية والإرهاب وامتهان حقوق المرأة، تصل إلى المتلقي الغربي رسالة خاطئة عن حقيقة الإسلام وسيرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

والكاتبة كارن أرمسترونج منذ تركها حياة الأديرة واشتغالها بالبحث العلمي في مجال مقارنة الأديان، رسمت لنفسها خيطَ إظهار الحقيقة وتوثيقها توثيقا علميا منصفا. أصدرت كتابها الأول "محمد"، رسالة واضحة للغربيين أن كراهتهم وعدائهم لمحمد صلى الله عليه وسلم والإسلام والمسلمين ومرادفتهم لهم بالعنف والهمجية، والتخلف، والشهوانية، يناقض ما يدعيه الغرب من عقلانية، ومن تسامح فكري وعقائدي في الكتاب، تعرض الكاتبة حياة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، كما أوردتها كتب السيرة مؤكدة أن الإله الذي دعا إليه محمد لعبادته هو الإله الذي عبده إبراهيم، ودعا إليه موسى وعيسى.

أما عن هذا الكتاب "مسيرة الإسلام" الذي يعد توثيقا لمسيرة الإسلام، هذه المسيرة التي حملت للإنسانية كل معاني الخير، وأضاءت جوانب الدنيا المظلمة وانتشرت مشاعل النور، فأبصر العالم وانتشر السلام، وهذه هي جوهر رسالة الإسلام وجوهر هذه المسيرة.

ترجم هذا الكتاب الذي صدر حديثا، ويعد من أكثر الكتب مبيعا في الولايات المتحدة الأمريكية، كما يشير مترجم الكتاب الدكتور هشام الحناوي. ويعد الكتاب رسالة أخرى تؤكد على سماحة الإسلام وعدله منذ بزوغ فجر النبوة وحتى وقتنا الحاضر، جاء الكتاب في خمسة فصول إضافة إلى مقدمة تضمنت عرضًا تاريخيًّا مختصرًا لمجريات الأحداث التي مر بها الإسلام منذ فجر الرسالة وحتى عصرنا الحاضر.

البدايات:

تحدثت الكاتبة في الفصل الأول من الكتاب عن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، بداية من نزول الوحي عليه وتكليفه بالرسالة في رمضان عام 610، هذا الحدث الذي وصفته الكاتبة أنه غيّر تاريخ العالم، تحدثت أيضا عن إنسانية الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وتناولت وصفه وحبه للعزلة، ومن هذا الوصف قولها: "كان محمد بن عبد الله يحب أن يعتزل بنفسه في كهف بجبل حراء على مشارف مكة، وكان يصوم، ويتأمل ويحسن للفقراء.."

في هذا الفصل أيضا وصفت الكاتبة الحالة الاجتماعية للمجتمع المكي وقبيلة قريش الذي ينتمي إليها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وحاجة هذا المجتمع إلى نبي مرسل من عند الله تعالى. أشارت الباحثة إلى أن قبيلة قريش في ذلك الوقت قد حققت ثراءً من التجارة مع البلدان المجاورة، وأصبحت مكة مركزا تجاريا مزدهرا؛ لكن مع التكالب الشرس على الثروة، بدأت تضيع القيم القبلية القديمة، وبدلا من الاهتمام بضعفاء القبيلة، كما كانت تقضي الأعراف، أخذت قريش تستهين بالبطون والعشائر الفقيرة، وفي هذا الوقت كان قد بدأ يظهر في مكة وفي أنحاء متفرقة من الجزيرة العربية تَعَطُّشٌ روحاني. وتضيف الكاتبة أن القبائل في سائر الجزيرة العربية كانت تدور في دوائر طاحنة ودموية من القتل والثأر، وكان حكماء العرب يشعرون أنه شعب محروم من الحضارة، وأنه حتى الله في عزته لا يريد أن ينظر إليهم، لكن تغير كل ذلك في تلك الليلة، في السابع والعشرين من رمضان، استيقظ محمد صلى الله عليه وسلم، ليجد قوة هائلة تضمه وتعتصره إلى أن سمع الكلمات الأولى من الوحي الإلهي تتنزل عليه..

تناولت الكاتبة في هذا الفصل أيضا جوهر رسالة الإسلام التي وصفتها أنها وسطية، ليس فيها وصف فلسفي معقد للطبيعة الإلهية، لأن غالبية قريش كانوا يؤمنون بالعقل أن الله هو الذي خلق العالم، وتشير الكاتبة أن الإسلام لم

يأتِ ليؤسس عقيدة جديدة، بل جاء ليذكر الناس برسالة الوحدانية التي بعثها الله مع الأنبياء الأولين، ويهدي بها أمة العرب.

في الفصل أيضا ذكرت الكاتبة وقع نزول الوحي على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم حين يتنزل بالقرآن، ذاكرة قوله صلى الله عليه وسلم: "ما من مرة يُوحى إليّ إلا ظننت نفسي تقبض..". تذكر الكاتبة في الفترات الأولى أن تأثير الوحي كان شديدا لدرجة تجعل جسده كله يرتجف ويتعرق بغزارة حتى في الأيام الباردة، تذكر الكاتبة في هذا الفصل أيضا مدى تأثير القرآن على كثيرٍ من الناس، وكيف أن كثيرًا من المسلمين الأوائل دخلوا الإسلام بسبب حلاوة القرآن، الذي كما تقول الكاتبة كان يلامس شغاف قلوبهم ويطمئن أرواحهم القلقة، وترى الكاتبة أن اعتناق عمر الإسلام كان من أكثر هذه التحولات تأثرا؛ فقد ظل عمر متفانيا في الدفاع عن العقيدة الوثنية القديمة، وكان متحمسا في الهجوم على دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، وعزم النية على القضاء على هذا الدين الجديد، لكن أيضا كان متذوقا للشعر، وحين سمع القرآن بهرته بلاغته، وأخذت بلبه، يقول عمر: "فلما سمعت القرآن رق قلبي وبكيت ودخلت الإسلام.."

تذكر الكاتبة أن المسلم هو من يسلم حياته كلها لله والتسليم لأوامره، بأن يتعامل مع الناس فيما بينهم بالعدل والمساواة والتراحم. وتؤكد الكاتبة أن

هذه القيم يجدها المسلم في الصلاة التي أمر المسلمون يقوموا بأدائها خمس مرات في اليوم..

أرادت الكاتبة في هذا الفصل ذكر قيم الإسلام، وكيف تأسست دولته منذ هجرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وكيف قام المجتمع الإسلامي، وذكرت الكاتبة أن الهجرة هي بداية التاريخ الإسلامي، لأن وقتها بدأ الإسلام يصبح عاملا هاما في صناعة التاريخ الإنساني.

التطورات:

تناولت الكاتبة في هذا الفصل التطور الذي لحق بالإسلام ودولته والمسلمون بعد انتهاء عصر الخلافة الراشدة، والتغيرات الاجتماعية والمخاوف التي أوجدتها الفتنة عقب استشهاد الإمام عليّ كرم الله وجهه. أشارت الكاتبة أن أحداث الفتنة أقنعت بعض المسلمين ومنهم الخوارج أن الإسلام يعني أكثر من ذلك "السلطة والحكم"، وذلك على المستويين العام والشخصي. وأشارت أيضا أن أحداث الفتنة ساعدت في وجود حركات دينية وجماعات تدعو إلى التحكيم بفكر خاص بهم يفرضه واقع الحياة. وأفرغت تساؤلات طرحتها هذه الأحداث على المسلمين، هذه التساؤلات هي:

1- كيف لأمة قتلت أَئِمّتها أن ترى أن الله حافظها؟

2- ما صفات الرجل الأمثل لقيادة الأمة؟

3- هل يجب أن يكون الخليفة أتقى رجل في المسلمين (كما يطالب الخوارج)، أو يكون من أهل البيت (كما يطالب الشيعة)؟

4- هل عليهم قبول حكم الأمويين بكل أخطائه حفاظا على الاستقرار والأمن؟

5- ما مدى اتفاق الحكم الأموي مع مبادئ الإسلام؟

6- ما وضع غير المسلمين من غير العرب والذين أصبحوا موالي القبائل العربية؟ أليس ذلك عصبية وتمييزا نهى عنهما الإسلام؟

من هذه التساؤلات ظهرت كما تقول الكاتبة الأفكار التي استمرت حتى وقتنا الحاضر عن طبيعة التدين والالتزام في الإسلام.

الذروة:

بحلول القرن العاشر لم يعد ممكنا للعالم الإسلامي أن يدار كوحدة سياسية واحدة، ظل الخليفة الحاكم الأسمى للأمة، واحتفظ ببعض المهام الدينية الشكلية، لكن عمليا كانت مناطق الإمبراطورية تدار باستقلال عن بعضها بعضًا.

كانت مصر عاصمة للفاطميين الانفصاليين الذين كانوا يحكمون شمال إفريقيا وسوريا وفلسطين وجزءًا من الجزيرة العربية، وكان الأمراء من المماليك الأتراك يحكمون العراق وإيران بوسط آسيا، بعد أن استولوا على السلطة

وأسسوا دويلات تتنافس فيما بينها عسكريا، ظل هؤلاء المماليك يعترفون رمزيا بالخليفة العباسي قائدا أعلى للأمة، وترى الكاتبة أن هذه الأسر الحاكمة حققت بعض النجاحات واستطاعوا بالفعل أن يؤسسوا قاعدة إسلامية في شمال غرب الهند في أوائل القرن الحادي عشر، لكن -كما تقول الكاتبة- لم تستطع أيٌّ من هذه الأسر البقاء طويلا، فقد استولى الأتراك السلاجقة على السلطة في بغداد عام 1055، ورتبوا أمرهم مع الخليفة الذي اعترف بهم جندا له في سائر أنحاء دار الإسلام، ترى الكاتبة قبل انتصار هؤلاء السلجق كانت الدولة الإسلامية على وشك الانهيار؛ وكانت الأسر الحاكمة تسقط ويحل محلها غيرها، وكانت جبهات الحرب تتغير سريعا، حتى يظن من يؤرخ لهذه الفترة أن العالم الإسلامي بعد مرحلة من الازدهار قد آل إلى السقوط، ترى الكاتبة أن هذا الظن غير صحيحٍ، والحقيقة بعد الصدمة بدا نظام جديد يظهر في العالم الإسلامي، هذا النظام التي تعتبره الكاتبة الأقرب إلى روح الإسلام من النظام القديم، وعلى الرغم من هذه الاضطرابات السياسية، كان الإسلام ينتقل من ازدهار إلى ازدهار، وبدأت تنتشر المراكز الحضارية الإسلامية في كل الأمصار، تحولت القاهرة تحت الحكم الفاطمي إلى مركز حيوي للعمارة والفنون، وأنشا خليفتها الجامع الأزهر الذي تعتبره الكاتبة أهم جامعة إسلامية في العالم، وفي سمرقند ظهرت حركة لإحياء الأدب الفارسي القديم، وظهور الفيلسوف بن سينا، وفي قرطبة شهدت إحياءً ثقافيا على الرغم من زوال الخلافة الأموية في

الأندلس عام 1010، وتفتتها إلى دويلات مستقلة متناحرة، تشير الكاتبة إلى معالم النهضة في الأندلس وتميزها بالشعر، وتشير أيضا إلى الفيلسوف أبي الوليد بن رشد، والذي ترى الكاتبة أن فلسفته كانت ملهمة لمفكرين يهود ومسيحين من أمثال موسى بن ميمون وتوما الأكويني وألبرت الأكبر، وتذكر الكاتبة أن القرن التاسع عشر شهد تكريمًا خاص لابن رشد حين كرمه الفقيه اللغوي "أرنست رينان"، واعتبره روحا متحررة وفارسا للعقلانية في مواجهة القبول الجامد والأعمى للمعتقدات، تصف الكاتبة ابن رشد بأنه كان معلما ملتزما، وقاضيا يحكم بالشريعة. وتشير الكاتبة أيضا إلى الإمام أبي حامد الغزالي. التي أفاضت في الحديث عنه، وتناولت حياته وفكره، وترى أن كتابه "إحياء علوم الدين"، من أكثر النصوص الإسلامية اقتباسا بعد القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وترى الكاتبة أن الكتاب يقوم على فكرة اعتبرتها من أهم الأفكار التي ساعدت على تأصيل الفكر الإسلامي، وهي أن العبادات والصلوات وحدها هي التي يمكنها أن تمنح الإنسان معرفة مباشرة بالله، أما الفلسفة وعلم الكلام لا يمكنهما أن يجعلا القلب يطمئن بالإيمان، ترى الكاتبة أن الغزالي لم يكن ليكتب لرجال الدين، بل لكل مسلم ملتزم، وترى أيضا أنه كان يدرك أن الناس في ظروفهم الجديدة يحتاجون لحلول دينية مختلفة.

ترى الكاتبة أن هذا القرن شهد نهضة دينية في العالم الإسلامي، بعد ضعف سلطة الخلافة، وولد مجتمع مسلم حقيقي تعلم أن يتشرب الإيمان بعمق في كل أركان حياته. ذكرت أيضا الكاتبة في هذا الفصل الحروب الصليبية التي رأت أنها وصمة عار في التاريخ الغربي، وتعرضت لذكر المغول التي وصفتهم الكاتبة بأنهم القوة الرئيسة في قلب العالم الإسلامي، وعقيدة الحرب التي ظلت مرادفة لهم كقوة استعمارية تحلم بغزو العالم حتى مع اعتناقهم الإسلام، تسرد الكاتبة وضع المغول وتذكر صفاتهم وعقيدتهم، فكانوا يعتقدون بالمغولية التي جعلت الدولة تدار على أساس عسكري، فكان الملك هو القائد الأعلى للقوات المسلحة، وكان يقود الجيش بنفسه، ولم يترك قيادة الحملات لنوابه، وفي الفترات الأولى لم تكن لهم عاصمة؛ فقد كانت العاصمة تقع حيثما يعسكر القادة، وكان نظام الدولة يدار وكأنه جيش عملاق كما كانت الإدارة الحكومية تصاحب هذا الجيش، ترى الكاتبة أن النظام المغولي كان أبعد نظام عن مبادئ الإسلام في العدل والمساواة، وترى أيضا أن اقتحامهم للعالم الإسلامي كان صادما، فكانوا يخلفون وراءهم ركاما من المدن المحطمة، والمكتبات المحترقة، وكسادا اقتصاديا، وتشير الكاتبة إلى أن هذا الدمار الذي خلفه اجتياح المغول لديار المسلمين، وهذه الهزائم التي واجهها المسلمون على يد المغول دفعتهم إلى الاستبصار بالدين بشكل أقوى وأعمق..

هيمنة الإسلام:

في أثناء الفترة التاريخية (1500–1700)، أدى اكتشاف البارود إلى تطوير تقنيات عسكرية، وبدأ الحكام المسلمون في أوروبا ينشئون دولا مركزية، وملكيات مطلقة بها أجهزة حكومية أكثر تطورا. تأسست في أواخر القرن الخامس عشر وبدايات القرن السادس عشر ثلاث إمبواطوريات إسلامية كبرى: الإمبواطورية الصفوية في إيران، والإمبواطورية المغولية في الهند، والإمبوراطورية العثمانية في الأناضول وسوريا وشمال إفريقيا والجزيرة العربية، وإلى جانب هذه الإمبراطوريات ظهرت كيانات سياسية إسلامية هامة، تكونت دولة كبرى في أوزباكستنان على حوض نهر سيجون، ودولة أخرى ذات توجه شيعي في المغرب، وتذكر الكاتبة على الرغم من أن التجار المسلمين كانوا يجدون في هذا العصر منافسة من نظرائهم الصينيين واليابانيين والبوذيين في السيطرة على أرخبيل المالايا، إلا أن الغلبة كانت قد أصبحت للمسلمين في القرن السادس عشر.

تَصِفُ الكاتبة هذه الإمبراطوريات بأنها أسست حكما ملكيا مستبدا، كان هذا الحكم جزءا من الحياة العامة يدار بدقة ومنهجية وبمنظومة إدارية متقنة، وتطورت في تلك الأمبراطوريات إدارات حكومية منظمة، كانت كل هذه المؤسسات متأثرة بالفكرة المغولية عن الدولة والجيش؛ واستطاعت أن تدخل في منظومتها السياسية المدنيين؛ لذا اكتسبت هذه الأسر الحاكمة الدعم

الشعبي، وترى الكاتبة أن هناك جانبًا مهمًا تختلف فيه هذه الإمبراطوريات عن الدولة العباسية، فالخلفاء العباسيون وحاشيتهم لم يكونوا مؤسسات إسلامية، ولم تنطبق عليهم أحكام الشريعة؛ بل كان حُكما دنيويا بالأساس، أما الإمبراطوريات الجديدة، فكانت لها توجهات إسلامية قوية يرعاها الحكام أنفسهم. في إيران الصفوية أصبح التشيع الدين الرسمي للدولة، وسيطرت الفلسفة والصوفية على السياسات المغولية، بينما كانت الإمبراطورية العثمانية تدار بأكملها حسب إحكام الشريعة الإسلامية.

ترى الكاتبة على الرغم من انتشار الإسلام وذيوعه في كل البقاع في هذا العصر، ألا أن هذه الإمبراطوريات الثلاثة أدارت ظهرها عن قيم ومبادئ العدل والمساواة القرآنية. تعرض الكاتبة في هذا الفصل نشأة هذه الإمبراطوريات وأنظمتها السياسية ومدى تجاوز الشعوب منها، وعوامل بقائها والأسباب التي أدت إلى انهيارها. وفي نهاية هذا الفصل تشير إلى أن القرن الثامن عشر شهد زوال هذه الإمبراطوريات الإسلامية الثلاثة، وفي إشارة للكاتبة وشهادة عدل وإنصاف منها تذكر أن السبب وراء انهيار هذه الإمبراطوريات الإسلامية الثلاثة ليس لأن الإسلام قد زرع فيهم الخنوع والكسل، كما يحيب الغرب ويظن بغطرسة واغترار؛ لكن لأن الدول كان لها فترة حياة محدودة، وأن تلك الإمبراطوريات الثلاثة كانت آخر أفضل الثمار للمجتمعات الزراعية، لكنها قد وصلت إلى النهاية الطبيعية والمحتدمة، وتشير

الكاتبة إلى أن الغرب والعالم المسيحي قد شهد صعود إمبراطوريات وانهيارها في المجتمعات قبل الحديثة، وكذلك صعدت وسقطت إمبراطوريات إسلامية لكن -كما تقول الكاتبة- كان المسلمون يقومون في كل مرة من بين الأنقاض لتحقيق إنجازات أعلى وأكبر..

الصامدون المناصرون للإسلام:

في بداية الفصل الأخير من الكتاب، تذكر الكاتبة أسباب صعود الغرب، وترى أن تلك الدول التي ظلت في شمال الألب ينظر إليها على مر القرون على أنها منطقة متخلفة تتمسح في الثقافة الإغريقية والرومانية التي نشأت جنوب أوروبا، لكن بالتدريج سرعان ما طورت عقيدتها المسيحية الخاصة، وشكلها المميز من الثقافة الزراعية. وتأخرت أوروبا الغربية كثيرا عن الإمبراطورية المسيحية في بيزنطة. وبحلول القرنين الثاني عشر والثالث عشر، بدأت عملية تحول كبرى مكنت الغرب من الهيمنة على باقي دول العالم.

تعرض الكاتبة لنشأة الاستعمار وماهيته، ورغبة المستعمرين في الاستحواذ على ثروات هذه البلاد المستعمرة. وترى الكاتبة أن الغزو الأوروبي للعالم الإسلامي لم يكن على نمط موحد، بل كان شاملا ومنظما.

ترى الكاتبة أن اعتداء الغرب على أمة الإسلام أعاد لهم الاهتمام بالسياسة، وأحيا لديهم الالتزام الديني وشعورهم بواجب الجهاد لاستعادة كرامة الأمة ورسالتها.

وتشير الكاتبة أيضا منذ بزوغ شمس الإسلام الأولى ومنذ عهد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، والمسلمون يشعرون أنهم مكلفون (بالإصلاح)، وبتأسيس مجتمع يقوم على العدل والمساواة بين الناس، وترى الكاتبة أن المسلمين يشعرون بالتجلي الروحي حين يجدون أنهم يقتربون من تأسيس هذا المجتمع.

وأن الأمة الإسلامية عندما كانت تتعرض للانتكاسات والمآسي، كانوا يستجيبون بقفزات كبيرة في عقيدتهم، وترى الكاتبة أن المسلمين عندما حققوا نظاما سياسيا أقرب لروح القرآن بعد انتهاء الخلافة العباسية، لم يعد هناك قلق على سلامة الأمة، وشعروا بالحرية لتطوير مشاعرهم الدينية، ولكن -كما تشير الكاتبة- تَدَخُّل الغرب في حياتهم أدى إلى ظهور تساؤلات دينية كثيرة؛ فلم تكن الإهانة التي لحقت بالأمة مجرد كارثة سياسية، بل كانت صدمة روحية للمسلمين، وقد رأوا في ذلك علامة على أن مسيرة الإسلام قد انحرفت عن مسارها الصحيح وعن وعد القرآن للمجتمع المسلم الذي يطبق تعاليم الله تعالى، والخضوع له سبحانه، ويخلص نفسه لمشيئته لا يضل ولا يشقى، وتشير الكاتبة إلى أن التاريخ الإسلامي ثبت ذلك فكان كل مرة تحدث كارثة، كان المسلمون يلجئون إلى الدين يستخرجون منه الحلول لما يواجهوه من عقبات، ولم تكن النتيجة كما -تقول الكاتبة- تجاة الأمة فحسب، بل كانت تزدهر بإنجازات أعلى وأكبر.. وتتساءل الكاتبة في أثناء هذه التحولات كيف للعالم

الإسلامي أن ينقاد للغرب العلماني الذي لا يعرف ربًّا ولا دينا. وترى الكاتبة من هذا التساؤل أنه ظهرت أعداد متزايدة من المسلمين للإجابة على مثل هذه التساؤلات، ترى الكاتبة أن الهجمات الانتحارية ونشأة الإرهاب جاءت من هذا الفهم الخاطئ لقيم الإسلام ومبادئه، ومن جانب آخر، كما تقول الكاتبة، ظهرت الحركات الإسلامية التي تريد تفسيرا جديدا، واستنارة مسايرة للواقع فكان ظهور الإمام عبده (1849م – 1905م) كمفكر تراه الكاتبة يمثل هذه الاستنارة، تصف الكاتبة الإمام محمد عبده بأنه كان مفكرا عميقا ومتزنا؛ رأى أن التعليم وليس العنف هو الحل، وتحدثت أيضا عن الشاعر والفيلسوف محمد إقبال (1876– 1938)، وذكرت فلسفته التي ترى أن الإسلام دين عقلاني، بل أكثر عقلانية وتقدما على كل الأديان الكبرى، لأنه حرر البشر من الأساطير، وطلب القرآن من المسلمين أن يتفكروا في الطبيعة، وأن يستخلصوا المعرفة من ملاحظاتهم.

ومن مظاهر الإسلام، تطرقت الكاتبة في هذا الفصل أيضا إلى وضع الحجاب، الذي تذكر الكاتبة أن الإحصاءات تشير إلى نسبة عالية من المحجبات لهن آراء معاصرة ومتقدمة بشأن قضايا المرأة، وتشير الكاتبة إلى أن الفتيات الريفيات يأتين إلى الجامعة حالمات بالانخلاط في المجتمع الحديث، ولكن بشروطهن وفي إطارهن الإسلامي، هذا الإطار الذي يمنح لهذا التحديث معنى أخلاقيًّا ودينيًّا، ترى الكاتبة الحجاب رفضًا للجوانب السلبية

من التحديث، ورفضًا للهوس الغربي، وترى الكاتبة أن النساء الغربيات الآن يستعرضن أجسادهن كدليل على الحياة المشرقة، ويقاومن آثار التقدم في السن تمسكا بالحياة. على عكس ذلك ترى الكاتبة المرأة المسلمة بتغطيتها جسدها أن اهتمامها الأعلى هو الروح، وترى أيضا أن الزي الإسلامي يقارب بين الطبقات، ويؤكد الاهتمام بالحياة الاجتماعية على عكس النزعة الفردية السائدة في الغرب.

في الفصل نفسه، تذكر الكاتبة وضع الأقليات المسلمة، والتي كما ترى نتيجة لصعود الأصولية الإسلامية أدى إلى موجة من الفزع في البلدان الغربية، على الرغم من هذه البلدان، لم تشعر بهذا الخوف من قبل أي من الأصوليات في العقائد الأخرى، الأمر الذي كان له تأثير على تعامل الغربيين مع الأقليات المسلمة التي تعيش بينهم.

ترى الكاتبة أن وضع المسلمين في الولايات المتحدة أفضل؛ فالمسلمون هناك أعلى تعليما، ويشكلون قطاعا من الطبقة الوسطى، ويعملون أطباء ومعلمين جامعيين ومهندسين، بينما معظم المسلمين في أوروبا ينتمون لطبقة العمال، وترى الكاتبة أيضا أن أغلب المسلمين في الولايات المتحدة يشعرون بأنهم مقيمون باختيارهم، ويرغبون في الاندماج على هذه الأرض التي قامت على تذويب الاختلافات الثقافية أسهل من الاندماج في أوروبا..

في نهاية الكتاب، تدعو الكاتبة عبر رسالتها للغرب أن يكون في مصلحته أن يظل الإسلام قويا وعفيا، وإن كان الغرب قد لا يتحمل كل المسئولية عن ظهور الأشكال المتطرفة والعنيفة من الالتزام الإسلامي، هذه الأشكال التي تناقض جوهر التدين، إلا أنه -كما تقول الكاتبة- شارك في حدوثها واستمرارها، وعليه لكي يطفئ مشاعر الخوف التي هي الأساس لظهور كل هذه التيارات الأصولية أن يتعلم أن يُقَدِّر الإسلام تقديرا عميقا وحقيقيا على حد تعبير الكاتبة.

هذه هي مسيرة الإسلام كما عرضتها كارن أرمسترونج مسيرة منصفة وعطاء متجدد، وشهادة من كاتبة تبرز حقيقة هذا الدين الذي حمل للبشرية مشاعل النور، وأهدى الإنسانية كل قيم الخير والعدل والحرية في ظل صعود موجة الإرهاب وإسناد ذلك ظلمًا إلى الإسلام. تظل كارن أرمسترونج واحدة من هؤلاء المنصفين لعطاء الإسلام ومسيرته الخالدة.

نشر هذا المقال في مجلة الرافد العدد 240 أغسطس 2017.

التوحيدي "مأساة فيلسوف".

على الرغم من شهرته كفيلسوف وكاتب وصاحب عطاء فكري خالد، لكن لم يحظَ باهتمام كغيره من عباقرة الحضارة العربية. أبو حيان التوحيدي، المفكر والفليسوف، أُطلق عليه أديب الفلاسفة وفيسلوف الأدباء، ربما نظرته ونشأته أثرت بشكل كبير في مسيرته. ولد أبو حيان التوحيدي في بغداد، عام 310، وتوفي عام 414، عاش أغلب أيامه في بغداد، وإليها نسب.

جاء التوحيدي في عصر يصفه المؤرخون بأنه عصر ضعف من الناحية السياسية، فيه فسدت أحوال الدولة العباسية، ولم تعد لهم كلمة مسموعة، ولا قوة ولا كيان، فقد استولى البُوَيْهِيُّون على بغداد، وتمزقت البلاد إلى ممالك ودويلات صغيرة، وكثر القتل في الخلفاء. على الرغم من ذلك كله، فقد أبقت الأمة على قوتها المفكرة؛ فنشطت الحياة الأدبية والثقافية في ذلك العصر، وازدهرت أيما ازدهار، ونشأت في ظل الممالك المتخبطة المتناحرة زمرة صالحة من العلماء والأدباء بقوة التسلسل المنبعثة من القرن الثالث الهجري، كانوا أحرص الناس على العلم والمعرفة.

نشأ التوحيدي فقيرا في هذه الأجواء، معوزا يحتاج إلى كسب قوته، امتهن حرفة "الوراقة"، وهي ما تعرف بالنسخ في بغداد مدة طويلة، الأمر الذي أكسبه معرفة وزادا، كان له الأثر في مسيرته فيما بعد في أثناء انشغالة بمهنته،

استطاع أن يصنع ثورة معرفية أخذها من بطون الكتب التي اعتاد على نسخها، وأيضا من أفواه العلماء الذي جالسهم، فتعلم النحو وأخذه من أبي سعيد السيرافي، وعلي بن عيسى الروماني، وهما من أعلام هذا الزمان، كما أخذ الفقه الشافعي عن أبي حامد المَرْورُوذي، وقد تعلق به التوحيدي تعلقا شديدا، وقد ذكر في كتابه "البصائر والذخائر" هذا التعلق قائلا:

"لأنه أنبل من شاهدته في عمري، وكان بحرًا يتدفق حفظًا للسير، وقيامًا بالأخبار، واستنباطًا للمعاني، وثباتًا على الجدل، وصبرًا في الخصام.."

ودرس الحكمة والفلسفة والمنطق على أبي سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني، كما تتلمذ على كتب من لم يتمكن من رؤيتهم من العلماء، وعلى رأسهم أستاذه الجاحظ، الذي وجد فيه بغيته، يقول: «أنا اللهجُ -أيدك الله- بكلام أبي عثمان ولي فيه شركاء، من أفاضل الناس، فلا تنكر روايتي لكلامه، فإن فيه شفاءً وبه تأدب ومعرفة»[3].

ألّف التوحيدي عديدًا من المؤلفات، منها كتابه الإمتاع والمؤانسة، ورسالة في الكتابة، وهي خلاصة تجربته في حرفة الوراقة والنسخ، وأيضا رسالة الصداقة والصديق، ورسالته الهوامل والشوامل، يُنظر إلى فلسفة التوحيدي على أنها فلسفة تتعارض مع العقيدة، وكانت لكتبه في التصوف التي وضع فيها خلاصة أفكاره، مثل كتابه الإشارات، الذي صاغه ووضع فيه كمًّا من الغموض والرموز، حتى وصفه الفقهاء وبعض مورخي عصره بأنه الضال

الملحد كما وصفه الذهبي، ووصفه ابن بابي في "الفريدة والخريدة": "كان أبو حيان هذا كذَّابًا، قليل الدين والورع عن القذف والمجاهرة بالبهتان، تعرض لأمور جسام من القدح في الشريعة والقول بالتعطيل.. وكان رأي أبو الفرج بن الجوزى فيه الأكثر وصفا لحاله في بعده عن العقيدة، وموقف الفقهاء من فكره وفلسفته" يقول بن الجوزى: "زنادقة الإسلام ثلاثة: ابن الراوندي، وأبو حيان التوحيدي، وأبو العلاء المعري، وأشدهم على الإسلام: أبو حيان؛ لأنه صرَّح، وهو مجمج ولم يصرح."

ومن جانب آخر نجد هناك من ينصف التوحيدي وينظر إليه بأنه أديب له باع كبير في الأدب على قدر من التقوى والورع. كما وصفه الشيخ تاج الدين السبكي قائلا: "قال ابن النجار: له المصنفات الحسنة كـ "البصائر" وغيرها.

قال: وكان فقيرًا صابرًا متديِّنًا، قال: وكان صحيح العقيدة.

ويأتي حديث المعاصرين عن أدب التوحيدي وحياته وفلسفته أكثر قربا من هذا الثراء الفكري المصاحب لهذه الحالة التي عاشها هذا الأديب الفيلسوف، في مطلع حديثه عن رسالة الغربة التي تضمنها كتابه "الإشارات"، يتحدث الشاعر الراحل فاروق شوشة عن عالم التوحيدي، عن لغته التي هي أقرب ما تكون إلى روح العصر. وأنها استطاعت هذه اللغة أن تتخطى حاجز الزمان –منذ أكثر من ألف سنة– لتصل هذه اللغة إلينا حياة نابضة متدفقة. فيها من نَفس أبى حيان ومكابداته، وفيها من شعوره العميق

بالغربة والاغتراب، عن عصره وزمانه، وعن أهله ومعاصريه، وفيها تلك الجذوة الدائمة التي لا تنطفئ، لأنها سر الأسرار في إبداع أبي حيان، نجد في كتابه الفريد "الإشارات" ذروة هذا الفكر المحلق في فضاءات بعيدة، عندما يسكن التوحيدي هاجس الغربة وحس المناجاة ووهج الوجد والمكاشفة..

تأتي هذه الرسالة "رسالة الغربة" خلاصة فكر التوحيدي وغربته. وقد قام الأديب جمال الغيطاني بسرد مجمل أعماله في كتاب يحمل العنوان نفسه "خلاصة التوحيدي"، جمع فيه الغيطاني مختارات من نثر التوحيدي، صدر تزامنا مع احتفالية كبرى قام بها المجلس الأعلى للثقافة بمصر احتفالا بمرور ألف عام على ميلاد هذا الفيلسوف، وكان الاحتفال فرصة لتقريب المسافة بين التوحيدي وأهل هذا الزمان. قراءة وتأملا واكتشافا..

كانت حياة هذا الفلسيوف مأساة، بُعد الناس عنه وعدم اهتمام الحكام بحالته المادية غير مقدرين لعلمه وفلسفته، عاش فقيرا في عزلة، لا يتهم أحد بمصاحبته، وقد وصف التوحيدي حاله هذه في الرسالة التي أرسلها لصديقه أبي الوفاء المهندس قائلا فيها: "خلّصني، أيها الرجل، من التكفّف، أنقذني من لبس الفقر، أطلقني من قيد الضُّر، اشترني بالإحسان، اعتبدني بالشكر، اكفني مؤنة الغَداء والعَشاء. إلى متى الكُسَيرة اليابسة، والبُقَيْلة الذاوية، والقميص المرقَّع؟ إلى متى التأدّم بالخبز والزيتون؟ والله قد بُحّ الحَلْق، وتغيّر الخَلْق، اللهَ اللهَ في أمري! أيها الكريم، ارحم! والله ما يكفيني ما يصل إليّ في كل شهر من

هذا الرزق المقتَّر الذي يرجع بعد التقتير والتيسير إلى أربعين درهمًا، مع هذه المئونة الغليظة، والسفر الشاق، والأبواب المحبَّبة، والوجوه المقطّبة، والأيدي المسمَّرة، والنفوس الضيّقة، والأخلاق الدنيّة.."

هذه هي الحالة النفسية التي عاشها هذا الفلسيوف وهي الحالة التي وصلت به إلى أن يحرق كتبه ويتخلص منها، ظنا منه أنها لا تُقرأ، وكان رده القاسي على أحد أصدقائه بعدم حرقها قائلا: "وكيف أتركها لأناس جاورتُهم عشرين سنة فما صحّ لي من أحدهم وداد، ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ، ولقد اضطررتُ بينهم، بعد الشهرة والمعرفة، في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء، وإلى التكفّف الفاضح عند الخاصة والعامة، وإلى بيع الدين والمروءة، وإلى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق"

اختار التوحيدي طريق العزلة بعد اعتزال الناس له، ومثلت حالته النفسية، صورة حية لمأساة مفكر عاش بين قوم لا يقدرون فكره ولا يقتربون من معايشته اجتماعيا، فكانت نظرته للحياة نظرة ضبابية، فكانت كتبه تعبر عن هذا السلوك وتلك الحياة.

في كثير من كتبه يشير أبو حيان التوحيدي إلى أشخاص بعينهم قصدهم، وأهدى إليهم هذه الكتب، رغبة في الأنس بهم، وحبا في إعطائه المال تقديرا له واهتماما بعلمه.

كما يشير في كتابه "أخلاق الوزيرين"، عندما قام بتأليفه هذا الكتاب، إنما كان رغبة لشخص دفعه إلى ذلك، ولا يذكر التوحيدي صراحة هذا الشخص، إنما يكفي أنه قام بتأليف الكتاب نزولا لرغبة هذا الشخص، يقول التوحيدي: "لما تابعت إلى من كتاب إليّ كتاب تطالبني بجمعه بنسخ أشياء من حديث ابن عباد وابن العميد وغيرهما، مما أدركت في عصرى من هؤلاء.."، ومثلما تلقى التوحيدي من هذا الشخص رغبته في تأليف هذا الكتاب، يصرح التوحيدي أنه كتب كتابه "محاضرات العلماء" للوزير أبي القاسم الدلجي، ويذكر التوحيدي في مقدمته لكتابه "الإمتاع والمؤانسة" أن سبب تأليفه هذا الكتاب إنما كانت استجابة لرغبة أبداها صديقه أبو الوفا المهندس، وأشار التوحيدي أنه عقب الانتهاء من هذا الكتاب، سوف يقوم بإهدائه إلى أبي الوفاء كما جاء هذا التصريح في خاتمة الجزء الثاني، وهو لا يخفي أنه يتوقع نفعا ماديا من وراء ذلك، يقول التوحيدي: "وقد علمت الغرض في جمع هذا كله والتعب فيه، وأرجو ألا يخيب الأمل، ولا يبور العمل.."

ومن جانب آخر يشكو التوحيدي في كتابه "البصائر والمصائر" عدم الاهتمام بكتبه وعدم التقدير لفكره من جانب أصحاب المكارم، إذ يحدثنا في إحدى فقرات كتابه أنه يكتب الكتاب دون أن يجد من أبناء عصره رئيسا يرغب في مصاحبته، ويعينه على إتمام الكتاب "رغبة في الذكر وتوخيا للثواب."

في كثير من كتب التوحيدي نجد روح المناجاة، وكأنه يهرب من هذا الواقع الافتراضي إلى فضاءات بعيدة، يستشفها من عزلته، نجد شيوع فن المناجاة سائدا عنده، تارة للشكوى، وتارة أخرى يجد فيها مجالا للتحليق والطهر بعيدا عن رفقة الحكام وتخليهم عنه، نجد أيضا في هذا الفن –فن المناجاة– التماثل الأسلوبي الواضح في كتابه "الإشارات" مع غيره من كتبه، ونجد أيضا التطابق اللفظي في كثير من فقرات كتابه، هذا مع مؤلفاته الأخرى. إذا كانت الإشارات عبارة عن رسائل يرسلها التوحيدي يضع فيها حكمته ويخاطب فيها الوجدان، فإنها أيضا تموج بالصور التي تدل على قدرة التوحيدي على الدخول إلى أغوار النفس والتعبير عنها، قدرة التوحيدي على التصوير ومهارته اللغوية مع أساليبه، تأخذنا إلى آفاق بعيدة وتضع بين أيدينا مفتاحًا لعوالم يرسمها التوحيدي لنا، في رسالته إلى جماعة الصوفية يناديهم بملوك الدنيا وسادة الآخرة، يتذكر أيامه معهم، وخلوته بهم تلك الأيام الجميلة التي اسشتفى فيها التوحيدي أرواحًا يأنس بهم في لحظة بعد الناس عنهم، تلك الأيام الجميلة التي ذهبت، يتذكرها التوحيدي في هذه الرسالة، ويتحسر على مضيها، ويتشوق إليها، ويشكو سوء حاله وهو بعيد عنهم، مثل التراث الصوفي الأدبي عند التوحيدي الصورة الحقيقية لتهذيب النفس ميراثا يراه التوحيدي ويدافع عنه، وهو يشير إلى أن هذه التراث من المقولات الشفوية لكلام هؤلاء الأئمة وإعلامهم لزاد على عشرة آلاف ورقة في هذه

البقاع المتقاربة، سوى ما عند قوم آخرين، لا نسمع بهم، ولا يبلغنا خبرهم، ويذكر التوحيدي من هؤلاء، الجُنيد بن محمد الصوفي البغدادي العالم، والحارث بن أسد المحاسبي، وأبو سعيد الخراز، وعمرو بن عثمان المكي، وأبو يزيد البسطامي، والفتح الموصلي.

لا يخلو كتابه "الإشارات" من ذكر التوحيدي وشكواه لحاله وغربته، وهي تبدو شكوى دائمه، ليرى قارئ سيرته ودارس فكره أنهم بالفعل أمام شخصية ظلمت بالبعد ويقف أيضا القارئ لهذا الكتاب على جانب كبير من جوانب الحياة التي عاصرها هذا الفيلسوف. يسشتف أيضا روحًا تريد السمو إلى إلى آفاق ومدارك بعيدة، وترى في هذه المناجاة اشتكاف الروح ومعارج التوبة، والأنس بالأحباب والقرب منهم.

يقول التوحيدي في إحدى إشاراته، وهي تعبر عن هذا القرب بعيدا عن آراء المختلفين فيه، لحظة التوبة والتجلي في أسمى أوقاته وأصدقها حديثا، في تلك المناجاة العذبة يقول: "اللهم إنك جولتنا في آفاق ملكك، وأنطقتنا بلسان قدرتك، وأدرجتنا بضعفنا في قوتك، اللهم كم ملكتنا فارفق بنا"

روعة التخيل في "الإشارات" تقارب الوصف عند المحاسبي كما في كتابه التوهم، قدرته على التصوير اللظفي وإبعاد هذه الصور النصية، دليل على مهارة التوحيدي وقدرته الأدبية..

يظل التوحيدي على اختلاف آراء المؤرخين لعصره والدارسين لفكره وفلسفته، حالة إنسانية فريدة في التراث العربي والإسلامي. حالة المفكر والعزلة، حالة اليأس الشديدة، وحالة الإبداع في ظل كل هذه الظروف، حالة الفيلسوف الذي يرى الوجود من حوله، يستشف رؤى جديدة، يضعها مفتاحا لفهم العالم. يظل تراث التوحيدي وسيرته مجالا لدراسته وكشفا لجوانب عديدة في فكر وفسلسفة هذا الرجل، لو ابتعد عن محاكاة للوزراء والحكام وكانت ظروفه المعيشية أكثر رخاءً لكان هذا المفكر صاحب تراث فكري عظيم، ولكن مثل الشاعر المتنبي الذي اهتم بالمديح وشغل بالعطايا دون الانشغال بشعره وحكمته وعالمه الشعري، فكان هذا البعد السبب في مقتله على الرغم من حكمته البالغة وآرائه العميقة.

المراجع.

1-مجلة "فصول" المختصصة في النقد الأدبي التي تصدر بالقاهرة، عددا خاصا احتفاءً لذكرى التوحيدي دراسة لفكره وعرضا لفلسفته وسردا لحياته، كتب فيه عديد من الكتاب والمفكرين المهتمين بفكر هذا الفليسلوف وحياته، صدر العدد في ربيع 1996 المجلد الخامس عشر العدد الأول.

2- فاروق شوشة "رسالة الغربة"، كتاب جمال العربية، سلسلة كتاب العربي، العدد 52 صدر في 15 إبريل 2003 ص 164و165.

جانب من جوانب عطاء الحضارة الإسلامية
"رسائل ابن رشد الطبية".

يعد ابن رشد أكثر المفكرين المسلمين تأثيرا في الفكر الإنساني، قُدّر له الصيت والشهرة شرقا وغربا، وقدر لمؤلفاته أن تنال حظها من البحث والعناية والتدوين. والحقيقة أن أبا الوليد محمد بن أحمد بن رشد (520-594ه -1198م) فيلسوف ذائع الصيت موسوعي المعرفة، اهتم بتحصيل العلوم، ألف في الفقه، والطب، والأخلاق، والمنطق، واللغة، ولم تتوقف آثاره الفكرية على إسهاماته في ميدان الفلسفة، والتي استحوذت على اهتمام المفكرين والباحثين والمؤسسات الأكاديمية في "الشرق والغرب"، وترجمت أعماله إلى "اللاتينية والعبرية"، ولا سيما شروحه لأرسطو في صورها المختلفة.

ولد ابن رشد في قرطبة وتوفي في مراكش، وعاش فترة من حياته في إشبيلية قبل عودته إلى قرطبة، اتصل بالخليفة "المنصور" وكان قريبا منه؛ وكان لقربه من الخليفة مصدر حقد كثيرٍ من خصومه فاتهموه بالزندقة والإلحاد، وأغروا عليه صدر المنصور فنفاه إلى مراكش وأمر بإحراق كتبه، ثم رضي عنه بعد ذلك المنصور وأذن له بالعودة إلى وطنه قبل أن تعاجله الوفاة في أثناء رحلة له إلى مراكش، نقل جثمانه بعد ذلك إلى قرطبة ودفن فيها.

وعلى الرغم من شهرة ابن رشد باعتباره فيلسوفا مسلما كبيرا أضاف للفلسفة وكان مجددا للنظريات الفلسفية في عصره، وذيوع الفكر الرشيدي: مذهب الرشدية، ذلك المذهب الذي أطلقه الباحث الفرنسي "رينان"، وكان رينان أول من لفت الأنظار نحو ابن رشد وربطه بالفكر المعاصر.

وعلى الرغم من كل هذا العطاء الفكري لابن رشد، يظل جانبا آخر من جوانب هذا العطاء لم ينل حظه من الاهتمام والدراسة، أعني كتاباته في الطب وإسهام ابن رشد في التراث الطبي، وقد برع ابن رشد في الطب وكان طبيبا ماهرا، زامل الوزير الطبيب "ابن زهر" وتتلمذ على يديه.

اشتهر ابن رشد في الغرب منذ القرن الثالث عشر عندما ترجم كتابه "الكليات في الطب" إلى اللاتينية. وقد خص فيه ابن رشد الكلام عن الأطفال، فكان ثاني طبيب مسلم يهتم بهذا الموضوع بعد الطبيب الرازي.

وإحياءً لتراث ابن رشد وقراءته من جديد، صدر هذا الكتاب "رسائل ابن رشد الطبية"، يتضمن تراث ابن رشد في الطب مجموعة رسائله الطبية، ويكشف جانبا مغمورا من جوانب الفكر الرشيدي، حيث يضم تلخيصات ابن رشد وتعليقاته على بعض رسائل جالينوس الطبية، ومنها كتاب القوى الطبيعية، الحميات، العلل والأمراض، حفظ الصحة، في أصناف المزاج، في حيلة البرء.

بالإضافة إلى رسالة ابن رشد نفسه في "الترياق"، قام بتحقيق الكتاب وكتابة مقدمته الأب الدكتور جورج شحاتة قنواتي الذي كان وثيق الصلة بابن رشد، وأخرج كتابا هاما يحتوي على مؤلفاته بتكليف من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

شارك في تحقيق الكتاب أيضا "سعيد زايد"، وصدّر له الدكتور إبراهيم مدكور بكتابة مقدمة أشاد فيها بالكتاب وجهد محققيه. نشر الكتاب في طبعته الأولى عن مركز تحقيق التراث بهيئة الكتاب المصرية، وأعيد نشره ضمن مشروع مكتبة الأسرة "سلسلة التراث" الصادرة عن الهيئة المصرية للكتاب.

يحتوي الكتاب على 9 رسائل جاءت في 430 صفحة من القطع الكبيرة، تناول ابن رشد في الرسالة الأولى تلخيصا لكتاب الطبيب "جالينوس" "الاسطقسات"، والاسطقس كما يعرفه ابن رشد هو الشيء الصغير من الجسم. وتحدث ابن رشد أيضا في هذه الرسالة عن الأجزاء التي يتركب منها جسم الإنسان، ثم يفيض في وصف الألم وطبيعته، ويتحدث عن الإمراض وطريقة الشفاء منها ويذكر تصنيفها، وينهي ابن رشد تلخيصه لهذه الرسالة بحديثه عن الإسهال ويذكر دواءه وامتلاء البطن، والاستسقاء. وينصح ابن رشد لعلاج الإسهال "لابد من تغليط الأخلاط وتضيق المجارى وإخراج القوة الدافعة للأخلاط من الدم والأعضاء". وهو يشير بذلك إلى الإمساك عن الطعام، حتى يتعافى المريض ويقل الإسهال عنده.

ثم يتناول ابن رشد تلخيص كتاب "المزاج" لجالينوس، وجاء هذا التلخيص في ثلاث رسائل، يشرح ابن رشد الأمزجة التي يوصف بها الإنسان، والعوامل الطبيعية التي تؤثر في تكوينه، والصفات التي يولد بها، ويذكر الصداع الذي يكون من فساد المعدة، ويشير إلى وجود النزلات والسعال والزكام وكثرة اللعاب، كل هذه أعراض تدل على البرد والرطوبة. ويرى ابن رشد أن الإقلال من تناول الطعام يولد المرارة. وعن سبب تعاطي الأبدان الأدوية يقول ابن رشد: "تستعمل أبداننا الأدوية ليحفظ بها درجة حرارتها"، وينهي ابن رشد تلخيصه لكتاب جالينوس "المزاج" بذكر رغبة أبنائه (أبو القاسم وأبو محمد) وحثهما له في الاستمرار في كتابة هذا الكتاب.

ويبدو أن ابن رشد أحس في كتب جالينوس بعض العمق والطول فتكاسل عنها بعض الوقت بقول ابن رشد "في كلام جالينوس طول ما ربما كسل عنها كثيرا من الطب، وأكثر ما حركني إليه أبنائي أبو القاسم وأبو محمد، إذ كان لهما المشاركة في هذه الصناعة.."، ثم يمضي ابن رشد في تلخيصه لكتاب الطب لجالينوس، ويتناول تلخيصه ثلاث مقالات تناول فيها جالينوس القوى الطبيعية وهي تعد بمثابة تشريح لجسم الكائن الحي وبيان بنيته التركيبية، ويشير ابن رشد إلى أن هناك فعلين خاصين بالحيوان، هما الحس والحركة الإرادية في المكان، وفعلان مشتركان للنبات والحيوان وهما التغذي والنمو، يتناول ابن رشد وصف هذه القوة الطبيعية، ويسهب في الدخول في

تفاصيل أكثر عن أعضاء الجسم ووصفها والقوة المؤثرة فيها، والعوامل المساعدة على بقائه، ويرى ابن رشد أن الأفعال الطبيعية في كل مولود هي التكوين والحركة والنمو، تناول أيضا وصف أعضاء الإنسان وحركتها، فيصف حركة المريء، وجريان الدم، وصفة المعدة، ودور الأمعاء، وحال الكبد، وعلاقة البول بالكلى، ويأتي جالينوس بآراء أرسطوطاليس في كيف تصفي الكلى البول، ويذكر أراءهم ثم يذكر آراءه هو، ثم يعلق ابن رشد بعد ذلك بما يشبه مناظرة علمية طريفة..

ثم يذكر ابن رشد الأسباب التي تصيب الجسم بالحمى، وكيفية التخلص منها، ويرى ابن رشد أن جميع الأورام التي تصيب الجسم تولد حميات، وذلك إذا وصلت حرارتها إلى القلب.

تضمن الكتاب أيضا رسالة ابن رشد التي تناول فيها تلخيصا لكتاب جالينوس "العلل والأمراض"، وقد جاء تلخيص ابن رشد للكتاب في 6 مقالات، تناول جالينوس في الكتاب العلل والأمراض التي تصيب الجسم وطرق الوقاية منها، ويعارض ابن رشد جالينوس في بعض النقاط التي وضعها مبينا الصواب منها.

تضمن الكتاب أيضا رسالة ابن رشد المسماة "كتاب الترياق"، وقد ألفها ابن رشد نزولا لرغبة الخليفة المنصور، فقد طلب منه الخليفة أن يثبت له على طريق البرهان الطبي ما قاله الأطباء في المواضيع التي يستعمل فيها الترياق.

وقد أجابه ابن رشد فقام بتأليف هذه الرسالة الذي يقول في بدايتها: "إن الذي حرك القدماء إلى تأليف الترياق هو شفاء جميع السموم الحيوانية والنباتية، وخاصة السموم الحيوانية." تناول ابن رشد السموم وعلاجها، واستخلاص الدواء منها، وعلاج الأوجاع التي تصيب المعدة، والكلى، والمثانة، ووصف علاج عسر الطلق، وعلاج الحميات والأورام وغيرها، وبيان الأدوية اللازمة للشفاء من الأمراض التي تصيب الجسم، ولا يفوت ابن رشد أن يشير إلى أنه قد تكلم مع مشاهير الأطباء في عهده ألا ينصحوا باستعمال الدواء في حال الصحة، وفي حفظ صحتهم وأخذه على الدوام، فلم يفعلوا؛ فكانت النتيجة كما أشار ابن رشد "أنه أضر كثيرا بمن داوم استعماله منهم..".

كانت خاتمة هذه الرسائل رسالتين، الرسالة الأولى في "حفظ الصحة"، والرسالة الثانية "في حيلة البرء"، وهما مكملتين لكتاب الترياق الذي وضعه ابن رشد للخليفة المنصور. مضمون الرسالتين الصحة العامة وكيفية المحافظة عليها، وهما أشبه "بروشته عصرية" للحفاظ على الصحة وعلى حيوية الجسم وسلامته، وأهم هذه النصائح التي وضعها ابن رشد أن حفظ الصحة يكون بأمرين:

1- العناية بجودة الجسم

2- العناية باستفراغ فضول الهضم

ويرى ابن رشد أن العناية بجودة الهضم تتحقق باختيار الطعام المعتدل والخبز المختمر، المحكم الصنع، المتخذ من القمح المبلول بالماء. ويختار من اللحوم الطير، والدجاج وجميع الطيور الجبلية، ويختار من السمكِ السمكَ البحري الطري، ولا يرى بأسا باختيار السمك الذي مأواه الماء المالح تارة والعذب تارة، كالشبابيط والبوري، ويختار من الفواكه التين والعنب الناضجين، وينصح لمن يتناولهما ألا يختلط بهما غيرهما، ويختار من البقول الخس، الذي ينصح من كانت معدته باردة أن يتجنبه. ويختار من المياه مياه العيون الترابية المنبع، العذبة الخالصة العذوبة، التي لا يظهر فيها طعم لشيء من الأشياء، ولا الرائحة الصافية، والخفيفة الوزن، ويرى ابن رشد أنه إن لم يتمكن الحصول على هذه النوعية من هذه المياه، فمياه الأنهار العذبة. ولحفظ الصحة أيضا ينصح ابن رشد في لفتة عصرية وكأنه طبيب معاصر يبدي لنا نصائحه، بالاهتمام بممارسة الرياضة، ويرى أن الرياضة مع عبادة الصوم أعون شيء على حفظ الصحة، ويرى ابن رشد أن الإنسان غير المهتم بجودة الهضم، ولا ممارسة الرياضة "هو إنسان غير مأمون العافية". وينصح ابن رشد الشخص الضعيف أن يكون وقت الاستحمام بعد ممارسة الرياضة، وقبل أخذ وجبة الغذاء، وينصح ابن رشد هذا الشخص بضرورة المشي بعد الطعام خطوات يسيرة برفق لينزل الطعام عن فم المعدة..

هكذا كنا في رياض هذا العطاء وفي رحاب هذا الفكر تنتهي قراءتنا لهذا الكتاب القيم، الذي شمل مجموعة الرسائل الطبية لابن رشد جانبًا آخر من جوانب عطاء الحضارة الإسلامية، وإضاءة على الدرب لطرق باب التراث ومعايشته من جديد، وعلى الرغم من أن الكتاب في مضمونه قد يهم القارئ المختص، إلا أن ابن رشد استطاع بلغته السهلة أن يجعله سهل القراءة يستطيع المثقف العادي قراءته وفهمه، وعلى الرغم من أن عديدًا من النظريات الطبية قد تغيرت مع تقدم الطب وتقدم العلوم الطبية، إلا أن هذا التقدم مرجعه الأول الإسلام وعطاء الأطباء المسلمين.

مذاق الحرية المرير. "رواية تؤرخ للنضال الإفريقي"، جان ديفاسا نياما.

يقول الكاتب الجابوني "جان ديفاسا نياما"، أكتب ليعرف العالم ما يحدث في بلدي، وعلى هذا الفكرة قامت تجربة الكاتب الإبداعية، تاريخ الجابون النضالي وقصص أبطاله والتأريخ لميراث الحرية، الباب لقراءة نياما والعيش معه عبر كلماته.

يعد جان ديفاسا نياما من أبرز الكتاب المعاصرين وأكثرهم انتشارا، وتعد روايته "مذاق الحرية المرير" موضع شهرة حقيقية، وكان لها الفضل أيضا في لفت نظر النقاد إلى كاتب كبير يملك جميع أدوات السرد، ويحمل رؤى وأبعاد إنسانية. فازت "مذاق الحرية المرير" بجائزة "الجائزة الأدبية الكبرى عام 2016 لمالي"، جائزة أحمد بابا، إلى جانب حصولة على الجائزة الأدبية الكبرى في إفريقيا السوداء، الذي يمنحها اتحاد كتاب اللغة الفرنسية، وكان ذلك في 14 مارس عام 2009. ولد جان ديفاسا نياما في إحدى القرى الصغيرة التابعة لمدينة موابي الجابوينة عام 1962، وفي هذه القرية المغمورة بالأساطير والانتماء إلى الأسلاف والطقوس السحرية على إيقاع الطبول، كما هو الحال في أغلب القرى الإفريقية، ولد نياما مع شقيقه التوأم في أسرة مكونة من 14 طفلا، كان اسم نياما هو "أولايو"، والتي تعني في اللغة الجابونية

المشاهدة أو الملاحظة، وهكذا اعتاد نياما على التأمل، كما كان اسمه. أما توأمه فكان اسمه أوهامو والتي تعني "الفهم والإدراك"، وهكذا علم أخوه مبكرا أن إفريقيا مستمرة في شقائها وما تعانيه من فقر وبؤس، فرفض المجيء إلى هذا الواقع، وأسلم روحه لبارئها في أثناء ولادته، لكنه أوصى توأمه بأن يبعث له رسائل متضمنة وصفا لما سيراه في هذا العالم، هذه الوصية التي لم يدركها نياما إلا بعد أن خط روايته الأولى، وهنا شعر عقب الانتهاء منها أن إهداءها لأخيه واجب، بل كل كتاباته القادمة، عانى نياما الحرمان مبكرا، فقد توفي والده وهو في سن صغيرة، كتب نياما في المرحلة الجامعية بعض المسرحيات والقصائد والقصص القصيرة، في عام 1977 عمل مراسلا لجريدة الاتحاد التي تصدر في الجابون، وهي جريدة تصدرها الحكومة الجابونية، أصحبت الجريدة شاهدة على نشر الكتابات الأولى لنياما ونبوغ موهبته مبكرا، يعمل نياما الآن مدرسا للغة الإنجليزية في "ليبر فيل"، ويحظى الآن بشعبية كبيرة في بلده "الجابون"، في عام 1985 كتب روايته الأولى "العم العم"، وهي تتحدث عن صبي صغير لا يعرف كلمة في لغتة المحلية تعني "العم"، لذلك ينادي عمه بالعم ما، أتمّ نياما كتابة هذه الرواية في عام 1988، ونشرها في العام 1991 ضمن منشورات شركة **La Pensee Universelle** في باريس وقت نشر هذه الرواية التي نشرها نياما على نفقته الخاصة، الأمر الذي لم يتلقّ أي دعم من أجل ترويجها، كانت تجربة نشر ذاتية، حتى جاء عام 1996،

والتقى نياما بناشر أعماله "ميشيل كادنس"، وكان ذلك في معرض أقيم للكتاب الشباب، أقامه مكتب المنظمة الدولية للفرنكفونية بإفريقيا الوسطى، عندما قرأ هذا الناشر روايته طلب منه كتابة رواية جديدة، فكانت روايته "نداء دينيتي"، وهي جزء من ثلاثية تضمن أيضا بجانب هذه الرواية رواية رحلة العم ما، وأيضا رواية صخب الميراث، نشر نياما روايته نداء دينيتي بعد عام من كتابتها، وصدرت عن دار "Ed Ndze"، التابعة للمنظمة. يرى نياما أن الجوائز لا تعني له شيئا، لأن الأساس هو موهبة الكتابة ذاتها، وهي هبة من الله تعالى، وأن الجائزة الحقيقية هي تطوير الكتابة، قد تعمل الجائزة على دفع الكاتب إلى الإبداع المستمر وتطوير أدواته، يقول نياما "الأساس لديّ هو موهبة الكتابة التي منحني إياها الله، لكن الجوائز تدفعني لبذل قصارى جهدي، وأن أعمل على تطوير أدواتي حتى أتمكن من إرضاء جميع القراء، ويضيف نياما دائما: "أطرح على نفسي هذه التساؤلات: هل أنا أعمل بجد؟ هل أكتب بشكل جيد للغاية؟ ماذا يمكنني أن أفعل لجعل القراء سعداء؟ أسعى إلى تحقيق ذلك على الدوام، لأن القراء يحتاجون إلى المزيد وأنا –أيضا– لا يمكنني البقاء دون كتابة وتفكير. إن الأهم بالنسبة لي هو سعادة القراء ورضاهم، إن كانوا سعداء فسأصبح سعيدا أيضا، لذلك لا أحب أن أتأخر عليهم في نشر كتبي حتى لا أرى حزنا في عيونهم، وبالتالي أعمل بكل طاقتي في الكتابة لهم، أما الجوائز فليست هي شاغلي بالمقام الأول.."

وعلى هذا النحو، ارتبط نياما بالقراء، فكانت روايته تحمل هذه الرؤية الإنسانية التي تجذب القراء إلى عالمه بكل ما فيه من عمق. يكتب نياما أدبا يرى فيه الأجيال القادمة أجيالًا سوف تفهم ما يقول على حد تعبيره، وفي حديثه الذي يشير فيه نياما إلى أن هناك أجيالًا بالفعل قادرة على بناء المستقبل، وأن وتفهم ما يقول، اتفاقا مع هذه الرؤية يقول الكاتب الإفريقي أحمدو كوروما في روايته "بانتظار تصويت الحيونات البرية" صدرت عام 1998، "إن كنا لا نعرف إلى أين نحن ذاهبون، فعلينا أن نعرف من أين أتينا. الماضي والمستقبل لا ينفصلان، وفي الثقافة الشعبية الإفريقية: القصص والأحلام يوضحان معا الصورة. والحبل الجديد ننسجه من نهاية الحبل القديم..".

تعد رواية "طريق الحرية المرير" أهم روايات نياما وأشهرها، وعلى الرغم من حديث النقاد عنها ووصفها بالرواية التاريخية التي تؤرخ لتاريخ الجابون عبر فترة زمنية، سرد أحداثها الكاتب من واقع أحداث حقيقية مرت بها الجابون. وقد أشار نياما إلى المصادر التي ساعدته واعتمد عليها عند كتابة هذه الرواية، فهو يشير إلى اكتشاقه ضمن أرشيفيات عام 1906 وثيقة سرية ومشفرة، قد أرسلها رئيس منطقة مايومبا، موجهة إلى المفوض العام للكونغو الفرنسية وتوابعها ومنها الجابون. الأمر الذي أوحى لنياما عند اكتشافه هذه الوثيقة أن هناك شيئا خطيرا يكمن خلف هذه الكلمات، فلا يمكن أن تذكر منطقة بالاسم دون مبرر مقنع، وقادتها مستبعدون، بسبب موقفهم غير

المتعاون، هنا تساءل نياما عن الدور الذي لعبه أبطال هذا العصيان، قرأ نياما مزيدًا عن هذه الفترة من التاريخ الجابوني، وعبر هذه الأحداث والوثائق أخذ مادته في كتابة روايته "طريق الحرية المرير"، واكتمالا لثراء تجربته، وحتى تظهر هذه الرواية بكل هذا العمق والصدق أيضا زار نياما الأماكن، والتقى بكبار السن الذين اعتبرهم شهود عيان على هذه الأحداث وذاكرة حية للمكان، ومن هنا يرى نياما أن الحياة في الجابون، وقصص الناس فيها، وميراث التاريخ الشفهي من عائلته وأهل القرى هناك، هي المرجع الحقيقي في صنع عالمه وصياغة تجربته الإبداعية، كما أن هناك بعد إنساني يشير إليه نياما أن ثمة نداء من أخيه التوأم الذي رحل صغيرا وأثر بشكل كبير رحيله على مسيرته؛ فهو يتخيل أن كل كتبه وأفكاره هي رسائل أرسلت من أخيه، قام هو بالرد عليها يحكي فيها عن وقته، ويسرد لأخيه كل تفاصيل حياته عبر ما يبدع ويكتب..

وعلى صنع هذا الإيحاء وتلقيه كما جاء في صدر الرواية، يقول نياما: "الطبيعة هي شريكتي لخداع عزلتي، صقر يحوم حول جبل "سانت فيكتوار"، رأيت أخاه على سفوح جبال "مايومبا". نورس أطلق صرخته قرب بركة "بير"، ذكرني بذلك الذي يتربص بأسماك بحيرة "بانيو"، بالاندفاع نفسه والمتعة نفسها. قلبي يهتز عندما أسمعه يغني.."

صدرت رواية "مذاق الحرية المرير" مؤخرا عن الهيئة المصرية للكتاب، قامت بترجمتها إلى العربية المترجمة أسماء مصطفى كمال ضمن سلسلة الجوائز، وقد تنازل نياما عن حقوقه المادية لهذه الترجمة لصالح الهيئة المصرية العامة للكتاب في لفتة إنسانية منه تشجيعا للتواصل الحضاري، ومد جسوره ليتعرف القارئ على هذه الثقافة البعيدة نسبيا عنه..

تتعرض الرواية سيرة ذاتية، يأخذ الخيال فيها الحيز الأكبر، تسرد لحياة "مافرولو" الملقب بـ"نابو ندا ماكينا" بطل الجنوب الجابوني، هذا البطل الذي دفع حياته ثمنا للحرية عام 1913، استدعت لمعرفة حياته أن يقوم الكاتب "جان ديفاسا نياما" –كما أشرنا من قبل- بعمل تحقيق ميداني شامل مع أحفاد من عاصروا تلك الفترة، إلى جانب ذلك قام نياما بقراءة مئات الوثائق، حتى يصل إلى كل المعلومات التي تساعده في إنجاز هذه الرواية على النحو الذي نالت فيه الرواية أكبر جائزة في بلده. تمر فصول الرواية عبر هذه الحقبة الزمية من تاريخ الجابون، تحديدا في جنوب الجابون وفي إحدى القرى تأتي الأحداث، يصف نياما القرية بكل ما فيها من أشجار وطرق وكنيسة وأشخاص لنصل عبر هذا السرد لسيرة البطل الحقيقي "مافرولو" ومناهضته الاستعمار حتى اعتقاله في هذه الليلة في 1 نوفمبر من عام 1913 مات "مافرولو"، بعد أيام قليلة من اعتقاله في شعبة "نديندي"

وقد أسفرت وفاته عن تأثير ضخم في جميع أنحاء "موكاب" حيث كان هذا البطل واحدا من المحرضين الرئيسيين على الثورة..

مذاق الحرية المرير هي رواية تأتي من عمق الجابون لتسرد نضال هذا الشعب عبر هذه السيرة، وخلال هذه الأحداث نستشف جوهر الأدب الإفريقي المعبر بصدق عن كفاح هذه الشعوب ونضالها من أجل حريتها.

موسم الظل، ليونورا ميانو.
"عن تجارة الرقيق في إفريقيا"

تعد الأديبة الكاميرونية "ليونورا ميانو" من الأصوات الأدبية المعاصرة، وهي أول كاتبة إفريقية تفوز بجائزة فيمينا الشهيرة بفرنسا عام 2013، وذلك عن روايتها "موسم الظل"، التي صدرت عن دار غراسي الشهيرة، وصدرت الترجمة العربية لها مؤخرا، وقام بترجمتها سعيد بوكرامي ضمن سلسلة إبداعات عالمية، التي يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت. تعد "موسم الظل" الرواية السابعة في مشوارها الأدبي.

ولدت ليونورا ميانو بقرية بدوالا على ساحل الكاميرون في 12 مارس عام 1973، ثم انتقلت في عام 1991 إلى فرنسا بداية في فالنسيان، ثم انتقلت إلى مدينة نانتير، وذلك لدارسة الأدب الأمريكي. بجانب روايتها "موسم الظل" صدرت لها قبل ذلك راوية "الفجر المضيء"، عن دار غلون، ترسم في الراوية أيضا ملامح الكآبة الإفريقية وصور العنف عبر شخصيات وأحداث من القارة الإفريقية، صُنّفت روايتها "أعماق الليل" أفضل رواية أولى بالفرنسية عام 2005

في موسم الظل استطاعت ببراعة فائقة الكاتبة ليونورا ميانو أن تصور المجتمع الإفريقي من خلال رؤية صادقة عبر سرد وأسلوب يلفت ذهن القارئ، ويجعله يتعاطف مع أبطال الراوية، تدور أحداث الراوية في حقبة زمنية قديمة ترجع إبّان القرن السابع عشر حيث تجارة الرقيق السائدة وانعاكس هذه التجارة على المجتمعات الإفريقية، في موطنها "الكايمرون"، تدور أحداث الراوية، وعبر أشخاصها تسرد الكاتبة لهذا الواقع المرير ومدى قسوة المستعمر وقسوة البشر أيضا الذين ينظرون إلى هؤلاء السود على أنهم خلقوا فقط من أجلهم، من أجل أن يساقوا في سفن كحيونات أليفة إلى أوروبا تاركين عائلاتهم يعانون المرض والفقر.

تسرد الكاتبة لحال القرى سردا يأخذ عين القارئ ليشاهد مأساة حقيقية عاشها أبطال هذه الراوية، "مكابدات قبيلة مولنغو"، في هذه المنطقة الإفريقية عبر حكاية مؤثرة في بداية السرد، أوشك النهار أن يطرد الليل ليسدل الستار في البداية على حال هؤلاء النسوة في هذه القرية، وقد أقضّ مضاجعهن الخوف والحذر، لأنهن يعلمن أن هناك تهديدا حقيقيا من مجهولي هوية قريبن في الأنحاء المجاورة، حتى تحدث الفاجعة الكبيرة، حيث تنشب النيران بفعل فاعل، الأمر الذي اضطر السكان إلى الهروب خارج القرية، ومن هنا تبدأ الحبكة النفسية بعد عودة السكان بعد أيام قليلة إلى قريتهم، وبعد مغادرة الذين تسببوا في اندلاع الحريق، سيكتشف السكان أيضا بعد حصر

أبناء القرية أن هناك اختفاء (عشرة فتيان وحكيمين شيخين). وتستمر الأحداث وتتوالى، لا تحدد الرواية زمانا محددا ولا وطنا إفريقيًّا معينا، أرادت الكاتبة أن تجعل من فصول الراوية سردًا تاريخيًّا لميراث تجارة الرقيق في إفريقيا. في مكان ما، اختفى الأبناء الاثنا عشر فجأة، والأمهات مفجوعات ينتحبن معزولات بعيدا عن القبيلة لدرء الشر والأحزان، حتى لا ينتشر وباؤها، ويعم باقي أراضي قبيلة المولو نغو.

مفتاح الراوية في الاختفاء الذي معه طرحت هذه الأسئلة التي تحدد مسار الأحداث. ما هذه الكارثة بالتحديد؟ أين المختطفون؟ ما نوع المسئولية التي قد تتحملها الأمهات من فقدان أبناء القبيلة؟ هل يجب البدء بالبحث عن المفقودين؟ وكيف؟ هل ينبغي القبول بفقدان نهائي دون جنازات والتسليم لهذا الفقد؟ قبائل المولو نغو لا يريدون القتال، يريدون العيش في سلام؛ هم مسالمون بطبعهم، لأن ثقافتهم تحترم الحياة، لكن هل ينتهي الأمر إلى التسامح في ظل وجود كل هذا الشر، مع تتابع الأحدث ومن خلال المبعوثين من أبناء القبيلة الذين تبرعوا لمهمة البحث عن هؤلاء المفقودين وتفسير لغز هذا الاختفاء، سيعلم قائد القبيلة والنسوة أيضا إياي وايبيزي أن جيرانهم قبيلة البويلي، المسلحون والحاقدون المسئولون عن اختفاء أبنائهم الذين قيدوا بالسلاسل واقتيدوا إلى الساحل تمهيدا لبيعهم لرجال يلقبون بـ"أقدام الدجاج"، هؤلاء الأجانب قدموا من الشمال ليتاجروا بالسود.

وهكذا جاءت هذه الراوية، لتعيد تاريخ هذه التجارة، رواية ليونورا ميانو توصف بالملحمية، تستعرض تاريخا مؤلما من العبودية، وفي الرواية تكشف لأول مرة تواطؤ بعض القبائل الأفريقية في تجارة الرقيق بدافع الجشع، في إشارة إلى أن الخيانة ممكنة في كل البشر من أجل مكاسب زائلة، في الرواية، التاريخ يعيد نفسه في انتشار تجارة الرقيق، البعد الإنساني يقف جنبا إلى جنب مع التاريخي، هناك في إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، كتبت ليونورا ميانو هذه الرواية بنثر جميل يجمع بين التاريخي والمتخيل الحسي والروحي، عبر فكرة أساسية تبثها أحداث الرواية وهي ضرورة الالتزام والإيمان للبقاء على قيد الحياة، هي مهداة إذن إلى المقيمين في الظل الذين يندثرون بكفن المحيط الأطلسي..

عبر المنظور السردي الرائع الذي اختارته الكاتبة، بعيدا عن القول إنه من المحرمات، تتحدث عن العبودية وتؤرخ لها، هذه الكلمة التي تعني عند الأفارقة الذاكرة الجريحة للأفارقة المغلوبين على أمرهم، وتمثل للمجتمعات الأوروبية التي فرضت قرونا من الاستعمار والاستغلال، موظفة قبائل إفريقية محاربة ومتسلطة ومُؤامرة، يتجسد هذا التاريخ المؤلم في حدث اختطاف الأبناء وبيعهم عبيدا ومكوث الأمهات سجينات وجمع الفراق.

اختضار الرواية، تحدثت عن مجموعة بشرية تمكنت من الإتجار بمجموعة بشرية أخرى والاستفادة من ذلك، كان لهذا التعسف الهائل سببا في معاناة واستعباد واجتثات بشر من أراضيهم وثقافتهم وجذورهم، هذا ما تقدمة رواية "موسم الظل". وجهة نظر عن جنوب الصحراء الكبرى، وعن هزائم الإنسانية، وأيضا عن انتصاراتها الهشة، حكاية يحكيها الأفارقة المستعبدون وأحفادهم المنتشرون في أنحاء العالم، منذ خمسمائة سنة تقريبا، حكاية الذين عاشوا في الظل والاستعباد.

شعب يوليو. نادين جوديمير، نقد العنصرية من جديد.

تعد الكاتبة نادين جورديمير (1923 – 2014) من أبرز الكاتبات في إفريقيا، ومن أهم كتاب الرواية في العالم، وهي الثالثة التي حصلت على جائزة نوبل في الأدب في القارة الإفريقية، فقد حصلت على الجائزة العالمية جائزة نوبل عام 1991، بعد حصول الشاعر والروائي ويل سوينكا من نيجيريا عام 1986، وحصول نجيب محفوظ على الثانية عام 1988.

أطلق على نادين جوديمر لقب "عميدة الأدب الجنوب الإفريقي"، وجاء هذا التكريم بعد عطاء ورحلة إبداعية لهذه الكاتبة التي دافعت عبر مسيرتها عن حقوق السود ومناهضة العنصرية، حتى اعتبرها كثيرٌ أنها اتخذت من الأدب معركة دفاع عن قضايا التفرقة العنصرية القائمة في جنوب إفريقيا، وكانت قريبة من الزعيم الجنوب إفريقي "نلسون مانديلا". في مدينة "سبرينجز" الواقعة في إقليم غوتنغ بالقرب من العاصمة جوها نسبورغ عاصمة جنوب إفريقيا، ولدت نادين جوديمر في نوفمبر من عام 1923، وكان محل ميلادها في منزل والديها الذي يقع بالقرب من مناجم الذهب.

حيث كان الأب يعمل هناك في هذه المناجم، تلقت تعليمها الابتدائي في مدرسة تابعة لأحد الأديرة، ثم تابعت تعليمها الجامعي في جامعة «وايت

ووترساند» في جوهانسبورغ، يدور محور كتابات نادين جوديمر وأعمالها الأدبية عن الدفاع عن حقوق السود كما ذكرنا، وكان لسياسة نظام الفصل العنصري التعسفية الظالمة واللإنسانية قضايا أساسية تناولتها الكتابة في كل أعمالها، ومن هنا تعتبر الكاتبة عملية الكتابة انسحابًا وتراجعًا من أجل خلق عالم آخر ظلت تحلم به وتدافع عن حقوقه. وقد حافظت على رؤيتها الخاصة في الدفاع عن الإنسانية المتمثلة في ضرورة العيش في سلام، بعيدا عن العنصرية والتفرقة على أساس اللون، واصلت العمل من أجل الدفاع أيضا عن حرية التعبير في دولة تصفها "بالبوليسية"، لا همّ لهذه الدولة سوى مصادرة الكتب والناس، تنبأت بمستقبل بلادها المشرق وبسقوط النظام السائد، كان الزعيم نلسون مانديلا أول من طلب مقابلتها بعد خروجه من السجن عام 1990، كتبت نادين جوديمر عبر مسيرتها الأدبية خمس عشرة رواية، وظلت لسنوات لا تُقرأ من قبل أحد بسبب تعرضها في كتاباتها على التميز العنصري السائد في بلادها في ذلك الوقت، بعد انتهاء التفرقة العنصرية اتجهت نادين جوديمر إلى معايشة البيئة والحديث عنها، ومصير نهر اوكافانجو وتوظيف هذه المعايشة في كثير من الأعمال التي أصدرتها بعد ذلك.

تأثرت الكاتبة بأعمال الروائي الفرنسي مارسيل بروست، وظلت تقرأ أشعار "ريلكه" و"بيتس". كما تأثرت أيضا بالكاتب الروسي تشيكوف، والكاتب العظيم دوستوفسكي، وترى من خلال قراءة هذه الآداب أن لابد أن

يضع الكاتب رسالة يعيش من أجلها، ويظل طول عمره باحثا عن الحقيقة والخير والعدل، تنتمي نادين جورديمر إلى الأقلية البيضاء، وتناهض التفرقة العنصرية، بجانب حصولها على جائزة نوبل في الآداب عام 1991، نالت جورديمر أرفع الأوسمة والجوائز، فقد نالت جائزة "الكاتب"، الجائزة الفرنسية الدولية، وأيضا جائزة غراند إيجل، كما نالت روايتها (المحافظ) جائزة (البوكر) أرفع الجوائز في بريطانيا عام 1974.

تزوجت في عام 1954 رجل الأعمال راينهولد كاسيرر.

الشهرة الحقيقية لنودين جورديمر هي أن روايتها تأخذ الشكل الملحمي المؤرخ لحياة هؤلاء البشر، كتبت عديدًا من الروايات التي تأخذ فيها شكل الملحمة مثل (حنق الجندي)، وأيضا كتبت ملحمة (الزحف الخافت) و(عالم الغرباء) و(ضيف الشرف) عام 1971، و(رفاق ليفنغستون) و(فرصة للحب) و(قصة ابني) و(نزوة الطبيعة) عام 1987، و(لا أحد يصحبني)، و(المتزمت) و(عالم البرجوازية المتأخر) و(شعب جولي) و(فحيح الأفعى النائمة) و(شعب يوليو) و(ابنة بيرغر) و(ست القوميات)، أما بالنسبة للمجموعات القصصية فلها (عناق الجندي) نُشرت عام 1980، و(ليس من مكان مثله)، و(شيء ما هناك) عام 1985 و(قفز) عام 1991، وتتسم أعمالها القصصية بالكثافة ووحدة التعبير، وتعكس إبداعها في قمة عنفوانها.

عن أصالة التجربة الإبداعية وروحها، تقول ميشيل تروشان الروائية والمترجمة الفرنسية لأعمال نادين جوديمر: "إن الكاتبة قد تعرفت إلى ثقافات عديدة جعلتها تشعر بقيمة الأدب، كما فهمت واقع الحياة في القارة الإفريقية بشكل عام، ثم في جنوب إفريقيا بشكل خاص، وأحست أن البيض يحاولون محو العالم الحقيقي للأفارقة، وهو عالم شاب، متحرك وحيوي." وتضيف ميشيل تروشان قائلة: "وعلى الرغم من أن روايتها الأولى لم تكن قد اتضحت فيها رؤيتها بشكل شامل، إلا أن أهميتها تجيء في أنها رواية ذاتية، فهيلين شو البطلة تعيش في مدينة صغيرة لا يمكن لأحد أن يطرح فيها سؤالًا حول المجتمع، ولم يكن أمام الصغيرة سوى أن تذهب إلى البقال لمقابلة هذا الجمع من الملونين الساخطين من معاملة البيض لهم، كانوا يتصرفون كأنهم كلاب تنبح بأصوات العصافير، وقد آمنت (هيلين شو) بأفكارها من خلال زواجها من رجل متحرر، وعلى الرغم من أنه موظف حكومة إلا أن له موقفه السياسي، وتتغير تمامًا عندما ترى رجلا ملونًا يموت مقتولا على أيدي رجال الشرطة البيض".

وعلى هذه الصورة تكتمل رؤية نادين جوديمر وانشغالها بقضية محورية وقدرة الكاتبة في توظيف هذه القصية من خلال العمل الإبداعي. في أحد حواراتها تشير جوديمر إلى انطباع في ذاكراتها عن معاناة السود. تقول جوديمر: "هناك بصمات خفية في ذاكرتي ترغمني على كتابة هذا النوع من

الروايات، حيث لا أنسى هجوم البوليس على مربيتي السوداء بتهمة مشروبات كحولية، وأيضا عدم السماح للسود بدخول المكتبة العامة، فماذا تراني أكتب وأنا أرى الجرائم تنهمر أمامي في الطرقات.".

هكذا رأت جورديمر الكتابة سبيل الدفاع عن حرية هؤلاء السود ومناهضة التفرقة العنصرية القائمة على أساس اللون. في روايتها "الأيام الكاذبة" صدرت عام 1953، تتحدث نادين جود يمير عن فتاة تكبر في مدينة صغيرة بجنوب إفريقيا، لا تعرف شيئا مما يدور من حولها، وتدريجيا تصطدم بحقائق عن هذا العالم المحيط بها، كانت غافلة عنها، في هذه الرواية اختزال الذكريات الأولى مع المشاهد التي رأتها نادين جورديمير في أثناء طفولتها لتصوغ وقائعها حية، ثم تتسع الرؤيا أمامها أكثر لتكتب رواية "عالم الغرباء" صدرت عام 1958، وفي الرواية تتحدث الكاتبة عن هذه القطيعة بين السود أصحاب الأرض الأصليين في جنوب إفريقيا، وبين الأقلية البيضاء الحاكمة، ومن جانب آخر تتحدث عن زيف الليبراليين البيض. في روايتها "شعب يوليو"، التي صدرت بعد مرور خمس سنوات من الانتفاضة التي شهدتها شوارع وأزقة مدينة "سويتو"، ثم امتدت لتشمل كل مدن جنوب إفريقيا، في الرواية أرادت الكاتبة أن تضع القارئ أمام المشاهدة الحقيقية، في الراوية أيضا الرصد الطويل لهذه المعاناة التي عاشها السود.

نشرت جوديمبر "شعب يوليو" عام 1981، لأول مرة عن دار نشر رافن وتاوروس في جنوب إفريقيا، ثم توالت نشر الرواية عبر كثير من دور النشر، وتمت ترجمتها إلى أكثر من لغة، بما فيها العربية، تدور أحداث الرواية بداية من تمرد السود في فترة الثمانيات من خلال عائلة (سميلز) المكونة من زوجين وثلاثة أطفال صغار، لم تجد هذه العائلة سبيلًا سوى الفرار من هذا الصراع القائم بين الحكومة البيضاء في العاصمة جوهانسبورج وبين الثوار السود، تلجأ هذه العائلة إلى خادمها الأسود (يوليو)، حيث تنتقل معه إلى حيث يعيش هو وأولاده في قرية يوليو البسيطة، لتبدأ قصة العائلة مع الواقع الجديد، هذه الأسرة التي اعتادت على أبهة العيش وترف الحياة، هل بوسعها العيش مع عائلة يوليو الخالية من كل وسائل الراحة التي اعتادتها الأسرة في منزلها الآمن هناك في العاصمة، الأحداث تتشابك، هذه الأسرة البيضاء، هل بوسعها العيش مع عائلة يوليو السوداء في وجود هذا الصراع في أعقاب هذه التفرقة، إنها الظروف وحدها أتت بهذه العائلة ليعيشوا الحياة من جديد، تتكون عائلة سميلز من الأب (بامفيلد سميليز) المهندس المعماري والأم (مورين هذرنجتون)، إلى جانب ثلاثة أطفال صغار (فيكتور وجينا ورويس). ركبوا جميعًا العربة (الكارافان) التي تحوي مكانا للنوم والعيش كغرفة صغيرة، التي كان (بام) قد اشتراها للمتعة والانطلاق في رحلات للهو والصيد وانطلقوا لبغيتهم.

كانت الأحداث متفاقمة بين البيض والسود بصورة شديدة، وجاءت اضطرابات 1980م بعد ما سبقها من أحداث في (سويتو) 1967م معبرة عن غضب السود، ومحاولاتهم المستمرة لنيل حقوقهم وكرامتهم، واستعانت الحكومة بالقوات المحلية وتعزيزات من المهاجرين الروديسيين البيض وبعض المرتزقة، تُصور الرواية المشاعر الإنسانية عبر هذه الأسرة التي تنتمي إلى البيض والتي لم تجد مأوى سوى عائلة يوليو الخادم.

الرصاص والانفجارات وقذائف الصواريخ بات ينذر بخطر الموت والتشريد لأي أبيض في منطقتهم، فلجئوا إلى منقذهم الأسود (يوليو)، تنتهي رواية (شعب يوليو) ولا يظهر في الأفق حل للعائلة البيضاء لمغادرة قرية يوليو، بل يظهر في نهاية الرواية شيء من الاعتياد والمقاومة عند (مورين) بطلة الرواية، وكأن في ذلك إشارة إلى وجوب التعايش وقبول الآخر بكل ما يحمله كل طرف للآخر من مؤاخذات ومشاعر متناقضة أو محايدة..

ترسل الكاتبة من خلال هذه الأحداث رسائل عديدة، حول التصدي لكل أنواع التفرقة في الجنس واللون نقض العنصرية والدفاع عن حقوق السود والدعوة إلى المعايشة والسلام، عبر هذا السرد تكتمل رؤية الكاتبة وتظل روايتها "شعب يوليو" أيقونة الدفاع عن الإنسانية ونشيد للحرية، وعلى الرغم من منع النظام العنصري القائم آنذاك في جنوب إفريقيا من نشر

هذه الرواية، فقد نشرت وكتبت لها البقاء وتحرر وطنها، وخرج مناضلها "نلسون مانديلا".

إن (جورديمر) بأسلوبها الغامض، ترصد بطريقة تسجل التفاصيل الدقيقة هذه العلاقات الشائكة بين جنسين بشريين متناقضين، يرى أحدهما نفسه أنه الأكثر تحضرا وإن زعم غير ذلك، ويرى الآخر نفسه أنه أقل وأدون وإن حاول غير ذلك.

هذه الرواية كما يقول عنها النقاد حلقة من حلقات هاجس (جورديمر) الأكبر في رصد العلاقات البيضاء السوداء في ذلك المجتمع المختلف الغريب عن باقي مجتمعات العالم.. وكما يقول عنها مترجمها إلى العربية أحمد هريدي: "عبر سطور الرواية تتراوح لغة القص فيها بين وصفية تُعنى بسرد التفاصيل، وتعبيرية تصويرية مشحونة بالرمز والسخرية". ترى هل كانت هذه الكاتبة عند الانتهاء من كتابة هذه الرواية "شعب يوليو" ترى بعين الكاتبة وبصيرتها ما سوف تسفر عنه السنوات من متغيرات تجبر الحكومة في جنوب إفريقيا على السير في بدايات الطريق إلى الإصلاح السياسي وضمان الحريات.. لعل حضور "شعب يوليو" الآن بات واجبا لإعادة قراءة هذه الرواية في ظل موجة العنف الشديدة التي شملت عديدًا من المدن الأمريكية عقب قتل شرطي أمريكي لمواطن ينتمى إلى البشرة السوداء، تعود جذوره إلى القارة الإفريقية ليحلق كابوس العنصرية من جديد في دولة تزعم بدفاعها عن الحريات.

وبعد، لعل الأدب هو متنفس الحرية الوحيد ولسان التعبير عن أشكال العنصرية القائمة على أساس اللون، والتي كانت بمثابة شعلة أوقدها الاستعمار في البلدان الإفريقية، انطلقت من جنوب إفريقيا، ثم شملت كثيرًا من بلدان القارة، فكانت التجربة الإبداعية تعبر عن هذه الروح المقاومة لكل أشكال العنف والنيل من حرية الإنسان الإفريقي وكرامته، فكانت التجربة صادقة تُصور كل هذه الأحداث وتسرد لها، عبر طاقة إبداعية هائلة اخترقت كل صور القهر والاستبداد التي عانت منها الشعوب الإفريقية، ليكون هذا المنتج الروائي هو الإرث الذي يحمل تاريخ هذا النضال، وسعي هذه الشعوب نحو حريتها وحقها في الحياة.

هكذا عشنا مع أجواء هذه الرواية "شعب يوليو" للكاتبة نادين جوديمر، هذه الكاتبة التي منذ صدور مجموعتها القصصية الأولى "وجها لوجه" عام 1949، وحتى آخر رواية لها رواية "قصة ابني" عام 1990، وهي تعبر عن مناهضة العنصرية وتدافع عن حق هذا الإنسان في هذه الحياة، هذه الرواية "شعب يوليو" التي حملت عبير الحرية بعد العبودية مدافعة عن الضمير الإنساني، وحائط صد ضد العنصرية، تحمل آفاقا نرى فيها جانبًا آخر من جوانب الإبداع الإنساني وميراثًا فكريًّا يضاف لميراث الإنسانية.

المراجع:

1-تعرف على الأدب الإفريقي فاطمة لامار، 22 – 6- 2016 موقع الجزائر تقرا.

2-رواية شعب يوليو، تأليف نادين جوديمر، ترجمة أحمد هريدي، سلسلة روايات جائزة نوبل، صدرت عن الدار المصرية اللبنانية.

كالنهر الذي يجري، باولو كويلو، مزيد من السيرة. مزيد من الحكمة.

يرتدي كويلو رداء الحكيم ويعيش في صومعته. يفرض حكمته على قراءه، يحاول باستمرار أن يسشتف روح العالم. مذ كان طفلا يريد من والده أن يعلمه كيف يكون كاتبا، هكذا هي حياة باولو كويلو، الكاتب الأشهر عالميا والأكثر قراءة بين القراء، "كالنهر الذي يجرى" ترى هذه النصوص هي فتنة الكتابة أم هي قواميس الحكمة.

يقول كويلو:

في سن الخامسة قلت لأمي:

-لقد اكتشفت هوايتي، أريد أن أصبح كاتبا.

أجابتني بحزن:

-يا بني، أبوك مهندس، وهو رجل منطقي، عاقل، ولديه رؤية دقيقة للعالم، فهل تعرف ما الكاتب؟

-هو شخص يكتب كتبا.

-عمك هارولد يعمل طبيبا، ويؤلف كتبا، طبع بعضها من قبل. ادرس الهندسة، وبعد ذلك يمكنك الكتابة في أوقات فراغك.

-لا يا أمي، أريد أن أصبح كاتبا، وليس مهندسا يكتب كتبا.

-ولكن هل التقيت يوما بأحد الكُتاب؟ أو هل رأيت كاتِبا يوما؟

-أبدا، في الصور فقط.

-وماذا إذن؟ تريد أن تكون كاتبا وأنت لا تعرف حتى ما هو؟

يقول كويلو: ولكي أستطيع الرد على أمي قمت ببحث عن الكتاب والمؤلفين.

دار هذا الحوار في وقت كان يرى فيه هذا الغلام "كويلو" أبعادًا أخرى لتخيل العالم والعيش فيه عبر الحديث عنه "أريد أن أصبح كاتبا فحسب، لا يريد أن يكون حقوقيا، أو مهندسا، أو حتى راهبا، أو طبيبا، لا شيء غير الكتابة والتحليق في عالمها، أريد أن أصبح كاتبا فحسب" وكان له ما أراد.

في "النهر الذي يجري" يصوغ باولو سيرته بجانب من الشغف والحكمة، تتسع رؤية الكاتب للحياة مبصرا جوانب أخرى يظل يراها، "الصفحات التالية تحوي قصصا عن بعض اللحظات التي عشتها، وقصصا لم أحكها، وأفكارا كونتها بينما أجتاز مرحلة معينة من حياتي.". كل السير كتبت من أجل الاقتراب الحميم من شخصية كاتبها وصفا لحياته، أما كويلو، فلنا في سيرته شأن آخر، يصوغ هذه النصوص وهو يعلم أنه الحكيم الذي جعل الحكمة والمشاهدة والإشارات الشخصية السمة الغالبة في أدبه الإشارات، وهو المصطلح الذي يراهن عليه في عديد من أعماله.

قامت رواية الخيميائي على الإشارات التي يرى كويلو أن الفرد رهن هذه الإشارة التي بدورها من الممكن أن تغير مسار حياته.

إلى حد كبير تأثر كويلو بالتراث الصوفي الإسلامي، واقترب من عوالمهم الروحية وكتاباتهم، وقد أشار إلى ذلك في المقدمة التي تتصدر عديدًا من كتاباته، يقول كويلو: "كتاباتي متأثرة لحد بعيد بتعاليم الإسلام الصّوفيّة. لقد ألهمني التّصوف بالفعل إلى حد كبير خلال حياتي.."، وقد كان التوحيدي أكثر هؤلاء قراءة عند كويلو بجانب جلال الدين الرومي، ولعل كتاب أبو حيان "الإشارات" كان الملهم لكويلو في اعتناقه فكرة الإشارات.

"لا تتخل، إطلاقا، عن أحلامك، وانتبه إلى الإشارات"

«الإشارات هي أبجدية يُطوّرها المرء للتخاطب مع روح العالم"

في النهر الذي يجري، قصص نشرت سابقا في بعض الصحف العالمية، ورغبة لطلب القراء أن تكون هذه القصص بين دفتي كتاب قام باولو بنشره.

أهي سيرة ذاتية لكويلو أم مفتاح نستطيع ندخل من خلاله إلى عوالم هذا الكاتب الأجمل لنشاركه رؤيته للعالم.

ملامح هذه السيرة نجد بعض فصولها، وبعض سرد لوقائعها التي ما زال يعيشها وينسج خيوطًا يستطيع قارءه المفضل أن يقترب أكثر من هذا العالم السحري لهذا الكاتب الحكيم الذي مازال يلقي حكمته فرضا على قرائه.

هناك في ضاحية بوتا فوكو قرب ريود جانيرو ولد باولو كويلو، وفي الرابع والعشرين من آب 1947، وكانت مصادفة أحبها كويلو وذكرها كثيرا، أن يولد في اليوم نفسه من الشهر نفسه وبالاسم نفسه "فيركو"، مثله الأعلى في الأدب، خورخي لويس بورخيس، وهو يشعر بالفخر كون هذه المصادفة حاضرة في حياته على الرغم من أنه جاء متأخرا عنه بسنوات، يتذكر باولو كويلو ذلك اللقاء الأول الذي جمعه ببورخيس عندما كان يافعا في بداية تعلمه كيف يكون كاتبا، وكان الشعر في البداية حاضرا، وعوالمه تأخذ بطموح باولو إلى آفاق ورؤى. استقل كويلو الحافلة من ريو دي جانيرو، وسار طوال ثماي وأربعين ساعة متواصلة من بيونس آيرس ليلتقي شخصيا ببورخيس، وحين وصل أمامه، وبعد صعوبات عديدة وقف كويلهو واجما، لا يملك سوى الصمت ناظرا إليه ثم فكر قائلا لنفسه: "المثل لا يتكلمون"

لا نستطيع على الرغم من ذلك –كما يذكر ذلك كويلو– أن هناك كثيرًا من ظلال بورخيس في كتاباته. بدا من (الخيميائي)، وهو الكتاب الذي كان سببا في جلب شهرة عالمية ولفت نظر النقاد إلى العالم السحري المسكون بالحكمة لكويلو، ولكن نستطيع أن نقول أن هذا اللقاء فتح آفاقا جديدة لكويلو، وأن هذا الكاتب الكبير "بورخيس"، هو من غرس فكرة احتراف الكتابة في ذهن الصبي ابن المهندس بيدور كوسيما كويله ودي سوزا، حين أراد له هذا الأب أن يكون محاميا، والذي أودعه مصحا عقليا فيما بعد لعصيانه له

بهذا الشأن، صاحبه هذا العصيان كثيرا، وكما يقول "جان ايرياس" الصحفي الإسباني في مطلع حوارته مع باولو كويلو -جان ايرياس أشهر من تحدث مع كويلهو- في حوار مطول جمع هذا الحوار في كتاب "اعترافات مسافر حاج"

وقد أجرى جان ايرياس هذه الحوارات مع كويلو في ريو دي جانيرو في بيته الجميل المطل على شاطئ كوبا كابانا الرائع، وكان ذلك في بداية تموز من العام 1998، كانت مرافقته في أثناء إجراء هذه الحوارات الكاتبة والشاعرة البرازيلية "روزينا سوراي" وكان الوقت المفضل عقب أخذ كويلو مشواره الصباحي المعتاد على الشاطئ بعد استيقاظه كل يوم، فهو عادة يكتب بالليل ثم يذهب إلى النوم عند الفجر لينام في الصباح، ويقضي فترة بعد الظهر في لقاء الناس، ومن ثم استعراض مراسلاته المكثفة من رسائل وفاكسات وإيميلات ومكالمات هاتفية تَرِد إليه من أنحاء العالم كافة، أجريت هذه الحوارات بعد الظهر جميعها، إلا آخر ما تبقى منها في الأيام الأخيرة كانت في الليل.

كان هذا المشهد على البحر في كوبا كابانا يتلون بأطياف اللون الأزرق، عند تحول الغروب إلى مساء، مما أعطى كويلو مَعينا لا ينضب من الصور عن البحر في الرد على تساؤلات ايرياس وروزينا، كان دائما يجيب بالإسبانية لغته التي يحبها، ويتحدث بها بطلاقة، يقول ايرياس: "إن مؤلف الخيميائي ليس رجل أنصاف الحلول، بل هو الرجل الذي يمضي إلى النهايات، الرجل الشغوف، المعتاد على ما يطلق عليه "الصراع الفاضل"، إنه الرجل الذي لا

اعتراض له على جدال والصريح إلى حد لا يصدق، على الرغم من أنه ليس واثقا بشكل مطلق من أي شيء، الرجل الذي يعرف كيف يصغي والقادر على الاعتراف بأنه يكون على خطأ."

ايرياس كان قريبا لكويلو في إجراء هذه الحوارات، استطاع بمهارة الصحفي وبرؤيته أن يعيش الأجواء الخاصة، تلك الأجواء الروحية التي فرضتها اللحظة التي اقترب ايرياس أكثر من الحالة الحقيقية التي يعشها كويلو، حالة الصدق والتأمل والإفضاء والمصارحة، إن ايرساس ماهر في اقتناص الوقت والمكان، كان ايرياس حاضرا في أحد الأيام، عندما وصل ممثلا عن ناشر كويلو في البرازيل برفقة مصور مختص، وذلك لأخذ مجموعة من الصور بمناسبة نشر روايته "فيرونيكا تقرر أن تموت" التي صدرت ترجمتها عن دار المطبوعات العربية في بيروت.

طلب كويلهو من إيرياس وزوينا البقاء في وضعية المكان من أجل جلسة التصوير، كانت هذه الصور أفضل صور أخذت له، بعد هذا اللقاء شهد ايرياس في بيت كويلهو هذه المرة في غابة ايتافا قرب بتروبوليس مجيء عالم اللاهوت ليوناردو بوف، وكان بوف أكثر المدافعين عن أفكار كويلو الروحية، وكان يدافع دائما عنه ضد منتقديه. لأنه يعتقد بأن كتب كويلو توقظ الروح وحب الأسرار في عالم مستهتر بارد..

الصبي كويلهو الذي جاء إلى العالم عبر ولادة عسيرة، كان يحلم دائما بمهنة فنية، الأمر الذي كان ينظر إليه بازدراء في أوساط الطبقة الوسطى التي ينتمي إليها، وربما لهذا السبب تعود المشكلات التي عانى منها في المدرسة. كان يحب أن يقرأ ليس لبورخيس فحسب، بل لهنري ميلر أيضا، ومن هنا تنامى ولعه بالمسرح. وعندما لاحظ والديه افتقاره إلى التقدم الأكاديمي، أرسلاه إلى مدرسة الجزويت الصارمة. كلية سانت اغناسيو في ريو دي جانيرو حيث تعلم الانضباط في الحياة.

في نصوصه رؤية تأمليه نستشف منها أدق التفاصيل في كلمات موجزة، يسرد فيها الحياة، مع رؤيته كيف تكون هذه الحياة؟ يقول كويلهو: "حياتي مكونة من سيمفونية من ثلاث حركات؛ أناس كثيرون، وبعض الناس، ولا أحد تقريبا. وكل منها يدوم نحو أربعة أشهر في السنة، كثيرا ما تختلط خلال شهر واحد لكنها لا تمتزج"

وعلى هذا النحو يذكر كويلو نظرته التأملية الممزوجة بالفلسفة نفسها خبرة الكاتب الطويلة بالحياة والناس. في "أناس كثيرون"، يرى كويلو الأوقات التي يكون فيها مع تماس مع الجمهور والناشرين والصحافين، وفي "بعض الناس"، يعني ذهابه إلى البرازيل ولقائه هناك أصدقاءه والتنزه على شاطئ كوبا كابانا، الشاطئ المحبب له، ويشارك في اللقاءات الاجتماعية، ولكنه أيضا يفضل البقاء في بيته بصورة عامة. "وفي لا أحد" هذه أكثر

اللحظات أنسا له، وكثيرا ما يجب أن يتحدث عنها، فهذه اللحظة من حياته التي تتكرر دوما هناك في جبال البيرينيه، عندما يخيم الليل على هذه القرية التي عدد من يسكنها لا يتجاوز مائتي نسمة، اشترى كويلو طاحونة قديمة تحولت إلى بيت، هذه الطاحونة القديمة على حالها منفصلة عن المزرعة المجاورة بصف كثيف من الأشجار، يستيقظ كل صباح مع صياح الديك، واحتساء قهوته المفضلة، ثم يخرج للتنزه وسط الأبقار والنعاج ومزارع الذرة الصفراء وحقول الشوفان، يتأمل الجبال، ويعكس ما يحدث في حركة "أناس كثيرون"، يقول كويلو عن هذه اللحظة: "لا أسعى إلى التفكير بما أنا فيه، ولا أطرح على نفسي أسئلة، وليس لدي أجوبة، بل أعيش كليا في اللحظة الحاضرة، وأنا أفهم أن السنة تحوي أربعة فصول (قد يبدو ذلك بديهيا، ولكننا ننساه أحيانا)، وأتحول إلى مثل المنظر المحيط بي. الريف وعبير الأعشاب وخوار الأبقار وصوت الراعي الذي يعيد نعاجه إلى الحظيرة قرب الطاحونة، يمنحني كثيرا من المتعة"

في هذا الوصف نستطيع أن نلمس البيئة والمكان الذي أوحى إليه كتابة كويلهو رائعته "الخيميائي"، ذكر الطاحونة القديمة والراعي ومعايشة كويليو هذه الأجواء الريفية أوحت له إلى حد كبير فكرة "الخيميائي".

وعن البعد الصوفي وروحه، وعن هذه الفكرة التي كثيرا ما طرحها كويلو في أعماله فكرة الحكمة وموعظتها، وكيف يصوغ الكاتب حكمته بروح التأمل، يرتدي رداء الحكيم وينشر حكمته على الرغم من أن هناك فئة من قرائه لا يعجبهم فرض كويلو حكمته عليهم. في نص من هذه النصوص التي تضمنها "النهر الذي يجرى" يأتي كويلو بحكاية رواها الشاعر الفارسي جلال الدين الرومي عن الخليفة معاوية، ذكر فيها أن الخليفة كان نائما ذات يوم في قصره عندما أيقظه رجل غريب وسأله:

-من أنت؟

قال الرجل: أنا الشيطان "إبليس"

قال الخليفة: وماذا تريد الآن؟

قال الشيطان: لقد حان وقت صلاتك، وما تزال نائما.

وهنا دهش الخليفة، فكيف يريد الشيطان، الذي يتمنى دائما أن تخلو أرواح البشر من الإيمان، أن يساعده على تأدية واجبه الديني؟

لكن الشيطان قال: تذكر أني خلقت ملاكا نورانيا، وعلى الرغم من كل ما حدث لي خلال وجودي، لا أستطيع أن أنسى الصلاة.

أمام هذه القصة الرمزية التي ذكرها كويلو في هذا النص، نستشف البعد الروحي عند كويلو، هذا البعد الذي يمارسه ويحاول أن تكون أعماله ترجمة كفيلة لأن يبصر متلقيه رسالته المصبوغة بالحكمة.

في أحد النصوص يتحدث كويلو عن "الموت"، وكان النص ردا على سؤال صحافي من "ميل أون صنداي" في لندن، كان السؤال بسيطا "إذا مات كويلو، فكيف تكون جنازتع؟"

يقول كويلو إن فكرة الموت ترافقه كل يوم، وهو يواجه الموت على أنه رفيق سفر جالس بالقرب منه وهو يقول له: "سأضربك، ولن تعرف متى، فلا تتوانَ في العيش بأقصى ما تستطيع"

وهكذا يعيش في جو من التسامح والصفح، وسرعة انتهاء كثير من الأعمال وعدم تأجيلها إلى الغد، إذا طرحت فلا داعي لأن تؤجل.

يقول كويلو: "وهكذا لا أؤجل أبدا إلى الغد ما يمكنني أن أعيشه اليوم، وهكذا يحوي الأفراح، والواجبات نحو عملي، وطلبات الصفح عندما أشعر أني جرحت شخصا، وتأمل اللحظة الحالية كما لو أنها الأخيرة."

تعرض كويلو للموت عدة مرات، في يوم بعيد من أيام عام 1974، على هضبة فلامنجو الواقعة في (ريو دي جانيرو)، حيث كانت سيارة الأجرة التي كان يقلها اصطدمت بسيارة أخرى، وهنا شهر نفر من أشياء العساكر أسلحتهم ووضعوا غطاء على رأسه فأيقن وقتها كويلو أنه سيكون مفقودا جديدا، والمرة الأخرى كان في أغسطس من عام 1989، عندما ذهب كويلو في نزهة في جبال البرينيه ليمارس التسلق على الجبال، نظر إلى الحواف الشاهقة الخالية من الثلوج والنباتات، وهنا ظن أنه لا يملك القدرة على العودة مرة

أخرى من حيث أتى. أيقن وقتها أنهم سيجدون جثته في الربيع القادم، وبعد عدة ساعات من التيه، عثر كويلو على طريق ضيق أوصله إلى قرية تائهة..

في بعد فلسفي وتصور أعمق للحياة، يرى كويلو أن كثيرا من الناس قد كفوا عن الحياة، حتى وإن واصلوا عملهم، وأكلهم ونشاطاتهم الاجتماعية العادية، يراهم أنهم يتصرفون كالآلات، دون أن يفهموا اللحظة السحرية التي يحملها كل يوم في ذاته، ودون أن يتوقفوا ليفكروا بمعجزة الحياة، ودون أن يفهموا أن الدقيقة التالية قد تكون دقيقتهم الأخيرة على وجه هذه الأرض.

في هذه النصوص اقتراب أكثر حميمية من العالم السحري لباولو كويلو الذي يحمل عالمه رؤى وأبعاد، يستطيع المتلقي ان يفهم ما يعنيه كويلو، هذه الرؤى مزجت بسحر الحكمة والميراث الروحي، جاءت أيضا ترجمة لحياة كويلو المتقلبة وأسفاره، ثم ها هو أخيرا يعيش في بيته الجميل المطل على شاطئ كوبا كابانا الرائع، متأملا زاهدا في جو يمتزج فيه روح الطبيعة بدفء الحياة.

المراجع:

1-باولو كويليو، كالنهر الذي يجري "نصوص"، ترجمة خالد السيد، الناشر المجمع الثقافي المصري القاهرة.

2- جان ايرياس، باولو كويلو، اعترافات مسافر حاج، ترجمة عز الدين محمود، الناشر ورد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى 2007.

التعريف بالكاتب

محمود عبده حسن

كاتب مصري

يعمل في مجال النفط

من مواليد محافظة قنا عام 1976

نشر له في عديد من الدرويات الثقافية العربية والمحلية.

منها العربي، الرافد، الكويت، الأدب الإسلامي، الوعي الإسلامي، الدوحة، أخبار الأدب.

الفهرس

الإهداء..... 4

المقدمة 5

تأبط شرا من ظرفاء الصعاليك وفرسانهم" 7

جارودي والإسلام.....27

التأثر بالإسلام والبعد الروحي في حياة تولستوي وأدبه 41

"التحدث بنعمة الله" - تراث السيوطي وحياته وعصره.....59

"الخيميائي" نموذجا - التأثر بالإسلام والبعد الصوفي - عند الكاتب البرازيلي باولو كويلو. 77

السيرة النبوية عند المستشرق "إيميل درمنغم" 97

الشاعرة الأمريكية اميلي ديكنسون، تلك العزلة صنعت هذا العالم. 111

الحدائق في الشعر الأندلسي 125

من صور الإبداع في شعر محمد الفايز.....136

في قلب نجد والحجاز 146

من المعارك الفاصلة في تاريخ الإسلام، معركة بلاط الشهداء 171

مشاهدات رلكة وانطباعاته عن الإسلام. 179

اليهود في عقل هؤلاء. 192

مسيرة الإسلام – تأليف كارن ارمسترونج 199

التوحيدي "مأساة فيلسوف". 215

جانب من جوانب عطاء الحضارة الإسلامية – رسائل ابن رشد الطبية 224

مذاق الحرية المرير. "رواية تؤرخ للنضال الإفريقي"، جان ديفاسا نياما.....232

موسم الظل، ليونورا ميانو. "عن تجارة الرقيق في إفريقيا".....239

شعب يوليو. نادين جوديمير، نقد العنصرية من جديد.....244

كالنهر الذي يجري، باولو كويلو، مزيد من السيرة. مزيد من الحكمة. 254

التعريف بالكاتب: محمود عبده حسن.....266

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

نشر كل إنتاج إبداعي بجودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، حتى لا ينزف الوعي من ثقوب الذاكرة، بأعمال تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة، والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.